مكتبة الدراسات اللغوية
(٣)

الساميون ولغاتهم

تعريف بالقرابات اللغوية والحضارية عند العرب

بقلم
الدكتور حسن ظاظا

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت



مكتبة الدِّراساتِ اللّغويّة
(٣)

السّاميّون ولغاتهم

تعريفٌ بالقراباتِ اللّغويّةِ والحضاريّةِ عند العرب

بقلم
الدكتور حسن ظاظا

دار القلم
دمشق

الدّار الشّاميّة
بيروت

الطبعة الثانية

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

في أقصى الغرب من القارة الآسيوية، الذي يسمى أحياناً بالشرق الأدنى، وتساهلاً بالشرق الأوسط، عاش أقوام تتقارب لغاتهم، وقامت لهم حضارات متعاصرة أو متعاقبة، هم الذين أُطلق عليهم اسم الساميين، ومن المفيد أن نحاول هنا إعطاء فكرة عن إقليمهم.

البيئة الجغرافية للساميين:

يكاد هذا الإقليم من حيث موقعه وتضاريسه يعتبر امتداداً للقارة الإفريقية. فقارة آسيا، كما يقول العالم الفرنسي موريه[1]، لا تبدأ في الحقيقة إلا من هضبتي الأناضول وإيران، إذ إنها تتميز من حيث السطح بهضاب مرتفعة متعاقبة تفصل بينها منخفضات وسهول، وهذه الظاهرة غير واضحة في إقليم الساميين.

فهنا نجد شبه جزيرة العرب صحراء مترامية الأطراف تشبه الصحاري الإفريقية، وتقع في إطار مائيٍّ مكوّن من ثلاثة أبحر: البحر الأحمر غرباً، والخليج العربي (الذي يسمونه أيضاً بالخليج الفارسي) شرقاً، والمحيط الهندي جنوباً.

---

(١) A. Moret: Le Nil et la civilisation Egyptienne — Paris 1926, p. 29 s — A. Moret and G. Davy: Des Clans aux Empires — Paris 1923, p. 184s.

راجع أيضاً إلى الفصل الأول من:

Sabatino Moscati: Histoire et Civilisation des Peuples Sémitipues; Èdition française revue et mis à jour ParL'auteur, Paris 1955.

ويكمل هذا الإطار المائي دون أن يمس شبه الجزيرة العربية مباشرة البحر الأبيض المتوسط في الشمال الغربي. وهذه المياه التي تحيط بها من كل جانب تجعل حواشيها خضراء يتوفر فيها ماء يكفي لممارسة الزراعة والرعي والمعيشة في حياة حضرية مستقرة، على نحو يزيد وينقص من جهة إلى جهة من هذه الحواشي والأطراف. فمثلاً كان اليمن وبلاد العرب الجنوبية منذ فجر الإنسانية منطقة خصبة جداً بحيث استحقت أن يسميها الرومان (بلاد العرب السعيدة)، وهو واقع جغرافي رشحها منذ القدم لمساهمة قوية في الحضارة.

في شمال شبه الجزيرة العربية تدور حاشية خضراء من الخليج العربي شرقاً إلى سيناء غرباً يسميها الجغرافيون (الهلال الخصيب)، الذي يبدأ شرقاً بسهول العراق، أو منطقة ما بين النهرين. وإذا كان هيرودوت قد وصف مصر بأنها هبة النيل، فإن العراق هبة الدجلة والفرات. وهذان النهران ينبعان من نقاط متقاربة في أقصى الشمال في جبال أرمينيا، ثم يتباعد مجراهما في شمال العراق مكوّنين سهلاً مرتفعاً على قاعدة من الحجر الجيري، استقر فيها الإنسان منذ أزمان سحيقة في القدم، حتى لقد ارتبطت بها قصة طوفان نوح. ويتابع النهران بعد ذلك مجراهما متقاربين من جديد حتى إذا ما وصلا إلى منطقة بغداد لم يعد يفصلهما من الأرض إلاّ سهل عرضه نحو ثلاثين كيلو متراً. ومن بغداد إلى مصب النهرين عند البصرة سهل أحدث تكويناً من السهل الأعلى. فللنهرين فيضان سنوي قوي جداً يبدأ في الربيع (في شهر مارس) ويبلغ ذروته في شهر مايو، ثم ينتهي مع اقتراب الخريف في سبتمبر. هذا الفيضان الذي يغمر السهول كل عام يترك طبقات رسوبية من الطمي، كانت وما تزال تهاجم الخليج وتتوسع على حسابه، على نفس النحو الذي تم به تكوُّن شمال دلتا النيل.

وتقوم وراء ما بين النهرين سلاسل جبلية في كردستان وأرمينيا وإيران، وهذه السلاسل تستمر غرباً في سلسلة جبال طوروس بآسيا الصغرى، وتتجه

شعبة منها موازية للساحل الشرقي للبحر الأبيض، هي المرتفعات السورية وجبال لبنان ثم مرتفعات فلسطين. وهذا الفرع المتجه نحو الجنوب يبدو مزدوجاً، أي على شكل سلسلتين من المرتفعات يفصل بينهما سهلٌ منخفض، هو سهل البقاع، الواقع بين المرتفعات السورية والجبال الساحلية في لبنان، ثم يستمر في سهل الحولة ووادي الأردن ومنخفض البحر الميت في فلسطين، حيث يكاد هذا الأخدود يتصل بالبحر الأحمر في خليج العقبة. وكان هذا الأخدود الطبيعي منذ القدم طريقاً مأموناً للسفر، وفيه تجري نهيرات مشهورة منها نهر العاصي في سوريا، الذي كان يسمى عند الجغرافيين الرومان نهر أكسيوس أو أورونتيس، ومن هذه التسمية الأخيرة يرد أحياناً باسم نهر الأورونط عند بعض الكتّاب المحدثين.

والمنطقة الساحلية الموازية لشرق البحر الأبيض المتوسط تنقسم إلى منطقتين: شمالية تبدأ من تخوم تركيا، وتنتهي عند الحدود الفلسطينية اللبنانية، وهي فينيقيا القديمة، وتتكون من سهل ساحلي ضيق محصور بين البحر والجبل، تجري فيه نهيرات قصيرة وسريعة، منها نهر إبراهيم (نهر أدونيس عند الرومان)، نهر الكلب (ليكوس)، ونهر بيروت، ونهر الليطاني (ليونتيس). وفي هذا السهل تتتابع الموانىء التي اشتهرت منذ القدم مثل رأس الشمرة (بالقرب من اللاذقية في سوريا) وطرابلس، وجبيل (بيبلوس)، وبيروت، وصيدا، وصور.

أما المنطقة الجنوبية من هذا السهل الساحلي ففيها يتسع السهل إذ تأخذ الجبال في الابتعاد، ويسمى سهل «يزرعئيل» (سهل إزدرلون عند اليونان والرومان)، وأهم أجزائه يسمى لدى العرب مرج ابن عامر، الذي يرويه نهر «قيشون» ويسمى بالعربية نهر «المقطع». ويقوم من ورائه جبل حرمون «جبل الشيخ» ثم جبل الكرمل. وإلى الجنوب من مدينة حيفا يضيق السهل الساحلي، أو يسوده الجفاف الصحراوي فيصبح أقل خصوبة، ويستمر حتى وادي العريش في الأراضي المصرية. وعلى هذا الساحل قامت بلاد متفاوتة في الأهمية منها عكا

وحيفا ويافا وعسقلان وغزة. أمَّا في داخل هذه المنطقة فيوجد سهل على جانب لا بأس به من الخصوبة هو سهل «شارون» وسهل الرملة «هاشفيله» بالعبرية. ثم ترتفع الأرض على شكل هضبة وراء هذين السهلين، توجد فيها مدن تاريخية قديمة أهمها: الخليل «حبرون»، والقدس «أورشليم»، ثم إلى الشمال نابلس «شكيم»، وبيتين «بيت إيل»، والسامرة «شمرون»، والفولة «مجدو».

أما المنطقة السورية من الهلال الخصيب فتنقسم إلى ثلاثة أقسام: المرتفعات السورية غرباً، والبقعة أو سهول الشام الخصيبة في الوسط، وأخيراً بادية الشام.

والمرتفعات السورية تستمر من غرب سوريا إلى شماليها حيث تقيم سداً بين العاصي والفرات تقوم فيه مدن حصينة منها حلب، ومرعش، وقادش، ثم نهرينا، على نهر العاصي. وفي سوريا الوسطى الخصيبة نلاحظ أنه تشقها أنهار ذات مجرى أفقي، ومن أشهر مدنها: دمشق التي تقع على نهر بردى، والذي كان يسمى قديماً آبانا. وأما بادية الشام، التي تمتد حتى سهول العراق فليست إلا امتداداً للصحراء العربية التي تعتبر جغرافياً استمراراً للصحاري الإفريقية كما قلنا. ولكن منذ القدم كان الإنسان مضطراً إلى اجتياز هذه الصحراء الواقعة بين بلاد غنية متحضرة، مما أدَّى إلى قيام مدن في هذه الصحراء تعتبر محطات للقوافل الآتية من العراق نحو ساحل البحر الأبيض، أو الآتية من بلاد العرب إلى شرق الأردن لتتصل بخطوط القوافل الأخرى بعد ذلك. ومن أهم هذه المدن تدمر في سوريا «بلميرا»، وسلع في الأردن «بترا»، وغيرهما.

من هم الساميون؟

في هذه البقعة من الأرض قامت الحضارات التي أنشأها الساميون. وهذه التسمية ترجع إلى صحيفة الأنساب الواردة في الإصحاح العاشر من سفر التكوين (الآيات من ٢١ إلى ٣١). ففي هذا الموضع نقرأ أن آشور وآرام

وعابر، الذي يذكر العبريون اسمه على أنه أبوهم الذي ينتسبون إليه، كانوا جميعاً من أبناء سام بن نوح.

أما الاستعمال العلمي للفظة «سامي» فحديث العهد يرجع إلى عام ١٧٨١، عندما اقترحه اللغوي الألماني شلوتزر علماً على الشعوب التي أنشأت في هذا الجزء من غرب آسيا حضارات ترتبط لغوياً وتاريخياً كما ترتبط إلى حدٍّ ما من حيث الأنساب. وقد حدث نفس الأمر في أيامنا هذه، إذ اقترح المستشرق الأمريكي، الألماني الأصل، شبايزر اصطلاح «اليافثيين» للدلالة على شعوب كثيرة غامضة التاريخ والانتماء، كانت تعيش في إيران وأعالي الدجلة والفرات قبيل فجر التاريخ، خصوصاً فيما يسمى ببلاد العيلامين. ويقول العالم الفرنسي الأب هنري فليش[1]: إنه ينبغي ألّا نفهم من استعمال كلمة «السامية» أي شيء أكثر من اصطلاح المقصود به تيسير الأمر على الباحثين، دون أن نعتقد أن له دلالة عنصرية. والذي يريده الباحث الفرنسي بهذا القول هو الإشارة إلى أن أية عصبية للسامية أو ضدها بالمعنى الديني (ضد اليهود مثلاً) أو الاجتماعي والسياسي (ضد العرب مثلاً) لا تقوم على أساس من علم السلالات البشرية. ومصداقاً لهذا يقول الأنثروبولوجي السويسري بيتار في معرض الحديث عن الشعوب السامية:

«هل ينبغي أن يدخل الفينيقيون ضمن هذه المجموعة التي تسمى بالساميين؟ من الجائز أن يكون ولكنه ليس من المؤكد، وعلينا أن نتريث من بعد»[2]. ويقف نفس الوقفة عند العرب، فيقول: «إنهم من وجهة نظر علم السلالات البشرية، يمثلون في نظرنا، مشكلة ما يزال حلها بعيداً، وبعيداً جداً». ويتساءل بعد ذلك عما إذا كان قد وُجد في يوم ما جنس عربي خالص. وتساؤله من باب الاستبعاد. وكذلك الأمر عنده فيما يتصل باليهود على

---

(١) Henri Fleisch, Introduction à L'Etude des Langues Sémitiques — Paris 1947 p. 18.

(٢) Eugéne Pittard, Les Races et L'Histoire — Paris 1924, p, 412.

الرغم مما يعتقده كثير منهم ممن أنضووا تحت الفكرة العنصرية اليهودية. فاليهود جميعاً في رأيه بعيدون كل البعد عن الانتماء إلى ما يسمى بجنس يهودي. ويزيد ذلك إيضاحاً عندما يقول: إنهم ينتمون إلى طائفة دينية واجتماعية اندمج فيها على طول الأجيال المتعاقبة أشخاص ينحدرون من سلالات متنوعة، وهي طائفة قوية ومتماسكة بدون شك، ولكن العناصر المكوِّنة لها مختلفة، لدرجة أن الباحث يتساءل في حالات معينة من تطبيق بحث السلالات، إلى أي حد هذه المجموعة أو تلك من اليهود تحتوي على نسبة خالصة من هذا الجنس، أي: من أولئك الذين كونوا في قديم الزمان قرب البحر الميت هذا الشعب القديم المتحمس، شعب الله المختار؟[1]، وحتى هذا الشعب اليهودي القديم نفسه، ما يزال أكثر من سؤال يطرح حول درجته من الأصالة أو النقاء[2]، هذه الأصالة التي يهدمها من الأساس علماء معاصرون كبار مثل زيجموند فرويد، الذي كرس كتابه المسمى «موسى والوحدانية»[3] لإثبات أن موسى ينتمي، لا إلى الجنس الإسرائيلي ولكن إلى الجنس المصري، وأن من يسمون ببني إسرائيل ممن خرج معه من مصر ليسوا إلا أخلاطاً من الأسرى والعبيد والأجراء الذين ينتمون إلى جميع الشعوب التي كان المصريون القدماء يتعاملون معها في الحرب والسلم.

ولكن الذي لا شك فيه هو أن دماء كثيرة قد امتزجت بعضها ببعض في منطقة الشرق الأدنى القديم، فنشأت بينها قرابات اجتماعية وفكرية ولغوية، بل نستطيع أن نقول: إن السحنة نفسها قد اتخذت طابعاً مميزاً دون أن يكون طابع أرومة نقية وعرق أصيل. وهذا هو مذهب بيتار نفسه الذي يختم شكوكه بقوله إنه مع ذلك فإن الفينيقيين والبابليين والعرب واليهود يتشابهون عند البحث الأنثروبولوجي بمميزات مشتركة معينة.

(١) المرجع السابق، ص ٤٣٢ ــ ٤٤٢.

(٢) نفس المرجع، ص ٤١٣ ــ ٤٣١.

(٣) Sigmund Freud, Moise et le Manothéisme, traduit de l'allemand par Anne Berman, Paris 1948.

فإذا ما انتقلنا إلى علم اللغة المقارن، وجدنا أنفسنا على أرض أكثر صلابة. فلغات هذه الأمم التي تسمّى سامية تتشابه في أكثر من نقطة رئيسية، فالألفاظ المتداولة بينها تمثل نسبة ضخمة من ثروتها اللغوية، ومخارج الحروف التي تميز هذه العائلة، ولا توجد في غيرها، وصيغ الصرف التي تتفرع بها الكلمات من المادة الواحدة تجري في كل هذه اللغات على خطةٍ لا تختلف في جوهرها، إلى غير ذلك مما سيتضح لنا بعد؛ وهو أمرٌ إن دلَّ على شيء فإنما يدلّ على أنّ وراء هذه اللغات التي تسمى سامية لغة واحدة، اندثرت في العصور السابقة على التاريخ. ولكن أين كان المتكلمون بهذه اللغة؟ وبعبارة أوضح، أين كان المنطلَق البشري واللغوي لهذه المجموعة السامية قبل أن يعرض لها الامتزاج والتشعب، وقبل أن تظهر فيها كل هذه الأمم واللغات واللهجات؟

المهد الجغرافي الأول للغة السامية الأم بحث حيَّر العلماء. فبعضهم حاول أن يلمس المسألة من أقرب السبل في ظنه، وهو طريق دراسة المأثورات القصصية القديمة، وفي مقدمتها قصة الطوفان. ففي هذه القصة يفهم من السياق المذكور في التوراة وفي كثير من أساطير البابليين والشومريين أن السفينة رَسَتْ في مكان ما من المرتفعات التي ينبع منها الدجلة والفرات في شمال العراق. وبناء على ذلك قال هؤلاء العلماء بأن مرتفعات كردستان هي المعنية، وحدَّدوها مكاناً أصلياً للساميين. والخلل في هذه الفكرة يأتي من أنه لو سَلَّمْنا بها جدلاً، وبدون مناقشة، فإنه يترتب على ذلك أن تكون مرتفعات كردستان مهداً للإنسانية كلها لا للساميين وحدهم، فقد نزل من السفينة في هذا المكان المفترض نوح وأبناؤه الثلاثة جميعاً: سام وحام ويافث. ولكن أنصار هذه الفكرة كانوا يقولون عن حام: إنه لُعِن، ومعنى ذلك أنه طُرِد أيضاً، وأن يافث انطلق ليكون شعباً كثير العدد في بلاد بعيدة، بينما بقي سام بجوار أبيه نوح حيث رست السفينة، كما أنه في نفس المنطقة عاش أرفكشد، ومن بعده عابر، الأب الأسطوري للعبريين. وواضح أننا في تلك النظرية ننتقل من افتراض إلى أسطورة إلى

مفاهيم ضمنية، وكل ذلك لا يمكن أن تقوم عليه نظرية علمية مقبولة؛ ومن أجل ذلك فإن هذا الافتراض قد أصبح الآن مهجوراً لا يقبل عليه أحد.

هناك افتراض آخر يجعل ما بين النهرين، أي سهول العراق، البيئة الأولى للسامية الأم. إلى هذا ذهب إرنست رينان، وفرانسوا لنورمان، وفريتز هومل، وبيترز، كما كان من أوائل القائلين بها الإيطالي إغناطيوس جويدي في بحث نشره في روما بعنوان «مهد الشعوب السامية» سنة ١٨٧٨ - ١٨٧٩ (١). كانت حجة جويدي لغوية، فقد لاحظ أن «نَهْر» موجودة بلفظها هذا تقريباً في جميع اللغات السامية العربية والعبرية والآرامية والسريانية والبابلية الآشورية، بينما تختلف كلمة «جَبَل» اختلافاً بيّناً من لغة سامية إلى أخرى. ففي العربية «جبل»، وفي العبرية «هَرْ»، وفي الآرامية والسريانية «طُورَا»، وفي البابلية الآشورية « شادُوا ». وكذلك لاحظ أن كثيراً من أسماء النباتات والحيوانات وأشكال الأرض في اللغات السامية تشبه ما يوجد من ذلك في البابلية الآشورية، لا في العربية. واستخلص من ذلك نتيجة هي: أن سهول العراق لا بد أن تكون الوطن الأصلي للساميين، ولا سيما إذا أضفنا إلى ذلك أن البابلية الآشورية توجد منها نصوص مكتوبة منذ الألف الرابع قبل الميلاد، وهي أقدم كتابات في تاريخ الساميين على الإطلاق.

ولكن هذه النظرية أيضاً مجروحة لسبب بسيط جداً وهو أن أحد الملوك الساميين الأول في العراق، وهو الملك سرجون الأول الأكادي (حوالي سنة ٢٦٠٠ قبل الميلاد) كتب عن أصله في نقش مشهور ما يفهم منه صراحة أنه وعشيرته نزحوا إلى العراق من شرقي جزيرة العرب. ثم إن تاريخ العراق قبل نزوح الساميين إليها معروف لنا عن طريق الوثائق الشومرية التي تثبت أن هذا الشعب، ولم يكن سامياً، هو الشعب الأصلي في العراق، وهو يختلف كل الاختلاف في العادات والتقاليد والزي والسحنة عن الساميين. أما فيما يتصل

(١) Sigmund Freud, Moise et le Manothéisme, traduit de l'allemand par Anne Berman, Paris 1948.

بشيوع كلمة نهر واختلاف الكلمة الدالة على الجبل فإن ذلك، إن دل على شيء فإنما يدل على أن الساميين قد عرفوا النهر قبل أن يعرفوا الجبل، وقبل أن يتفرقوا وتختلف لهجاتهم، ولكن أيُّ نهر؟ ليس من المحتم أن يكون الدجلة أو الفرات، وسوف نرى.

وأمَّا دحض ملاحظة جويدي بالطريقة التي اتبعها الأب هنري فليش[1]، إذ قال: إن شيوع كلمة النهر، واختلاف اللفظة الدالة على الجبل لا يدل على شيء، وأن اللفظة التي تستعمل للدلالة على الرجل أو الإنسان ليست هي أيضاً بواحدة في كل اللغات السامية، فإنه في رأينا دفع ضعيف، فالذي لا شك فيه أن كلمة «إنس» كانت هي الكلمة الشائعة فيما قبل تاريخ هذه اللغات للدلالة على الإنسان، وهي الكلمة الموجودة عندنا في العربية وفي العبرية وفي الآرامية، التي توجد فيها أيضاً كلمة «جبرا»، وهي في الواقع اسمٌ مجازي للرجل يتضمن معنى القوة الذي يوجد في كلمة «الجبروت». أما كلمة الرجل في اللغة العربية فمنظور فيها إلى أنه المخلوق الذي يمشي على رجلين لا على أربع. وإذا كانت كلمة «إنس» المذكورة غير موجودة بمعنى رجل أو إنسان في بعض اللغات السامية، فإن المؤنث منها مستفيض في كل هذه اللغات، أحياناً كما هو، وأحياناً منقلبة سينه شيناً أو ثاء، كما هو الحال عندنا في العربية في كلمة «أنثى»، مع وجود جمع امرأة في العربية على نساء ونسوة. هذه الصيغة المؤنثة من إنس بصورها الصوتية المتقاربة، توجد في البابلية الآشورية والفينيقية والآرامية بجميع لهجاتها من آرامية مصرية وآرامية يهودية وسريانية وتدمرية، كما توجد في الحبشية والعربية الجنوبية. أما فيما يتصل بأسماء بعض النباتات والحيوانات والأرضين فربما كانت الألفاظ الشائعة من ذلك في البابلية الآشورية ألفاظاً مستعارة من لغات أخرى غير سامية، كلغات القوقاز وفارس والأناضول.

---

(١) نفس المرجع.

ومن بين الاقتراحات التي قُدِّمت عن مهد الساميين، ما ذكره المستشرق تيودور نولدكه، مِنْ ميله إلى أن تكون إفريقية هي تلك البيئة الأولى؛ لما لاحظه من وجوه الشبه بين هذه اللغات السامية ولغات المجموعة الحامية. وقد تبع هذه الفكرة العالم البريطاني بارتون في كتاب له ظهر في لندن سنة ١٩٣٤ بعنوان «أصول الساميين والحاميين الاجتماعية والدينية»(١). والاعتراض الموجَّه إلى هذه النظرية هو: كيف اختفت من إفريقية إذن جميع اللغات السامية بحيث لا تعود إلى الظهور إلاَّ في المستعمرات الفينيقية على الساحل، لا سيما المستعمرة البونية في قرطاجة بتونس، ثم مع الفتح العربي في القرن السابع الميلادي؟ وهو اعتراض مفحم ليست له إجابة علمية مقنعة.

وافترض المستشرق الأمريكي كلاي أن يكون الموطن الأول للساميين في الشمال من سوريا، حيث بلاد «آمورو» كما كانت تسمى في النقوش القديمة. وهذا الافتراض لا يقوم على دراسات حضارية وأثرية تدعمها حفائر، وإنما يقوم على مقارنة فكريةٍ في الأساطير والمأثورات الشعبية بين المناطق التي ازدهرت فيها. وقد تمسك به من الفرنسيين موريه وتعصَّب له جداً، كما أفاض في ذلك الدكتور جورج كونتنو. وكان من الأدلة التي استعملت لتأييد هذه النظرية أن الأسرة البابلية الأولى، وهي من أقدم وأمجد الحكومات السامية في العراق، كانت نازحة من الغرب، من إقليم «آمورو». كذلك لوحظ تشابه في بعض بقايا الحضارات القديمة بين الجهتين. ولكن إذا سَلَّمنا بذلك فإنه يترتب عليه أن يكون الساميون قد انطلقوا من سوريا إلى غيرها من بلاد الشرق الأدنى، كالعراق والأردن وشبه الجزيرة العربية، وهذا يقتضي رحلات طويلة عبر الصحراوات لا يمكن القيام بها في هذه العصور الموغلة في القدم إلاَّ على ظهور الإبل، ومعنى ذلك أن الإبل ينبغي أن تكون معروفةً ومستأنسةً ومستخدمةً في القوافل منذ الألف الرابع قبل

---

(١) C. A. Barton Semitic and Hamitic Origins, Social and Religious, London 1634.

الميلاد على الأقل، وهو أمر تقوم الأدلة كلها على خلافه، إذ إن استعمال الجمال في هذه المنطقة لم يعرف إلاّ في أخريات الألف الثالث قبل الميلاد وربما بعد ذلك؛ وهي عقبة كؤود في طريق إقرار هذه النظرية والإقرار بها.

هناك رأي أخير ذهب إليه من أوائل المستشرقين إيرهارد شرادر، وأيّده من بعد فنكلر، وتيله، والأب فنسان، والأثري الفرنسي جاك دي مورجان، والمستشرق الإيطالي كايتاني، وهو يرى أن الموطن الأصلي للساميين كان شبه الجزيرة العربية.

فمنذ فجر التاريخ وما قبل التاريخ، كانت كل المواطن المقترحة الأخرى مسكونةً بشعوب غير سامية ما عدا جزيرة العرب. ثم إن الأسطورة التي وردت أصداء منها في أول سفر التكوين من التوراة تذكر أن الجنة الأرضية كانت ترويها أربعة أنهر تجتمع في مصبٍ واحدٍ لتصبح نهراً واحداً، واثنان من هذه الأنهر هما الدجلة والفرات. أما الإثنان الآخران فكان أحدُهما يسمى فيشون، وتصفه التوراة بأنه «يحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب، وذهب تلك الأرض جيد، وفيها المقل وحجر الجزع»[1]. وظاهر أن هذا النهر الثالث كان ربما يوصل إلى الأطراف الجنوبية الشرقية من شبه جزيرة العرب مما يلي عدن شرقاً. والنهر الرابع يسمى في هذه القصة جيحون، وتصفه التوراة بأنه «يحيط بجميع أرض الحبشة[2]» ويبدو من ذلك أنه كان ينبع من جبال اليمن ويأخذ مجراه مستديراً حولها فيلتقي بنهر فيشون ونهر الدجلة والفرات في شط العرب، وقد أفادت أبحاث المستشرق الألماني «فريتز هومل»[3] أن ميل السطح في شبه جزيرة العرب، وتعرُّضه للرياح الموسمية، ربما كان قد تغير بانخساف في طبقات

(١) سفر التكوين: ٢/١٢.

(٢) التكوين: ٢/١٣؛ وأرض الحبشة تسمى في هذا النص أرض كوش.

(٣) Fritz Hommel, die die Schwurgotterin Esch-Ghanna und ihrer Kreis, Paris 1912.

الأرض، فندر الماء في شبه الجزيرة العربية، وجف النهران الكبيران. ولعل سبق اليمن إلى عمارة السدود وخزانات المياه، التي من أشهرها سد مأرب، يرجع إلى محاولة التغلب على هذا القحط؛ بل لعل المأثورات المتداولة بين عرب الجاهلية عن وجود ما يسمى بالعرب البائدة مثل عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم ووبار إنما هو صدى لتلك الكوارث الجغرافية التي دفعت بالساميين الأصليين من سكان بلاد العرب إلى البحث عن القوت في أماكن أخرى.

وهكذا نجد أنفسنا هنا أمام نظرية متكاملة: فالساميون عرفوا أول ما عرفوا النهر لا الجبل، إذ عاشوا على النهرين الكبيرين اللذين كانا يشقان شبه الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها، كما عاش الشومريون على النهرين الآخرين الدجلة والفرات. كذلك تفسر لنا هذه النظرية الأسباب التي كانت وراء هجرة الساميين وانتشارهم في الشرق الأدنى. أما العرب الذين بقوا في أرضهم بعد جفافها فإن لغتهم المقدسة قد بقيت معهم؛ وهذا يفسر لنا القدسية التي كانت للعربية الفصحى بين عرب الجاهلية، كما يفسِّر لنا إجماع علماء النحو المقارن للغات السامية، من أمثال: بروكلمان ووليم رايت وإدوار دُورُوم ودافيد يِلِين، على أن اللغة العربية الفصحى هي بلا منازع أقدم صورة حية من اللغة السامية الأم، وأقرب هذه الصور إلى تلك اللغة التي تفرعت منها بقية اللغات السامية.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن أسماء الأعلام التي تدل على بعض المواضع ترجع إلى تبادل فكري وديني لا نعلم متى كانت بدايته، لإيغاله في القدم؛ فإننا لا يسعنا إلاَّ أن نؤيد هذه النظرية. فمن تلك الأسماء: إقليم تهامة، وهو سهل الحجاز الساحلي الواقع على البحر الأحمر، وهو يمت لغوياً بصلة إلى الآلهة «تِيامَتْ» المعروفة في وثنية العراق القديم بكونها تهيمن على الشطوط والسواحل ومصايد الأسماك. كذلك اسم مدينة عدن في جنوب الجزيرة ليس بغريب عن نفس الأصل السامي القديم الذي أخذت منه كلمة عَدَنْ صفة للجنة، والأصل في كل هذه المادة أنها تدل على النعومة والصقل والبريق، ومنها اشتقت كلمة مَعْدِن أيضاً.

ويضيف العالم الإيطالي سباتينو موسكاتي[1] إلى ذلك أننا لو تتبعنا تاريخ الموجات البشرية التي انطلقت في هجرات تاريخية معروفة بيقين نحو ما نسميه الآن بالشرق العربي، لوجدنا أن هذه الهجرات كانت دائماً وأبداً تنطلق من شبه الجزيرة العربية.

كان الدافع إذن إلى خروج الساميين الأول من موطنهم الأصلي في شبه الجزيرة العربية هو الجفاف، ونضوب معين النهرين اللذين أشرنا إليهما، ولعل مما يزيد هذه النظرية رجوحاً أن نتذكر أن هذين النهرين ما تزال أجزاء من مجرى كل منهما موجودة إلى الآن يملؤها المطر إذا انهمرت سيوله في بعض الأحيان، مما ظهر أثره واضحاً في الشعر الغنائي في الجاهلية. وإذا كان الساميون قد تفرقوا على حواشي شبه الجزيرة بسبب هذا الجفاف، فإن معنى ذلك أن القفر سرعان ما فصل بينهم فتطورت لغاتهم وحضاراتهم، متباعدة بعضها عن بعض. وهذه الظاهرة هي عكس الظاهرة السائدة في تكوين الشعب المصري. ففي مصر يقع الخصب في وادي النيل مجتمعاً في صعيد واحد تحيط به الصحاري من الجانبين، مما أدى إلى تأكد الوحدة السكانية للمصريين في مقابل التفرق الذي حدث عند الساميين.

وسنحاول الآن أن نتتبع هؤلاء الساميين في بيئاتهم المختلفة لنرى كيف تشعبت شعوبهم وتنوعت لغاتهم وتعددت حضاراتهم على مر التاريخ.

الساميون الأُوَل:

لم يبق من هؤلاء أثر يساعدنا على معرفة المستوى الحضاري الذي وصلوا إليه، كما أنه ليست لدينا نصوص مكتوبة تشهد بالشكل التام الذي كانت عليه لغتهم السامية الأم. ولكن الذي لا شك فيه الآن أنهم أقوامٌ عاشوا في ما قبل

---

(١) Sabatino Moscati: Histoire et Civilisation des Peuples Sémitiques, p. 32-33.

التاريخ في شبه الجزيرة العربية أيام أن كانت خصيبة خضراء، ثم دهمهم القحط فتفرق مَنْ تفرق منهم بالهجرة، واندثر كثير ممن بقي منهم. ومع ذلك فمن الممكن من خلال مقارنة الأساطير الموغلة في القدم أن نستشف بعض معلومات عن بيئتهم، كما أنه من الممكن، بمقارنة اللغات السامية الباقية لدينا، أن نستخلص صفات عامة للغتهم الأولى:

فهؤلاء الأقوام كانوا يعيشون في خصب ورغد، فما يذكر عن عاد وغيرها من القبائل البائدة يشير إلى أنهم عرفوا عصوراً من الغنى والخيرات، كانت أرضهم فيها ذات حدائق وبساتين، ثم أتاها أمر الله فعادت غثاء وهشيماً وهلك أهلوها.

أما فيما يتصل باللغة السامية الأم، فمن الممكن أن نلخص بعض صفاتها فيما يلي:

كانت تمتاز باحتوائها من الناحية الصوتية على:

١ ــ **حروف الحلق ولا سيما الحاء والعين**: وهي حروف نجدها بنطقها السليم في اللغة العربية والعبرية والآرامية والحبشية، ولكنها تضيع في اللغة البابلية الآشورية وتحل محلها الهمزة، وذلك بتأثير الشومرية التي لم تكن تعرف حروف الحلق. فكلمة «عين» للدلالة على عضو الإبصار موجودة هكذا في جميع هذه اللغات: أما في البابلية الآشورية فإنها تصبح «إينو». وكلمة «حمار» موجودة بشكلها هذا في الآرامية، وهي في العبرية «حَمُور» وتصير في البابلية الآشورية «إميرو». وهناك حرفان هما الغين والخاء، قريبان جداً من العين والحاء، موجودان في العربية ولكنهما اختفيا من كثير من اللغات السامية الأخرى، فكلمة «صغير»، والفعل «صغُر»، توجد المادة الأصلية لاشتقاقهما بالعين في العبرية والآرامية والحبشية، وبالغين في العربية والسبئية، بينما نجدها بالخاء في البابلية الآشورية حيث يقال للصغير «صَخِيرُو». وكلمة «غرب» في العربية للجهة التي تقابل الشرق وردت بالعين في العبرية والآرامية والحبشية، ووردت بالهمزة «إربو» في البابلية الآشورية. والعدد «خمسة» ينطق بالحاء في العبرية والآرامية،

وبـالخاء في الحبشيـة والبابليـة الآشوريـة. وهكذا استنتـج البـاحثـون عن اللغـة السامية الأم، وفي مقدمتهم بروكلمـان ورايت وبورشتاين وغيرهم، أن العـربية في هذا ناطقة بما كـان في نطق السـامية الأم؛ أي بـالهمزة والعـين والغين والخـاء والهاء، وأن اختفاءِ هذا في بعض اللغات السامية طارىء عليها.

٢ ــ **حـروف التفخيم أو الإطباق**: وهي الـطاء والصاد والقـاف والـظاء والضاد، وقد أجمـع الباحثـون في مقارنـة اللغات عـلى أن القاف والـطاء والصاد شائعة في كل اللغات السامية، وبالتالي فهي بلا شك كانت موجـودة في الساميـة الأم، ومثال ذلك كلمة «قَرْن» التي لا تتغير قافها بين لغةٍ ساميةٍ وأخرى، وكلمـة «طَلّ» لرذاذ المـطر، بل كلمـة «مطر» نفسهـا، لا تتغير فيهـا الطاء بتغـير اللغات السامية؛ وكلمة «إصبـع» تحتفظ بالصـاد كما هي أيضـاً. أما الـظاء فالـظاهر أنها من مستحدثات العربية الفصحى في بعض ما كان في الأصل صاداً، فكلمة «الظل» بالعربية كانت بالصاد في البابلية الآشورية والعبرية والحبشية، ولكنها صارت طاء في الآرامية والسريانية، ووردت بالصاد أحياناً وبالظاء أحيـاناً في النقـوش اليمنية القديمة، ولذلك يرجِّح اللغويون أنها لم تكن حرفاً قـائماً بـذاته في اللغـة الساميـة الأم. وأما الضاد فهذه بلا شك من خصوصيات العربيـة الفصحى، بل العـربية الفصحى في أنقى وأرقى صـورة لأدائها، ولــذلـك شـاعت تسميـة العــربيـة بلغة الضاد.

٣ ــ **الحروف بين السنانية**، وهي باستثناء الـظاء، التي فرغنـا من الكلام عنها، تصبح حرفين: الثاء والذال، وهما شائعان في العربية، والمقارنة تثبت أنها حافظت عليهما من اللغة السامية الأم، بينما أضاعتهما اللغات السامية الأخـرى؛ فكلمة «أُذُن» في اللغة العربية، تـأتي في البابليـة الآشوريـة وفي العبرية والحبشية بالزاي، بينما تأتي بالدال في الآرامية والسريـانية، وفي عـربية اليمن القـديمة ورد «أُذُن» بالذال كـما في العربيـة الفصحى. وأما حـرف الثاء فـإنه يتـأرجح في غـير العربية من اللغات السامية بين الشين أو السين أو التاء، فالعبـرية تنـطق «شور»

عندما تريد الحيوان الذي يقال له في العربية ثَور، وهو في البابلية الآشورية (شورو)، وفي الآرامية والسريانية (تُورا)، ولم ترد الثاء إلاَّ في الفينيقية إلى جانب العربية.

ونستخلص مما تقدم أن مخارج الحروف في اللغة السامية الأم هي: الهمزة والهاء والحاء والخاء والعين والغين والباء والفاء (التي يظن بعض اللغويين أنها كانت انفجارية مثل حرف P الأوروبي)، والدال والذال والتاء والثاء والجيم (التي يظنون أنها كانت غير معطشة، كالجيم المصرية)، والكاف واللام والميم والنون والراء والواو والياء والطاء والقاف والصاد، ـ ويُظن أنه بجانب الصاد البسيطة كان هناك صوتان آخران للصاد أحدهما «تصاد» والثاني «ةساد» ـ والسين والشين ـ ويظن أنه كان هناك حرف آخر نطقه بين السين والشين ـ وأخيراً حرف الزاي. فمجموع المخارج الأساسية لحروفها ستة وعشرون.

ولو أننا عرضنا على هذه الأصوات مجموعة مخارج الحروف الموجودة في كل لغة من اللغات السامية، لوجدنا أن أوفى هذه الأبجديات، وأشدها انطباقاً على مخارج الساميين الأول، هو أبجدية العربية الفصحى التي تحتوي على كل ما جاء هنا ما عدا السين التي بين بين، والصادين الفرعيتين؛ وقد حدث في العربية نطقان جديدان هما الضاد والظاء.

وهكذا تصبح مخارج الحروف في العربية ثمانية وعشرين، وفي السامية الأم على أوسع الافتراضات تسعة وعشرين. بينما هي تنقص عن ذلك كثيراً في العبرية والآرامية والحبشية والبابلية الآشورية، مع ملاحظة أننا نتكلم هنا عن المخارج الأصلية للحروف، التي تؤخذ في الاعتبار عند المقارنة اللغوية والبحث عن أصول الألفاظ.

وهناك ميزات صرفية تميز السامية الأم، وتتبينً بوضوح في كل اللغات المتفرعة عنها، وهي أنها تعتمد بصورة أساسية على الحروف الساكنة، وتستعمل الحركات لتنويع المشتقات من المادة الواحدة التي غالباً ما تكون مكونة من ثلاثة

أحـرفٍ ساكنةٍ، ويندر أن تزيـد على ذلـك. فالأصـل في مادة «كتب» هـو هـذه الأحرف الساكنـة الثلاثـة: (ك، ت، ب). أحرِّكهـا بفتحات في الفعـل الماضي المبني للمعلوم، وبضمـة فكسرة ففتحـة للمبني للمجهول، وأشتق منهـا الكـاتب والمكتوب والكتابة والكتاب والمكتب والأفعال كَاتَبَ واسْتَكْتَبَ وانْكَتَبَ، إلى آخر ما يتولد من هذه المادة من كلمات.

واللغات السامية لغات تنطلق فيها المشتقات من المادة الثلاثية المجـردة إلى المزيدات بحروف الزيادة، وقد تكـون هذه الحـروف «سوابق» كـما هو الحـال في كلمـة مكتب والفعـل انكتب، أو «مقحمـات» كـما هي الحـال في كلمـة كـاتب وكتاب، أو «لواحق» كـما في الجمع كتبـة، أو هذه مجتمعـة بعضها أو كلهـا كما في مكاتب، وكتابة، ومكتوبات ونحو ذلك.

ومما يميز اللغـات الساميـة أنها في تصريف الأفعـال لا تتضمن إلَّا صيغتين اثنتـين، إحداهمـا تدل عـلى تمام وقـوع الحدث وانقضـائه وانقـطاعه، وهي التي تسمى بصيغة الفعل الماضي، والثانيـة تدل عـلى استمرار الحـدث وعدم تمـامه، وهي التي تسمى المضـارع. والذين يقـولون: إن المـاضي يدل عـلى ما مضى من الـزمان، والمضـارع على الحـال أو الاستقبال، رابـطين هذه الصـورة من الفعـل بالدلالة على الزمن، إنما يفعلون ذلك من باب تقريب الأمر للمتعلمين، وتسهيل المئونة عليهم؛ أما الاستعمـال ففيه كثير مما يخالف ذلك. نقول مثلاً: إذا وصلتك هذه الرسالة فافعل كذا وكذا، وليس يدل الفعل وَصَلَ هنا على الزمن المـاضي، بل على المستقبل، تماماً كما لو قيل: عندما تصلك هذه الرسالة. ونقول: لم يحضر فـلان، وليس معناه في الحـال أو الاستقبـال، وإنمـا معنـاه: مضى الـوقت الـذي انتظرنا فيه فلاناً فما حضر. وفي قوله تعالى: ﴿**قَدْ نَـرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُـوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَـرْضَاهَـا**﴾[1]، لا يريـد أن يقول إننـا نـرى الآن، أو سنـرى في

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٤.

المستقبل، بل المفهوم أنه تكررت رؤيتنا لتقلب وجهك المستمر الذي لا ينقطع، وقول الشاعر:

قَدْ أَشْهَدُ الغَارَةَ الشَعْوَاءَ تَحْمِلُني جَرْدَاءُ معروقَةُ اللحْيَيْنِ شرْحُوبُ

لا يريد به أنه يشهد الغارة الآن، أو في المستقبل، أو أنه قد يشهدها وقد لا يشهدها، ولكنه يريد أن يقول: إنه تكرر شهوده للغارات، واتصل بلا انقطاع. وعندما يقول الشاعر:

مَنْ يَفْعَلِ الخيرَ لاَ يَعدمْ جوازِيَهُ لا يَذهب العُرفُ بين اللَّهِ والناسِ

فهو لا يريد زمناً معيناً للفعل «يفعل»، وإنما هو يريد الحقيقة الثابتة الدائمة التي لا تتقيد بزمان، وكأنه قال: فاعل الخير لا يعدم جوازيه.

وهكذا كان التعبير عن الزمن في الفعل أمراً يحدده الأسلوب، والسياق والملابسات وبعض الأدوات الإضافية مثل السين، وسوف، والأفعال الناقصة ولن، ولم، وقد، ونحوها؛ ومثل ذلك مطرد بشكل يشبهه في سائر اللغات السامية ما عدا البابلية الآشورية، التي أخذ تصريف الفعل فيها، بتأثير الشومريين، شكلاً أقرب للمعروف في اللغات الأوروبية من الدلالة على الزمن بالصيغة التي يصرَّف فيها الفعل.

وفي اللغات السامية تكثر الصيغ الفعلية التي تدل على معانٍ أخرى ملابسة للحَدَث، فإلى جانب المصدر وأسماء الفاعل والمفعول وصيغة الأمر وصيغة المضارع الإخباري (المرفوع في اللغة العربي)، والمضارع الاحتمالي (المنصوب في اللغة العربية)، عرفت اللغات السامية صيغة مجزومة من المضارع، للدلالة على تحتُّم وقوع الحدث، وصيغة مبنية على الفتح للتأكيد.

ومن المميزات العامة للغات السامية وجود الجملة الاسمية فيها، أي التي تقوم على مبدأ وخبر دون رابطةٍ لفظية بينهما، من فعل مساعد أو غيره، كما هي الحال في مجموعة اللغات الهندية الأوروبية. ففي أية لغة سامية أستطيع أن

أقول: «زيد فارس»، فتتكون من تجاور هاتين الكلمتين جملة مفيدة، دون أن أحتاج إلى أن أضع بينهما فعلاً مثل «يكون»، أو ضميراً مثل «هو» أو نحو ذلك. وبالطبع تقوم الجملة الفعلية إلى جانب الجملة الاسمية، ويكثر فيها تصدير الفعل خصوصاً إذا أريد مجرد الإخبار والتعبير عما جرى. يقول موسكاتي: إن العرب في هذه الحالة تقول: «كتب زيد إلى أبيه» وليست تقول: «زيد كتب إلى أبيه»(١).

من الصفات التي تميز اللغات السامية أيضاً شيوع اشتقاق الأسماء من الأفعال، وكذلك العكس؛ يقولون: «المجلس» من الفعل جلس، لمكان الجلوس، أو لمجموع الحاضرين في هذا المكان، ويقولون: «الكتاب» و«المكتبة»، من الفعل كتب، وكذلك الأخ «الشقيق» من الفعل شق وكأنه مشقوق من نفس الأصل الذي جاء منه أخوه؛ ويقولون: «الطريق» للدرب من الأرض الذي تطرقه الأقدام، وبالعكس يقولون «استأسد» الرجل، أي ظن نفسه أسداً، «وترجَّل» الفرسان، أي نزلوا من فوق خيلهم ووقفوا على أرجلهم، «ورأس» فلان القوم، أي صار لهم بمنزلة الرأس من الجسد، «وعاينت» كذا أي رأيته، مشتق من العين، إلى آخر ذلك.

هذه الصفات العامة التي انطلق بها الساميّون من موطنهم الأصلي، كلٌّ في جهته، يُضاف إليها شيء آخر بقي في بعض هذه اللغات واندثر من بعض. فهناك تغيير في الحركات الواقعة على أواخر الألفاظ لتحديد وظيفتها في الجملة، وهو ما يسمى بالإعراب. ففي اللغة العربية تأخذ الأسماء ضمة على أواخرها إذا وقعت أركاناً أساسية في الإسناد، أي في التركيب الرئيسي للفكرة، كأن يكون الاسم مبتدأً أو خبراً أو فاعلاً أو ما إلى ذلك، ويفتح آخر الاسم إذا كان فضلة مباشرة في الجملة، أي جاء لتكميل المعنى وارتبط بالإسناد القائم في الأركان

(١) Sabatino Moscati; Op. Cit; P. 26.

الأساسية للجملة بدون واسطة، كأن يكون مفعولاً به للفعل أو تمييزاً أو حالاً أو ظرفاً أو مصدراً مؤكداً أو مفعولاً لأجله أو نحو ذلك. ويحرِّك آخره بالكسرة إذا كان فضلة غير مباشرة، أي ترتبط بغيرها بحرف جر أو بما في معنى حرف الجر كأسلوب الإضافة. هذا الإعراب موجود بشكله المعروف في البابلية الآشورية أيضاً، كما بقيت منه بقايا طفيفة في بعض التعابير العبرية، ثم تخلصت منه اللغات السامية مع مر الزمن، بما في ذلك اللهجات العربية الحديثة. وإذا كان وجوده ثابتاً بالنصوص في البابلية الآشورية فإنه مع ذلك، وبالمقارنة بالعربية يبدو مخففاً، متطوراً، مما يؤيد مذهب القائلين بأن العربية الفصحى، وإن كانت أحدث اللغات السامية من حيث النصوص المكتوبة، هي أقربها إلى السامية الأم؛ لأنها عاشت في أمية العرب، محفوظة بعيدة عن التغيير والتبديل.

وبعد، فلننظر الآن كيف تطوَّر الساميون الذين نعرفهم تاريخياً، وكيف صارت اللغة على ألسنتهم مع توالي الزمن واختلاف الحضارة.

□ □ □

(١)
الأكاديّون

وهم الساميون الأُوَل الذين استوطنوا العراق، والذين استمر وجودهم اللغوي والحضاري والسياسي بعد ذلك، في الإمبراطوريتين البابلية والآشورية، ثم في دولة الكلدانيين أخيراً. ويعتبر الأكاديون أول شعبة من الساميين تظهر على مسرح التاريخ، وتخلف لنا آثاراً مكتوبةً لها من الغزارة والدقة والتنوع ما يسمح باستخلاص صورة مفصلة، ومفصلة جداً أحياناً، لما كانت عليه هذه الشعبة السامية من حضارةٍ.

وكان تاريخ هؤلاء الساميين المستقرين في العراق إلى عهد قريب ــ إلى أواسط القرن الماضي ــ يعرف من خلال ما جاء في كتابات العهد القديم (توراة موسى، أسفار الأنبياء، الكتب المأثورة)، كما يعرف من خلال روايات وعنعنات جاءت في كتب أخرى مثل التلمود والمدراش، وروايات المؤرخين الرومان واليونان، وبعض الأساطير ونحو ذلك؛ يضاف إلى هذه المعلومات ما كتبه بعض الرحالة من وصفٍ لما شاهدوه من آثار في تلك البلاد.

وحوالي سنة ١٨٥٠ فقط بدأت الحفائر الأثرية العلمية تكشف في بطن الأرض العراقية عن حضارةٍ كان العالم يظن أنها قد خسفت إلى الأبد. وكان الأثري البريطاني ليارد، المشرف على حفائر نينوى، والفرنسي بوتا، مستكشف خورسا باد (إلى الشرق من نينوى بنحو ٦٠ كيلو متراً)، من أوائل الأثريين الذين أماطوا اللثام عن آثار ضخمة غنية بالمعلومات الجديدة عن هذه الحضارات. وقد جاء بعد حركة الرواد هذه وقت تعاونت فيه الجمعيات

العلمية وبعض الدول الأجنبيـة، على الاستمـرار في البحث والتنقيب، بوسـائل أقوى من تلك التي كانت متاحة لـلأثريـين، الـذين كانـوا ينهضون بهـذا العبء وحدهم في البداية.

وكانت الآثار المكتوبة في العراق من أهم الوثائق التي احتفظ بها التـاريـخ القديم. لكن الصعوبـة، في النصف الثاني من القـرن التاسـع عشر، كـانت في التوصل إلى فك طلاسم هذه الكتابة التي يسمونها الكتابة المسمارية، لاعتمـادها عـلى وحـدات كـل منهـا تشبــه المسمـار. وكــان من أغنى مـا كشف عنــه من هذه الكتابات مكتبة الإمبراطور آشـور بانيبـال في نينوى، التي وجـدها «ليـارد» وخليفته «رسام». واستمرت الحفائر منذ ذلك الوقت نشيطة، وامتدت من شمال العراق إلى جنوبه، حيث عثر على بقايـا المدن الشـومريـة والأكاديـة. بل عـثر في سهل الفرات الأوسط عـلى مدينـة كاملة كـانت عاصمـةً لأسرة بـابلية حـاكمة. هذه المدينة هي «ماري»؛ التي كشف عنهـا أستاذنـا أندريـه بارو مـدير مصلحـة الآثار الفرنسية، وعاونه في ذلك العلامة البلجيكي دوسـان. وقد بـدأت حفائـر ماري هذه في عام ١٩١٣، كما قامت جامعة شيكاغـو بالتنقيـب في شمـال شرق العـراق حول مدينة كركوك، حيث عثـرت على آثـار قيمـة تـرجـع إلى مـا قبـل التـاريـخ، وإلى المـرحلة الممهـدة للتـاريـخ، واستؤنفت الحفـائـر شمـال شـرقي العـراق، قرب المـوصل؛ في المنـطقة المعـروفة بـاسم «نمـرود» عـلى يـد أثـريـين بريطانيـين يرأسهم الأستاذ مالوان.

والكتابة المسمارية تعتبر مرحلة متطورة بالنسبة للكتابة التصويرية؛ فقدماء الشومريـين بدأوا بنوع من الكتـابة التصويرية، أسـاسه نفس الفكـرة التي نبعت منها الكتابة الهيروغليفية المصريـة، فكل كلمـة يعبر عنهـا بصورة، بينـما الكتابـة المسمارية تحلل الصوت الإنساني، بصـرف النظر عن دلالـة الألفاظ نفسهـا، إلى مقاطـع؛ وتجعل لكل مقطـع عـلامة، بحيث تعتمـد الكتابـة فيها عـلى عدد من المقاطـع بعلاماتها يصـل إلى بضعة آلاف (ثمـانية آلاف تقـريباً)، يكفي منهـا في الـواقـع من ألف إلى ألفين حتى يستـطيـع الإنسان أن يكـون كـاتباً، في شؤون

الحياة التي لا تحتاج إلى مصطلحات خاصة: فالطب والكيمياء والهندسة والسحر وغيرها من الفنون الخاصة، كانت لها رموز لا يكثر ورودها في اللغة العامة. كذلك كانت هناك اختصارات، وهي رموز لا يدل الواحد منها على مقطع وإنما يدل على كلمة كاملة، فكلمة إله في الأكادية هي «إيلو»، وهي صوتياً مكونة من مقطعين (أي) + (لو)، وكان المنتظر أن يعبر عنها بالكتابة بعلامتين مقطعيتين، ولكن استعيض عنها بعلامة رمزية واحدة دالة، هي مجموعة من المسامير التي تتقاطع في نقطة واحدة على شكل نجمة. وكذلك جرى الأمر في كلمة «مَلِك» التي تنطق في اللغة الأكادية «شرُّو» إذ تدل عليها علامة واحدة رمزية بدلاً من كتابتها من مقطعين.

ظل العراقي القديم يكتب هذه الكتابة المسمارية على ألواح من الطين، ومنذ أواخر الألف الثالث قبل الميلاد أُنشئت المدارس لتعليم الكتابة، وكانت غرفة الدراسة تحتوي على معجنة للطين، ومقاعد للتلاميذ. وكان كل تلميذ يأخذ قطعة من الطين فيصنع منها لوحة، مستطيلة أو مربعة، وينقش عليها بقلم مدبب من الخشب وهي ما تزال طرية، ثم إذا أراد الاحتفاظ بها جففها في الشمس. وفي غير المدارس كانت وثائق الْمِلكية، وصكوك الديون، ووصايا المواريث، وغيرها من الوثائق المهمة، تكتب على الطين الطري، ثم تجفف وتحرق لتصير فخاراً، وأحياناً يعمل لها ظرف هو عبارة عن صندوق كروي من الفخار يقفل على الوثيقة وينقش عليه ملخص لها، ثم يحرق الجميع ليتحول الظرف أيضاً إلى فخار.

وقد عثر الأثريون على مدارس لتعليم الكتابة بكامل معداتها، ذكرها الأثري الأمريكي «إدوارد كييرا» في كتابه الذي عنوانه (الألواح البابلية، وما كان يكتب على الطين)[١]. وعثروا في بعض هذه المدارس على كتابات للتلاميذ مع تصحيحات الأستاذ بين السطور.

---

(١) Edward Chiéra: Les Tablettes Babyloniennes. Ce Qu'on écrivait sur L'argile — Paris. Payot 1939.

وعند كتابة الوثائق كان يتولى الكتابة كاتب عمومي، ثم تضع الأطراف المعنية أختامها على الطين الطري. وهذه الأختام في البداية لم تكن بالشكل الذي نعرفه الآن، بل كانت أسطوانية على شكل (البَكَرة)، وكان يحفر عليها رسم يتضمن إلّه الشخص، وبعض المعالم المميزة جداً لبلده، وقد يكتب عليها اسمه. وكل هذا محفور بطريقة عكسية على الختم الأسطواني. فإذا برمه على الطين الطري طبع ما عليه بارزاً في مستطيل. أما الذين لم تكن عندهم أختام، فكانت تؤخذ من أصابعهم طبعة تذكرنا بالبصمات في الوقت الحاضر، وكانت عبارة عن طرف الإبهام بالظفر المحيط به مطبوعاً في الطين.

وكان حَلُّ طلاسم هذه الكتابة شاقاً لم يمكن التوصل إليه إلّا بفضل نقش مكتوب بثلاث لغات، إحداهما الفارسية المتوسطة، بينما الاثنتان الأخريان هما الفارسية القديمة والبابلية. ومن الجدير أن نشير إلى أن القنصل البريطاني في بغداد «رولنسون» كان قد أولع بجمع الكتابات العراقية القديمة، لا سيما الآشورية منها، لدرجة أنه أسهم إسهاماً كبيراً في البحوث والحفائر التي أجريت في القرن الماضي في العراق وإيران، وهو نفسه الذي اكتشف هذا النقش الثلاثي في منطقة «بهشتون» في بلاد فارس. وكان العالم الألماني جروتفند قد قام بمحاولات قيمة في سبيل قراءة الكتابة المسمارية. كما قام علماء آخرون من بلاد شتى بمحاولات مماثلة.

وفي سنة ١٨٥٧ أرادت الجمعية الآسيوية بلندن أن تتأكد من مدى جدّية هؤلاء العلماء والنتائج التي وصلوا إليها، فوزعوا على أربعة منهم صوراً لنقش واحد ليقوموا بترجمته، وجاءت الترجمات الأربع متفقة في جوهرها. ومنذ ذلك اليوم أصبحت الدراسة البابلية الآشورية علماً يقيناً. وقد تبين عند قراءة النقوش المختلفة التي كشف عنها، أن المسمارية ليست لغة، ولكنها كتابة استعملتها لغات شتى، أشهرها البابلية والآشورية ثم الفارسية القديمة.

وكثرت الدراسات الخاصة باللغة الأكادية من جداول بالمقاطع ورموزها،

أشهـرها مـا ألفه شـارل فـوسي، ثم تيـرو دانجـان، ثم الأستاذة مـاجي روتن، وأستاذنا رينيه لابات. أما كتب النحو وقواعد اللغة فقد ظهر منها بالفرنسية كتب لـلأب شِيل، والأستـاذ البلجيكي ريكمانـز، والألمـاني أونجنـاد، وأخيـراً العـالم الألماني فون تسودن.

كذلك كثرت معاجم هذه اللغة فـظهر بـالألمانيـة معجم ديليتش، ومعجم بتسـولد، والمعجم الكبيـر البابلي الشـومري الذي نشره الأب دايمل في الفاتيكـان مشروحاً بالألمانية أيضاً. وبالإنجليزية ظهر المعجم الآشوري المختصر الذي ألَّفه مـاس ــ أرنولت، وهـو بالـرغم من عنوانـه من أكثر المعـاجم الآشوريـة إحاطـة بمفردات هذه اللغة.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل ظهرت دراسات قيمة جداً في الأدب البابلي الآشـوري نفسه، والحضـارة التي ينم عنها هـذا الأدب؛ كما كثـرت الـدراسـات الفرعية في نواحي الفكر البابلي الآشـوري من طب وفلك وعرافـة وسحر وتعليم ودين وغيـرها من الفنـون والعلوم. وكل هـذه الدراسـات تتكامـل مـع كشـوف أخرى في لغات سـامية أخـرى، على نحـو يتبـين معه إلى أي حـد كـان العلماء قبـل هـذه الكشـوف ، حتى أشـدهم حـذقـاً وأنفـذهم بصيـرة، يتـورطـون في آراء خـاطئة مضللة تـدعو الآن إلى السخـرية، ونسـوق على سبيـل المثال بعض القضايا التي وردت تحت قلم المستشرق الفرنسي الكبيـر أرنست رينـان في كتابـه «تاريـخ عام ودراسة مقارنة في اللغات السامية»(١). فهو مثلاً يدّعي أن الساميين مفطورون على التعصب الدينـي، وأن شعرهم كله ذاتي ولا تنويـع فيه، وأنهم لم ينشأ فيهم لا علم ولا فلسفة، وأنهم منحـطون عسكريـاً لعجزهم عن التـنـظيم، وأنهم مفـطورون على الأنانية والاندفاع الأحمق، وأنهم لم تنشـأ عندهم مـلاحم في

(١) Ernest Renan, Histoir Générale et Système Comparé des Langues Sémitiques, Paris 1855, pp. 1-18.

يوم من الأيام. كل هذا تبين بطلانه عندما كشفت حضارة بابل وآشور، بما فيها من ملاحم مثل ملحمة خلق العالم، وملحمة الطوفان، وجلجاميش، وهبوط عشتروت إلهة الحب والجمال إلى الدرك الأسفل وغيرها، وفيها من النصوص التاريخية ما يبين مبلغ البراعة العسكرية التي وصلت إلى القمة في عهد الآشوريين، بحيث أصبح لا يدانيها في التاريخ القديم إلّا عسكرية الرومان بعد ذلك بزمن طويل.

كذلك بَيَّنت لنا هذه النصوص المنقوشة بالخط المسماري على ألواح الفخار براعة هؤلاء الساميين في التنظيم، بقانون حمورابي، ومجموعة الشرائع الآشورية وغيرها، وتبين أنهم كانوا علماء برعوا في الطب والجراحة والهندسة والنقل البحري والفلك والحساب، كما ارتقى فيهم الفن من موسيقى وغناء وزخرفة ونحت وغيرها. لكن ذلك كان خافياً على رينان وأمثاله؛ وكانت تشدهم نحو التجني على الساميين اعتبارات فاسدة، فالقرنان الثامن عشر والتاسع عشر بالذات هما اللذان وصل فيهما الاستعمار الأوروبي إلى ذروة التكالب على تمزيق أوصال العالم المعروف واقتسامه، وكان الشرق العربي برمته هدفاً لهذا الاستعمار قبل غيره، لقربه الشديد من أوروبا أولاً، ولتعدد إمكانياته الاقتصادية ثانياً، ولسبب آخر قديم هو ما كان بين أوروبا التي كانت مسيحية في العصور الوسطى يحكمها البابوات وبين هذا الشرق الإسلامي من حروب صليبية في مصر والشام ، وحروب دينية عنصرية في الأندلس، وفتوح وغزوات حربية على يد الأتراك، انتهت باستيلائهم على القسطنطينية، ثم احتلالهم لليونان وألبانيا ويوجوسلافيا وأجزاء من رومانيا وبلغاريا، الأمر الذي أوجد حقداً دفيناً، وثأراً قديماً ظل الأوروبيون يتحينون له الفرصة.

فإذا أضفنا إلى هذا أن الجنسين الوحيدين اللذين بقيا من الأمم السامية هما العرب واليهود، وجدنا من الزاوية الثانية أن الرأسمالية الاستعمارية الأوروبية الناشئة بعد الثورة الفرنسية ارتطمت باليهود، كمنافسين خطيرين مالياً

وتجارياً وصناعياً، وكمجموعة بشرية كريهة إلى نفوسهم، لأنها تختلف عنهم ديناً، ولأنها حرصت على عصبية عنصرية منعتها من الانـدماج في المجتمـع الأوروبـي إلّا في أحوال نادرة. ليس عجيباً إذن أن تنطلق ألسنة المستشرقين وأقلامهم نيـلاً من «السـاميين» وتحقيـراً لهم، إلى أن تثبت الوثـائق والآثار ضـلالهم وتضليلهم، وهي قـد أثبتت ذلـك بقـوة، بعـد الكشف عن النصــوص البابلية الآشــوريـة واستطاعة قراءتها وترجمتها.

وهجـرة الساميـين الأولى من مـوطنهم الأصلي، الـذي كان كـما قلنا شبـه الجزيرة العربـية، نحو سهل الدجلة والفرات، حدثت في موجات متتابعـة خلال الألف الرابـع قبل الميلاد، فكانوا يدخلون العراق مزاحـين لسكانـه الأصليـين، الشومريـين، ويؤسسـون لهم مدنـاً إلى جانب المـدن الشومـرية، لكـل منها أمـير يحكمها ومعبد تقام فيه طقوسها، وإلّـه يحميها. وكان الساميون الأول أقل حضارة من الشومريـين فأخذوا عنهم الكتابة والعمارة والدين والنـظم الإدارية، وبـدأت المدن الشومرية ترتطم بمنافسة خطيرة من مـدنِ هؤلاء الساميـين ــ الأكـاديـين ــ ثم أبدى الأكاديون تفوقاً عسكرياً ساحقاً انتهى بهم إلى السيطرة على كل البلاد. كان من مدن الشومريـين المقدسة القـديمة: أور، وأروك، ولاجـاش، أو إيسين، وإريدو، ولارسا، وأدب. وكان عند الأكاديـين مدينـة أكاد أو أجـاديه، وكيش، وسيـبار، وماري. وكان يحكم المدينـة الشومـرية أمـير يسمى في لغتهم «باتيسي» ومعناها الخادم، أي عبد إلّـه هذه المـدينة، وكـان أمير المـدينة السـامية الأكـادية يسمى (إشـاقـو) أو (إشـاجـو) ومعنــاهـا النــائب، أي الـذي ينــوب عن ربّ هذه المدينة. وفي بعض الأحيان كان نفوذ أحـد هؤلاء الأمراء يقـوم ويطغى عـلى الآخـريــن، فكان يحصـل على لقب (ملك)، وهـو في الشومـرية (لـوــ جل)، ومعنـاه حرفيـاً: (الرجـل العظيم)، أمـا عند السـاميـين فكـان يسمى «شـرو»، وهو من «سراة» الناس، أي الرئيس، كـما كان يلقب أحيـاناً بلقب «بيـل»، التي تقابل في العـربية كلمـة «بعل» بـالعين، ومعنـاه الحرفي «المـالك»، والمتصـرف، وصاحب الأمر.

بعد تلك الفترة الأولى من هجرة الساميين، واستقرارهم إلى جانب الشومريين، ثم بسط سيطرتهم على البلاد كلها، يظهر أول وجه سامي تاريخي عظيم، هو سرجون الأول أو الأكبر، الذي حكم بين ٢٥٨٤ ـ ٢٥٣٠ قبل الميلاد. وأسمه في اللغة الأكادية «شرّوْ ـ كينُو»، ومعناه حرفياً الملك المكين، أو الرئيس ؛ وواضح أن هذا لم يكن اسمه، وإنما لقبه بعد توليه الحكم المطلق في العراق. وتقول الوثائق المسمارية إن هذا الملك هو الذي بنى مدينة أكاد بالقرب من كيش في جنوب العراق، واتخذها عاصمة لملكه، ولذلك سميت أسرته الحاكمة بالاسرة الأكادية. كان سرجون الأكبر قائداً عظيماً، وكان أول من فكَّر في نقل العراق من نظام الإمارات الصغيرة المستقلة إلى وحدة إقليمية ووطنية ضخمة؛ ولذلك اتخذت سيرته في الأجيال التي جاءت من بعده صورة أسطورية، وكثرت من حوله الأشعار والأغنيات التي يبدو فيها، وقد تحول إلى ما يشبه شخصية أبي زيد الهلالي أو عنترة بن شداد أو الظاهر بيبرس في الأساطير الشائعة عندنا. وقد وردت أصداء من ذلك في بعض النقوش التي عثر عليها في بلاد آشور بشمال العراق، وفي بقايا الحيثيين بتركيا وسوريا، وفي نقوش تل العمارنة بمصر[١].

وأشهر خلفاء سرجون من ملوك هذه الأسرة هو حفيده (نارام سين)، ومعنى اسمه في لغته (محبوب سين)، وسين هو إله القمر، الذي تحمل اسمه شبه جزيرة سيناء. وقد حكم بين ٢٥٠٧ ـ ٢٤٥٢ قبل الميلاد تقريباً، وأتم رسالة جدّه سرجون الأكبر، فأكد بمقدرته العسكرية والسياسية الوحدة الإقليمية للعراق؛ إذ سيطر على الإقليم كله من الخليج العربي جنوباً إلى جبال أرمينيا شمالاً. ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أنه في عهد هذا الملك نسمع بأمم سامية أخرى لأول مرة. فبالقرب من مدينة ديار بكر بالمنطقة الشمالية من نهر الفرات، عثر المنقبون على نحتٍ بارز عليه كتابات تخلد ذكرى حربٍ قادها

(١) Sabatino Moscati, Op. Cit., p. 52.

هذا الملك ضد الآراميين. كذلك عثر على تمثال له مكتوب على قاعدته نقش بانتصار له على أمير عربي ظن الباحثون أنه أمير «معين» في اليمن وهو عندنا أمير «معان» في شمال الحجاز، وسنتحدث عن ذلك بالتفصيل عند الكلام عن العرب.

وبموت هذا الملك عادت الفوضى الشاملة تكتسح العراق، وتفككت الوحدة الشومرية الأكادية، وقامت في أور، وأوروك، ولاجاش، ولارسا، وغيرها من مدن العراق، أسر حاكمة محلية مستقل بعضها عن بعض. كذلك كثرت حركات التمرد والثورة في أقاليم البلاد، وهي حركات كانت تندلع في أوقات متباعدة على عهد سرجون وخلفائه. كل هذا زاد من ضعف خلفاء نارام سين، فظهرت المؤامرات في داخل قصورهم، وكثرت حوادث الاغتيال والانقلاب، حتى إن المؤرخين الآشوريين كانوا إذا تحدث أحدهم عن هذه الفترة يتساءل بسخرية: «من الذي كان ملكاً حينئذ؟ ومن الذي لم يكن ملكاً؟».

وعلى الحدود الشمالية للبلاد تحركت قبائل جبلية، يسمى بعضهم «لولوبي»، وبعضهم «جوتي»؛ وأخذت تهاجم العراق. وقد نجح الجوتي في اقتحام الحدود والاستقرار في الشمال. ولما كانت حالتهم الحضارية أضعف من الشومريين والأكاديين فإنهم، حسب سنة تتكرر في تاريخ البشر، قد خضعوا لحضارة الأمة المغلوبة على أمرها، وأخذوها حضارة لهم. هؤلاء الجوتي الغالبون يظن أنهم الأكراد، وسنرى أنهم بعد استقرار دام مائة وثلاثين سنة سيُغلبون على أمرهم أيضاً.

فقد نبغ من بين الحكام الإقليميين الملك «أوتو هيجال» من حكام الأسرة الخامسة في مدينة أوروك، وقام قبيل سنة ٢٣٠٠ قبل الميلاد بحرب تحريرية ضد الجوتي طردهم فيها من البلاد. ولكن تعود السياسة، بعد استتباب الأمن، فتخرج من يد الأسرة الخامسة في أوروك إلى الأسرة الثالثة في مدينة أور. وبهذا نرى أن الألف الثالث قبل الميلاد كان يتميز بتناوب السيادة والحكم بين

الأسرة الشومرية والسامية الأكادية، وبالتفاعل بين العنصرين البشريين على الصعيد الحضاري.

ومع أواخر الألف الثالث وقعت أحداث أنهت حكم أسرة أور الثالثة. فقد تحرك العيلاميون سكان إيران القدماء، وراحوا يهاجمون سهول العراق. وفي نفس الوقت تحرك ساميون كانوا مستقرين غرباً في سوريا، وكانوا يسمون «آمورو»، وأخذوا يتسربون إلى شمال العراق ثم يتابعون مجرى الفرات إلى المنطقة الوسطى منه، حيث أقاموا لهم حكومة في مدينة بابل (اسمها باللغة البابلية «باب ـ إيلو»، ومعناه باب الله)، ولم تكن إذ ذاك سوى قرية صغيرة لا أهمية لها من الناحية السياسية.

بدأ هؤلاء الساميون الغربيون يردون غارات العيلاميين مؤكدين بذلك حمايتهم لسكان البلاد الأصليين، وأقاموا لهم أسرة حاكمة في بابل هي الأسرة البابلية الأولى. وقد استغرق صراعها مع العيلاميين نحو قرن من الزمان، استنفد حكم الملوك الخمسة الأول من هذه الأسرة.

وفي ظل الهيبة العسكرية والاستقرار السياسي حكم سادس ملوك هذه الأسرة، وأشهر ملوك العراق القديم على الإطلاق، حمورابي، في أوائل الألف الثاني قبل الميلاد. وكان هذا الملك فاتحاً عسكرياً ممتازاً، كما كان مشرعاً ومصلحاً اجتماعياً من الطراز الأول؛ فواصل جهود أسلافه في إخضاع العيلاميين، حتى قَوَّض ملكهم نهائياً حوالي سنة ١٩٧٠ قبل الميلاد، كما أخضع لحكمه أقاليم ماري، بالقرب من بابل، والسوبارتو المتاخم لجبال كردستان، والجوتي. وقد دامت حروب هذا الملك خمسة وثلاثين عاماً، أرسى في أثنائها أسس إمبراطوريته العظيمة. ومن الجدير بالذكر أنه اصطدم بساميين آخرين هم الآشوريون بقيادة ملكهم «ريم ـ سين»، الذي تحالف مع العيلاميين فكان مصيره الهزيمة مثل حلفائه، ولكن بدأ الآشوريون على كل حال منذ هذه الحقبة يظهرون على مسرح التاريخ لأول مرة. وسترى أن هزيمتهم هذه كانت حدثاً وقتياً.

أمّا الإصلاحات السلمية التي قام بها هذا الملك، حمورابي، فقد كانت من التألق والعظمة على مستوى انتصاراته العسكرية. وبدأ ذلك كله بإعادة تخطيط عاصمته، مدينة بابل، على نحو لم يسبق له مثيل في هذه البلاد، حتى انطفأت أمام بهائها وفخامتها كل العواصم الأخرى في غرب آسيا، وأصبحت في كل منطقة الشرق الأوسط حديث الأمم والشعوب وموضع إعجابهم، بل تَسَرَّبت عظمتها إلى الأساطير، فأصبحت المدينة الساحرة، والمدينة الخرافية، والمدينة الهائلة، ومنطلق الخير والشر، وبؤرة العمار والدمار، وموطن العز والذل جميعاً.

وظهرت مواهب حمورابي في التطويسر والتخطيط والتنظيم: ففي إمبراطوريته المترامية الأطراف عاشت شعوب وأقوام جنباً إلى جنب تختلف في اللغات والتقاليد والعادات والمستوى الحضاري: الشومريون، والساميون، والعيلاميون، والجوتي، واللولوبي، وغيرهم. وكان عليه أن يؤمِّن لهؤلاء جميعاً العدل والمساواة والنظام. وفي ذلك تبدو لنا عبقريته من نوعين من الوثائق: أولهما رسائله الدبلوماسية والإدارية، وثانيهما قانونه وشريعته. وعن رسائله يقول المؤرخ برستد[1]: «إننا نشهد للمرة الأولى في التاريخ صورة حية للأعمال اليومية والمسؤوليات الدائمة لواحد من ملوك الشرق القديم الكبار؛ فهي تقدمه لنا جالساً في ديوانه بمدينة بابل، يملي على واحد من كتابه، في جمل قصيرة واضحة، رسائل مختصرة تصل بها أوامره إلى الحكومات المحلية، في المدن الشومرية العريقة التي أصبح حمورابي فيها السيد المطلق. في هذه المراسلات نرى أكثر من مرة وضوح الفكر القانوني عند هذا الملك الذي منه نبع القانون الكامل، أول قانون كامل ومنطقي عرفه البشر».

فحمورابي، «الملك الذي فرض طاعته على الجهات الأربع» كما يقول هو عن نفسه، قد أحسّ بضرورة قيام قانون واحد ينظم شعوب مملكته

---

(١) James Henry Breasted, Le Conquéte de la Civilisation; Payot, Paris 1945, p. 136-137.

العظيمة، ويطبق بنفس الطرَيقة في جميع أرجائها. وقد بذل جهده في جمع الألواح التي نقشت فيها القوانين الشومرية، محاولاً تكملتها بقوانين وشرائع عرفية لم تكن قد قُيِّدت بالكتابة من قبل. وعندما اجتمع له هذا القدر من المادة القضائية والتشريعية حاول أن يربط بينها، وأن يمحو ما قد يكون فيها من تناقض، وأن يملأ الفراغ الذي قد يظل موجوداً في ثناياها، ثم يطور ذلك كله ويعدله بحسب حاجة عصره، والظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي وضعها عن وعي وحصافة موضع الاعتبار، وربما كان ذلك أيضاً للمرة الأولى في التاريخ.

يبدأ قانون حمورابي بمقدمةٍ دينيةٍ يذكر فيها أنه تلقى هذه الشريعة من السماء، من إله الشمس «شَمَش» بلغته. ثم أخذ يرتب آلهة الإمبراطورية في هذه المقدمة بحسب درجتهم في الأهميَّة؛ وقد وجدت من هذه المقدمة مسودة ترجع إلى عهد حمورابي وتتضمن ترتيباً آخر للآلهة، مما يثبت حسب ما وصل إليه بحث أستاذنا العالم الفرنسي «نوجيرول»[1] أن هذا الملك قام أيضاً بحركة إصلاح ديني واسع النطاق. بعد هذه المقدمة تتوالى نصوص هذا القانون مرتبة في مواد عددها ٢٨٢ مادة، مقسَّمة إلى مواد خاصة بالإجراءات القضائية ونظام التقاضي والمحاكم، ثم تأتي مواد القانون المدني العام، والقانون المدني الخاص، ثم قانون العقوبات.

وقد حرص القانون على أن يكون واضحاً في كل شيء، فقسم الشعب إلى ثلاث طبقات:

(أ) السادة أو الطبقة الاجتماعية الأولى «أوِيلو» باللغة البابلية، وهم الذين يعيشون أحراراً، ويمتلكون من الثروة ما يكفيهم دون أن يحتاجوا إلى كسب قوتهم بعرق جبينهم.

---

(١) Nugayrol, revue d'Assyriologie, Paris 1955.

(ب) طبقة العمَّال، وهم أحرار غير مستعبدين، ولكنهم يعملون اضطراراً لكسب قوتهم. ويسمون بالبابلية «مُشكينو» أي المساكين.

(جـ) طبقة العبيد «وَرْدو»، وهم الذين لا يملكون شيئاً، حتى حريتهم.

وقد راعت القوانين هذا التقسيم حتى عندما نصت على التسعير الإجباري للعمليات الجراحية: فالطبيب يتقاضى أجراً عالياً من الأويلو، وأجراً مخفضاً من المشكينو، وأجراً وسطاً بين الإثنين من الوردو، يؤديه عنه سيده، فإذا امتنع السيد فالعبد حر وعليه أجرة علاج من فئة المشكينو، يؤديها للطبيب عندما يجد عملاً. وقد أحال القانون في القضايا التي لا يوجد لها نص واضح على القوانين العرفية، فإن تعسر فيها إقرار العدل عادت القضية إلى الملك أو من ينيبه عنه، ويكون حكمه فيها سابقة قضائية لها قوة القانون.

هذا الإصلاح السياسي والديني والإداري والقضائي اقترن بحركة لتوحيد اللغة أيضاً، فقد كتب هذا القانون بلهجة أكادية فصيحة، هي اللغة البابلية التي أصبحت لغةً رسميةً حضاريةً لكل الإمبراطورية، ووضع عدد من نسخ هذا القانون، وقد حفرت نصوصه على حجر صلب يشبه حجارة النُصُب، في الميادين العامة للبلاد المهمة في مملكة حمورابي، حتى تكون مواد القانون في متناول الناس جميعاً يحتكمون إليها عند الخصومة.

ومات العاهل العظيم حمورابي، وأعقبه في الأسرة البابلية ملوك ضعاف، فتضعضعت دولته، وبدأ يطمع في الحكم عنصران آخران، أحدهما كوّن الأسرة البابلية الثانية، وكان ملوكها يسمون أهل البحر، لأنهم من الجنوب، من منطقة الخليج، وأول ملوكهم «إليما ـ إيلوم» جلس على العرش أثناء حكم «شَمْشُو ـ إيلونا» ابن حمورابي. ولكن حكمهم بقي محصوراً في الجنوب، ولم تظهر فيهم وجوهٌ تاريخية تستحق الذكر.

كذلك وجدت الأسرة البابلية الأولى في وقت اضمحلالها، هي والأسرة

البابلية الثانية مسيرتها الكليلة نحو الاستيلاء على السلطان الكامل، منافساً خطيراً في قوم جاءوا من الشمال الشرقي للعراق. وكان هؤلاء القوم على الأرجح خليطاً مركباً من سلالات سامية وغيرها، فنزحوا من موطنهم الأصلي المسمى قديماً إقليم «كاشن» في شمال بلاد العيلاميين. بل ربما كان أمراؤهم وقادتهم أكثر عراقة في الآرية (التي منها الهندوأوروبيون)، هؤلاء القوم يسمون «كاشو»، نسبة إلى الإقليم الذي انطلقوا منه، ويدعوهم المؤرخون بالكَشّيين. وكان إقليمهم هذا فقيراً أجرد، فظلوا يترقبون الفرص للاستيلاء على خيرات بابل. وقد هاجموا البابليين بعد موت حمورابي مباشرةً، أثناء حكم ابنه وخليفته الملك شمشو ـ إيلونا، ولكنه نجح في دحرهم وَرَدِّهم عن حدود الإمبراطورية. ومنذ ذلك الوقت اتبعوا مخططاً آخر، هو الهجرة المتقطعة إلى العراق ليعملوا فيها جنوداً مرتزقة أو صناعاً أو عمالاً، حتى كثر عددهم وسيطروا على الشؤون الحيوية الداخلية للبلاد.

وفي أثناء ذلك تهددت الأسرة البابلية قوتان أخريان، إحداهما من الشمال هي القوة الآشورية التي سلخت هذا الإقليم من بابل، وجعلت عاصمته نينوى، والقوة الثانية كانت الأسرة البابلية الثانية، من إقليم البحر، وقد أَشَرْنا إليها، وهي قوةٌ جمعت فلول الشومريين الأقدمين المغلوبين على أمرهم مع بقايا الأكاديين الذين استقروا في الجنوب، ومن هذه العناصر تكوَّنت تلك الحكومة الانفصالية التي تهدد بابل من الطرف الآخر للعراق.

في نفس تلك الفترة يكثر أيضاً أعداء بابل من خارج العراق، لا سيما من الحيثيين الذين أقاموا لهم مملكة في آسيا الصغرى، كانت عاصمتها بالقرب من المنطقة الأثرية التي تسمى الآن «بوغاز كوي» بشرق الأناضول.

قام على رأس الحيثيين ملك طموح هو «مرسل الأول» فقاد جيشه وهجم به على الإمبراطورية البابلية فخرب منها أقاليم كثيرة، وعاث فيها سلباً ونهباً. ويقول المؤرخون: إن نجاح هذا الغزو قد شجَّع أمماً أخرى فقيرة من الذين يسمون «الآسيانيين» لصعوبة إلحاقهم بسلالاتٍ أو أجناسٍ مشهورةٍ، على

مهاجمة البلاد العظيمة الخصبة المجاورة لهم، فانطلق «الهوريون» نحو سوريا من أعالي الفرات، ثم بعد ذلك أقدم الهكسوس على غزو مصر نفسها.

على أية حال فإن غارة الحيثيين هذه كانت الضربة القاضية على الأسرة البابلية الأولى، أسرة حمورابي، على الرغم من أن الحيثيين أنفسهم انسحبوا من بابل سريعاً، ولكن عملهم هذا جَرَّأ الكشيين المتربصين منذ نحو قرنين من الزمان على الوصول إلى الحكم. وقد طال حكمهم في العراق نحواً من ستمائة سنة.

وامتاز حكمهم بصلابة عسكرية استطاعوا أن يؤمنوا بها حدود دولتهم. كذلك عاشت اللغة البابلية تحت حكمهم مصونة لا تتطور إلاَّ بالقدر الطبيعي المعقول. وقد اهتم هؤلاء الكشيون بتأمين الملكية الزراعية، فدققوا في مساحة الحقول، وجعلوا بينها حدوداً واضحةً محترمةً، عبارة عن حجارة مستطيلة مغروسة عند نقطة الحدود بين الحقل والآخر، يقابلها عند المالك حجر يكون عادةً من الأحجار الشديدة الصلابة شكله مستطيل كالنصب أو بيضاوي أحياناً، تحفر في أعلاه صور دينية تمثل الآلهة الحارسة لحقوق الناس، أو بعض رموزها من معابد أو كواكب، ثم بعض الصور التي تعبر عن شخصية المدينة التي تتبعها هذه الأرض من الناحية القضائية. تلي ذلك الصيغة مكتوبة حفراً بالخط المسماري يبيِّن فيها اسم المالك، وجيرانه، ومساحة حقله طولاً وعرضاً، وموقعه، ومصدر ملكيته له، وأسماء الشهود على ذلك، ثم مجموعة من الدعوات واللعنات التي تنصب على مَنْ تُسَوِّل له نفسه نَقْلَ الحدود من مكانها، أو الغش فيها، أو التغيير مِنْ مساحة الأرض.

وحجارة الحدود هذه تسمى في المصطلح القضائي عند الكشيين «خُودُورُو»، ومعناها الحد. ولها شهرةٌ خاصةٌ في فك طلاسم الخط المسماري، إذ كان واحد منها قد وقع في يد عالم النبات الفرنسي «ميشو»، الذي قام برحلة علمية إلى إيران بصحبة القنصل الفرنسي «روسو» في أواخر القرن الثامن عشر. فأحضره إلى فرنسا سنة ١٧٨٦م وباعه للمكتبة الوطنية بباريس إبَّان الثورة

الفرنسية، بمقتضى خطابه المؤرخ في باريس في الرابع عشر من شهر مندمير (من شهور الثورة الفرنسية) سنة ٩ من هذه الثورة (الموافق ٦ اكتوبر سنة ١٨٠٠م)، ومنذ ذلك الوقت تُعرف هذه الوثيقة في تاريخ النصوص البابلية الآشورية باسم «صخرة ميشو». ولم يقف تاريخ هذه الصخرة عند ذلك الحد، فقد كانت مثار محاولات فاشلة لقراءتها، أشهرها محاولة الأثري الألماني ليشتنشتاين، التي جال فيها بخياله الخصب خلال النقش المرسوم في أعلاها، وادعى أن ترجمة النص المسماري هي هكذا: «إن جند السماء لا يسقينا الخل إلّا لأجل منحنا الدواء اللازم لشفائنا، وإذا كان كثيراً ما يفرق بين الأصدقاء الأوفياء، فإنه يجمعهم بعد ذلك إلى الأبد!»(١)، وهي ترجمةٌ استمرت تثير الضحك إلى الآن بعد معرفة القراءة الصحيحة لهذا النص، والوقوف على معناه، الذي هو حجة ملكية كما قلنا، مصحوبةً باللعنات التقليدية على المزورين.

وتأتي نهاية الكشيين عندما ضعضعهم الغزو العيلامي المتكرر، وهيَّأ الفرصة للآشوريين الذين أسسَّوا لهم دولةً قويةً في شمال العراق، منذ أوائل الألف الثاني قبل الميلاد، ليبسطوا سلطانهم على بقية العراق. وهكذا دخل الإمبراطور الآشوري (تغلات فالصر الثالث) بابل سنة ٧٣١ قبل الميلاد، فظلت تحت النير الآشوري إلى سقوط نينوى سنة ٦١٢ قبل الميلاد. ولكن من هم الآشوريون؟

الآشوريون ـــ من الناحية اللغوية على الأقل ـــ هم الفرع الثاني من الساميين في العراق. ولا ندري بالضبط من أين أتوا، إذ نجدهم منذ فجر التاريخ مستقرين على الضفة الشرقية من أعالي الدجلة، ومختلطين بعناصر غير سامية، تتكلم لغة غير الأكادية. وكان موطنهم الأول هذا إقليماً فقيراً جبلياً ساعدهم على أن ينشأوا منذ البداية نشأةً عسكريةً خشنةً، وأن يكونوا على طول

---

(١) André Parrot: Archéologie Mésopotamienne, les etapes, Albin Michel, Paris 1946, p. 17 ss.

تـاريخهم مثلاً في شـدة البأس والغلظة والقسـوة. أما حضـاراتهم فكـانت ملتقى تيـارات حضاريـة كثيرة، بعضهـا من شومـر أو إيـران أو آسيـا الصغـرى، وهي الأقاليم المجاورة لهم. وإلههم الذي كانوا يعبدونـه يسمى «آشور»، وبـه سميت بـلادهم، كما حملت اسمـه عـاصمتهم الأولى التي كـانت تقـع عـلى نهر الـدجلة شمالاً من نقطة التقـائه بنهـر الزاب الصغـير، أي على بعـد مائـة كيلومتر تقـريباً جنوبـي الموصل، وهي مدينة «آشور».

كانوا في بداية تـاريخهم يدينـون بنوع من التبعيـة للشومـريين، كـما تشهد بذلك الحفائر التي تمت في هـذه المنطقـة في تل «جـورة»، وتل «بيـلا»، ومنطقـة «أربتشية». بعد ذلك خضع الآشوريون للأكاديين الأول: سرجون الأكبر ونارام سين. ولكن غزو عشائر الجـوتي بعد مـوت هذا الملك الأخـير جلب الدمـار على إقليم آشور، ولعله أيقظ في السكان وعياً وطنياً قاموا عـلى أثره بـإنشاء مملكـة لها استقلالها في الشمال، يلي الحكم فيها منذ بـداية الألف الثـاني قبل الميـلاد الملك بُزرُ آشور الأول وأسرته من بعده.

وكان الملك الثالث من هذه الأسرة، إيلوشوما من أوائل القادة العسكريين ذوي الفتوحات الضخمة الذين اشتهرت بهم آشور. أخـذ يهاجم تخـوم الإمبراطـورية البابلية ثم اقتحم بلاد الجوتي والسوبارتو، واندفع نحو آسيا الصغرى حيث أقام مستعمـرة في كابـادوسيا في شـرق الأناضـول، وهو الـذي بدأ تخـطيط العاصمـة القديمة «آشور»، التي أتمها أولاده من بعده.

ولكن اضطر الآشوريون في عهد حمـورابـي للخضوع لسلطان هـذا الملك البابلي الجبار. وما يكـاد حمورابـي يمـوت حتى يقوم في آشور الملك «شَمْعِي أداد الأول» ليعيد بناء الدولة، ويبدأ سلسلة من الفتوحات تصل بها جنوده إلى سوريا ولبنـان وشرق تـركيا. ولكن هـذه المملكة النـاشئة أصيبت بنكسـة قويـة عندمـا وجدت نفسها على طريق الهجرات الآسيانيـة والهنديـة الأوروبية الآتيـة من قلب آسيا متجهةً نحو الغرب.

ويبدو أنه على عهد الكشيين قامت أسرة آشورية أخرى موالية لهم أسسها ملك يدعى «سي نِينْوا»، الذي قرأ بعضهم اسمه «بان نينوا» وهو الذي يسمى «نينوس» عند اليونان. ومنذ أيامه إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، أي قرابة مدة حكم الكشيين بأكمله، كان الآشوريون يشقون طريقهم في الحياة السياسية بصعوبة، نظراً لكثرة حروبهم مع جيرانهم البابليين والحيثيين والميتانيين. . . إلخ؛ وإن كان هذا الصراع قد ساعدهم على أن يتبلور لديهم مخطط سياسي وحربي واضح: هو الخروج من هذه العزلة، والوصول إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط من ناحية، والخليج العربي من ناحية أخرى. كذلك أفادهم هذا الصراع في الوصول بالفن العسكري إلى أرقى ما كان معروفاً في تلك الأيام من حيث التدريب والتسليح وتنظيم الإمدادات وتنوع فنون القتال. وهكذا نجد، ونحن ما زلنا في هذه الفترة الصعبة من حياة الآشوريين، أن الملك آشور أُبَلِّط الأول (حوالي ١٣٨٠ ــ ١٣٤١) ينجح في الوصول بحدود مملكته إلى ضفاف نهر الفرات.

ولكن القرن الثاني عشر قبل الميلاد هو الذي يفتتح العصر الذهبي للآشوريين. فانتصارات الإمبراطور (تغلات فالصر الأول)، (١١١٦ ــ ١٠٩٠) توصل الآشوريين إلى البحر الأبيض، كما يسيطر على المنطقة الشمالية في العراق وإيران وكردستان، من حوض الزاب الأدنى شرقاً إلى إقليم الحيثيين غرباً، ولكن يتجمد التقدم العسكري والسياسي الآشوري بسبب ارتطامهم من جديد بالبابليين والعيلاميين. ثم تنتهي فترة الجمود هذه بتتويج الملك آشور ناصر بال الثاني (٨٨٤ ــ ٨٥٩)، الذي يعيد فتح بلاد آمورو (سوريا) ويصل إلى البحر الأبيض. وفي عهد ابنه سلما نصر الثالث (٥٨٩ ــ ٨٢٤) نشأ تحالف ضد الآشوريين بين مملكة دمشق الآرامية، وعلى رأسها الملك «أداد إيدو»؛ ومملكة حماة الآرامية أيضاً، وعلى رأسها الملك «إيشولينا»؛ وحكام الأردن وفلسطين، وفي مقدمتهم الملك «آخاب»، ملك إسرائيل. وبسرعة وجَّه إليهم الإمبراطور (سلما نصر الثالث) جيوشه فسحقهم جميعاً في موقعه «قرقر».

ثم يـأتي عـلى آشـور دور من الانكمـاش مـرة أخـرى، إلى أن يصـل إلى العرش الإمبراطور أداد نيراري الثالث (٨١٠ ــ ٧٨٢)، الذي نجح في الصمود وتجنيب مملكته خطر الانهيار. وأعقب ذلك عصر الفتوحات الكبـرى الذي يبـدأ بالإمبراطور تغلات فالصر الثالث (٧٤٥ ــ ٧٢٧)، فيستولي على بابل نهائياً. ثم يخلفه ابنه سلمـانصر الخامس (٧٢٧ ــ ٧٢٢)، الذي يهاجم مملكة إسرائيل تحت حكم ملكهم هوشع، ولكنـه يموت أثنـاء حصار مـدينة السـامرة فيـواصل أخـوه وخليفتـه سرجـون الثاني (٧٢٢ ــ ٧٠٥) جهـوده حتى يستولي عليهـا، ثم يبسط سلطانه على كل فلسطين، ويبتلع جـزيرة قبـرص «كأنها سمكـة في الماء» ويحتـل جزءاً من بلاد الميديين، ويفرض نفوذه عـلى العيلامـين في إيران. ثم إنـه يوطـد سلطانه على بابل التي قام فيها زعيم وطني هو «مردوك أبال إدين الثاني»، محـاولاً الاستقلال سنة ٧٢١. وبعد موت سرجون الثاني خَلَفه عدد من الأباطرة العظام أكملوا بهاء هذه الدولة:

كان أولهم ابنه سنخاريب (٧٠٥ ــ ٦٨١)، الذي اضطر إلى إخماد الحـركة الوطنية في بابل بقيادة نفس الزعيم البابلي مردوك أبال إدين الثاني. وفي هذه المرة بدا بوضوح للإمبراطور سنخاريب أن بابل قد تظل نقطة قلقة ثائـرة على ملكـه، ولذلك فقد قرر إحراقها سنة ٦٨٩، ومع ذلـك فقد استمـرت ثورتهـا الوطنيـة، وعادت إلى الاندلاع من جديد سنة ٦٨١م، قبل مـوته بقليـل. كذلـك وجه هـذا العاهل جيوشه الغازية إلى سوريا وفلسطين (بلاد كنعان)، ومصر التي كانت تؤيد أعداء الآشوريين. وحازت القوات الآشورية انتصاراً حاسماً في موقعة «ألتـاقو». ومنذ هذا الوقت بدأت فكرة غزو مصر تتبلور في السياسة الآشورية. وقـد حقق هذه الفكرة آسرحدون (٦٨١ ــ ٦٦٩ق. م.)، إذ هاجم مصر حوالي سنة ٦٧٠ بجيش يعـاونه في قيـادته ابنـه آشـور بـانيبـال، الـذيَ اعتلى العـرش من بعـده (٦٦٨ ــ ٦٢٦ق. م.).

بهذا وصلت الإمبراطورية الآشـورية إلى أقصى درجـات القوة والاتسـاع، وبدأ الاضمحلال يدب إليها في أواخر حكم آشور بانيبال نفسه. وهذا هو الذي

يفسِّر لنا التفنن في القسوة والإرهاب الذي اتصف بـه هذا العـاهل، فمن سلب ونهب ونقل جماعي للسكان وتدمير وإحراق، ولكن ذلك كله لم يُفِدْ إلاَّ في إشعال نار الحقد الإجماعي ضد الآشـوريين. وهكـذا في سنة ٦١٢ق. م، أي بعـد وفاة آشور بانيبال بأربـع عشـرة سنة فقط، تحـالف أوفاشـاترا ملك ميـديا، المعـروف باسم سيكسار الأول (٦٣٣ ــ ٥٨٤ق. م.) مع نبوفالصر ملك بابل (من الأسرة الكلدانية، ٦٢٦ ــ ٦٠٥) وهاجما نينوى فحطّماها. وكان سقـوط هذه العـاصمة التي اشتهرت بالطغيان وإذلال البشر ذا دويّ ضخم جداً في الشرق القديم كله، بقيت أصداء منه في الكتاب المقدس (سفـر ناحـوم، الإصحاح ٢ والإصحـاح ٣ إلى الآية ٧).

اقتسم الملك الميدي والملك البابـلي الغنيمة فـأخذ الميـديون أعـالي الدجلة حتى تخوم آسيا الصغرى، وهو شمال العراق بمـا فيه الـوطن الآشوري القـديم، أما بقية الإمبراطوريـة، أي ما بقي من العـراق وسوريـا وفلسطين والمستعمـرات النائية التي منها مصر فقد ترك أمرها إلى (نبوفالصر) بأسرته الكلدانيـة أو البابليـة الجديدة.

لم تعش هذه الأسرة طويلاً، بل كانت حياتها أقصر من قـرن من الزمـان، ولكنهـا مع ذلـك، وبفضل مؤسسهـا وابنه الفـاتح الكبـير (بختنصر) نجحت في تجديد أمجاد الدول التي سبقتها في أكاد وبابل ونينوى.

كانت مصر وسوريا متحدتين تحت حكم الفرعون نخاو الثـاني الذي قـرر مقاومة الاحتلال العراقي. وقد واجه جيوش (نبو فـالصر) بقيادة ابنـه بختنصر، وهزمته هذه الجيوش في موقعة قـرقميش على نهر الفـرات، ولكن بختنصر اضطر إلى الانسحاب إلى بابل سنة ٦٠٥ بسبب موت أبيه.

كــان حكم بختنصر طـويــلاً (٦٠٥ ــ ٥٦٢ق. م.)، ويعتبـر من أزهى عصور تاريـخ الساميين في العراق عسكرياً وحضارياً. وكانت مصر هدفاً لمطامعه فبـدأ أولاً بفتح الـطريق إليها، وذلـك بإسقـاط دولة اليهـود في فلسطين وتهـديم

أسوارهم وهيكلهم الذي بناه سليمان في القدس. ثم أسر كل مَنْ يصلح منهم للقتال أو للعمل ونقلهم إلى بابل، ونكّل بملكهم صدقياهو، فذبح أولاده ثم أعمى عينيه وأبقاه في ذل الأسر. ومنذ هذا الوقت لم يقم لليهود كيان سياسي يعتد به في فلسطين إلى ظهور الدولة الصهيونية الحديثة، فيما عدا دولة صورية أقامها الفرس ودمَّرها الرومان كما سيرد ذلك في مكانه.

بعد ذلك هاجم بختنصر مدينة صور، ولكن ملكها إتّوبَعلَ الثالث قاوم الحصار ثلاث عشرة سنة، بعد أن نظم تموين المدينة بطريق البحر ولكنه مات، وخلفه مربعل الذي قرر عقد صلح مع بختنصر يحتفظ فيه باستقلال صور مع دفع الجزية لبابل، ووضع أسطوله في خدمتها. وحاول بعد ذلك غزو مصر، ولكنه لم ينجح.

بعد وفاة بختنصر سنة ٥٦٢ ق. م. خلفته سلسلة من ملوك لا أهمية لهم تنتهي بالملك نبونايد (٥٥٥ ـ ٥٣٩) وكانت أمه كاهنة من حران في ملتقى الحدود التركية العراقية السورية. وكانت كَرَّست نفسها للإلّه سين (القمر) فمال ابنها إلى هذا الاتجاه وانصرف لدراسة الدين وعلاقته بالكواكب والنجوم. في هذا الوقت كانت الإمبراطورية الفارسية قد ظهرت بقوة على مسرح التاريخ بعد انتصار عاهلها «قيروش» على الميديين. فبدأ يلاحظ اضمحلال الكلدانيين في بابل ويترقب فرصة للهجوم عليهم. وفي سنة ٥٤٨ق. م. قامت ثورة داخلية في بابل ضد هذا الملك المترهب نبونايد، وعزل عن العرش ليخلفه ابنه بلشاصر (بلتازار)، وفي هذه الفترة عقد تحالف بين الليديين والمصريين والكلدانيين ضد الفرس.

وفي أخريات هذه السنين، وكان نبونايد قد عاد إلى عرشه، هجم قيروش على بابل ودمرها سنة ٥٣٩. وبهذا ينتهي تاريخ حضارة سامية قديمة في العراق ظلت نحو ثلاثة آلاف سنة، ولم يعد العراق إلى عالم الساميين من بعد إلَّا بفضل الفتح الإسلامي على عهد عمر بن الخطاب، بعد هذا التاريخ بنحو ألف سنة أو تزيد.

□ □ □

(٢)

الكنعَانيّون وَالفِينيقيُّون

ما نعرفه عن اللغة العربية، وما عرفناه حتى الآن عن لغة الأكاديين ومَنْ خَلَفهم في العراق من بابليين وآشوريين، يؤكد أن اللغة السامية الأولى كانت تمتاز ضمن ما تمتاز به بظاهرة الإعراب، بالضمة على آخر الأسماء في حالة الرفع، وبالفتحة في حالة النصب، وبالكسرة في حالة الجر. وفيما عدا هاتين اللغتين، العربية والأكادية، سنجد أنفسنا من الآن مع لغات سامية يبدو بوضوح أنها بدأت تاريخها بلهجات مبسطة، تخلت جميعها عن ظاهرة الإعراب وأصبحت موقوفة، أي لا تتغير أواخر الألفاظ فيها بتغير التراكيب. وفي مقدمة هذه اللغات مجموعة تمثل الطرف العربي من الهلال الخصيب، وتشغل أقاليم سوريا ولبنان وفلسطين والأردن. وهي بدورها تتشعب شعبتين: الأولى ملاصقة لساحل البحر الأبيض المتوسط وهي الشعبة الكنعانية؛ والثانية في الداخل، وهي الشعبة الآرامية.

والكنعانيون كغيرهم من الساميين الذين قطنوا الهلال الخصيب جاءوا إليها مهاجرين. وهناك أكثر من دليل على هذه الهجرة.

وقد كانت معلومات عن الكنعانيين إلى عهد قريب تنحصر في ما جاء عنهم من الأخبار في أسفار العهد القديم، وفي نقوش البابليين والآشوريين والمصريين، وبعض كتابات المؤرخين اليونان والرومان. ثم تمخضت الآثار القديمة عن مجموعتين هامتين من النقوش، هما:

(أ) اللوحات المسمارية التي عثر عليها في تل العمارنة بصعيد مصر: وهي ترجع إلى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد، ومكتوبة باللغة الأكادية. وهي عبارة من مراسلات بعث بها إلى الفراعنة بعض ولاتهم وحكامهم في سوريا وفلسطين، أو بعض ملوك بابل وآشور، أو أمراء آخرون. ومعظم هذه المراسلات تتحدث عن العلاقات السياسية بين هذه الأقاليم ومصر. وعن وضع المدن المختلفة في هذه الأقاليم، وتعرضها لغزوات من الأموريين والحيثيين، والحابيرو الذين اعتبر بعض المؤرخين أنهم «العبريون»، وهذه أول مرة في التاريخ تتحدث عنهم وثائق مكتوبة. في هذه المراسلات الأكادية اللغة، كان الكاتب يضع من حين لآخر تفسيراً قصيراً باللغة الكنعانية، وهذه النصوص التفسيرية تعتبر من أقدم ما بين أيدينا من الكتابات الكنعانية.

(ب) نقوش رأس شمرة: وهي منطقة أثرية تقع على بعد ١٣ كيلو متراً إلى الشمال من ميناء اللاذقية، بالقرب من مرفأ صغير يسمى «مينة البيضا». وقصة العثور على النقوش الكنعانية في هذه المنطقة تبدأ في ربيع سنة ١٩٢٨، عندما كان أحد الفلاحين السوريين العلويين يحرث الأرض، فارتطم سلاح المحراث مصادفة ببقية سرداب يمتد تحت الأرض، يُوْصِل إلى مقبرة. وبسرعة جاءت بعثة أثرية فرنسية من بينها المهندس الأثري «شيفر» والأستاذ «شينه»[١]. وقد وجدا تلاً ركامياً يبعد ٨٠٠ متر عن الشاطىء، يسمى بين أهل هذه المنطقة «رأس شمرة»، والشمْرة، بسكون الميم عندهم وفتحها في اللغة المصرية: حبة مستطيلة دقيقة لها رائحة عطرية قريبة من رائحة الينسون، وكان هذا النبات ينمو تلقائياً على تل الأنقاض الركامية هذا فسموه رأس شمرة، وكتبه

---

(١) الأول(Claude Chaeffer) والثاني (Georges Chenet)، وكان عثورهما على أول مجموعة من هذه النصوص يوم ١٤ مايو ١٩٢٩؛ راجع:

H. E. Del Medico, Le Bible Cananéenne découverte dans les textes de Ras Shamra. Payot, Paris 1950, p. 11s.

كثير من الباحثين «رأس شمرا».

هذه المنطقة هي نفس المدينة القديمة التي تحدثت عنها الوثائق المصرية الفرعونية والبابلية الآشورية والحيثية باسم «أوجاريت»، ومنذ المرحلة الأولى من تلك الحفائر عثر على مقابر وفخار وتماثيل صغيرة وحلي وبعض عظام إنسانية وحيوانية ومجموعة كبيرة من اللوحات المغطاة بكتابة مسمارية. واستمرت الحفائر في رأس شمرة سنة بعد سنة وما يزال بعضها مستمراً إلى الآن.

وتجمعت من هذه الحفائر نقوش كثيرة، بعضها مكتوب بالأكادية أو بالمصرية أو الحيثية أو الهورية، ولكن الجانب الأهم كان منقوشاً بخط مسماري لا تعرف أسراره. ومع ذلك فإن تلك الأسرار لم تبق مغلقة وقتاً طويلاً، فقد لوحظ أنه بالرغم من كون هذه الكتابة مسمارية إلا أنها لا تعتمد على آلاف من العلامات المقطعية كاللغة البابلية الآشورية، وإنما تعتمد على ثلاثين علامة تتكرر هي هي في جميع النصوص. واستنتج العلماء أنها لا بد أن تكون كتابة أبجدية وليست مقطعية، وانطلاقاً من هذا الافتراض استطاع الأساتذة «فيرولو» و «دورم» و «باور»(١) سنة ١٩٣٠، كل على حِدَة، الوصول إلى حل طلاسم هذه الكتابة. ومن الطريف أن حفائر عام ١٩٥٠ التي قام بها شيفر قد أمدَّتْنا بوثيقة تؤكد صحة قراءة هؤلاء العلماء، وهي لوحة تعليمية تحتوي على هذه الأبجدية المسمارية الكنعانية(٢).

كما أثبتت الحفائر المتعاقبة عمراناً بشرياً في هذه المنطقة منذ ما قبل التاريخ إلى سنة ١٣٦٠ قبل الميلاد تقريباً، حيث دُمرت أُوجاريت والتهمتها النيران.

والنقوش التي عثر عليها ترجع إلى حوالي سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد، ولكن لما كان معظمها عبارة عن أساطير وملاحم شعرية أو أناشيد وصلوات دينية، فمن الطبيعي أن نفترض أنها أقدم بكثير من التاريخ الذي كتبت فيه. وهي

---

(١) هم على التوالي (H. Bauer — E Dhorme — Ch Virolleaud).

(٢) Sabatino Moscati. Op. Cit, P. 102.

على كل حال تمثل رداً على ما ذكرناه من رأي (رينان) وغيره من مستشرقي القرن التاسع عشر الذين زعموا أن الساميين لم يعرفوا أدب الملاحم. فالنقوش الكنعانية الأوجاريتية أكثرها ملاحم، منها ما يروي قصص الإله «بعل» أو الآلهة «عنات» أخته أو «أقهات» أو الملك «كِيرِت» أو ملحمة «دانل». . . إلخ. وقد عكف العلماء والباحثون على هذه النصوص يدرسونها لغوياً ودينياً وتاريخياً، ويقارنون بين ما ورد فيها وما جاء في الكتاب المقدس، أو في الملاحم الشومرية والأكادية القديمة، كما ظهرت عدة مؤلفات لغوية بحتة تصف اللغة الكنعانية، انطلاقاً من هذه النصوص، وتقارن بينها وبين العبرية وغيرها من اللهجات الكنعانية.

كذلك تحتل هذه النقوش أهمية خاصة في تاريخ الكتابة، فهي تحدد مرحلة انتقال من الكتابة المقطعية إلى الكتابة الأبجدية، في داخل طريقة واحدة هي الخط المسماري المنقوش على ألواح من الطين.

وهناك حقيقة تاريخية قيمة نقف عليها من ملاحم رأس شمرة، إذ يُفهم منها أن الكنعانيين عاشوا ردحاً من الدهر في صحراء النقب، جنوبي فلسطين، وأن الفضل يرجع إليهم في تخطيط أهم المدن في تلك المنطقة[1] مثل: «بئر سبع»، و «أشدود». ومن المهم أن نشير هنا إلى أن هذا الإقليم نفسه كان في القرن السابع قبل الميلاد ما يزال تحت سلطة الكنعانيين، بدليل قول النبي

(١) ولم يلتفت الباحث اللبناني المنبهر بالصهيونية والأمريكي الهوى الدكتور كمال الصليبي إلى هذه الحقيقة عندما نشر كتابه «التوراة أُنزلَت في عسير»، وزعم أن أسماء المواضع في فلسطين صدى لأسماء مواضع في إقليم عسير بالجنوب الغربي للملكة العربية السعودية، مما أدى به إلى القول بأن العبريين القدماء عاشوا في عسير. وهو خلط لا ندري أهو متعمد أو بسبب الجهل بين ما هو كنعاني وما هو عبراني. وأكاد أستبعد الجهل لأن الدكتور كمال سليمان الصليبي مؤرخ وأستاذ، ثم لما صحب كتابه منذ ظهوره من طنين مشبوه ــ وترجمات لمعظم اللغات الكبرى في العالم بين عامي ١٩٨٥ و ١٩٨٩.

اليهودي صفنيا في الإصحاح الثاني من سفره: «تجمعي واحتشدي أيتها الأمة غير المرضية، قبل نفاذ القضاء؛ مرَّ النهار كالعُصافة، قبل حلول حموّ غضب الرب عليكم، قبل أن يأتي عليكم يوم سخط الرب. اطلبوا الرب يا جميع بائسي الأرض، الذين نفذوا حكمه؛ التمسوا البرَّ، اطلبوا التواضع، لعلكم تسترون في يوم سخط الرب، لأن غزة ستكون مهجورة، وعسقلان خراباً، وأشدود سيطردونها عند الظهيرة، وستستأصل عقرون. ويل لسكان ساحل البحر أمة الكريتيين؛ كلمة الرب عليكم، يا كنعان، أرض الفلسطينيين، لأجعلنَّك خراباً بلا ساكن. ويكون ساحل البحر مسرحاً ذا آبار للرعاة وحظائر للغنم. ويكون الساحل لبقية بيت يهوذا، عليه يَرْعَون، في بيوت عسقلان يربضون عند المساء، لأن الرب إلههم يتعهدهم ويرد سبيهم»(١). وبعد هذا النبي اليهودي بنحو قرن من الزمان يسجل المؤرخ اليوناني هيرودوت في كتابه، نقلاً عن الفينيقيين، أن بلادهم التي نزحوا منها كانت تقع على ساحل بحر «أريتريا»، وهو ساحل البحر الأحمر الجنوبي من جهة اليمن(٢). ومن الجائز أن هذه الذكرى القديمة هي نفسها التي اعتمدت عليها التوراة في اعتبار كنعان من الحاميين، وجعله أخاً لمصرائيم (أبو المصريين الخرافي في رواية التوراة)، وكوش (الأب الخرافي أيضاً لكل أسود البشرة)، هذا إلى جانب العداوة التقليدية بين الكنعانيين واليهود التي رأينا أصداء منها في كلام النبي صفنيا.

ومن المهم أن نشير هنا إلى أن التفرقة في التسمية بين الكنعانيين والفينيقيين إنما جاءت عن طريق اليونان، فالفينيقيون أنفسهم كانوا يتسمون بالكنعانيين، كما كان اليهود يسمُون الفينيقيين بالكنعانيين، بسائر فروعهم وأنسابهم، لدرجة أن كلمة كنعاني أصبحت تستعمل بكل بساطة بمعنى تاجر، لغلبة التجارة عليهم، كما ورد في سفر الأمثال ٣١/٢٤: «تصنع (يعني الزوجة

(١) صفنيا ٢/١ ـ ٧.

(٢) وهذا اعتبار آخر نسيه ــ أو تناساه ــ الأستاذ الدكتور كمال الصليبي عندما خلط بين أسماء الأماكن الكنعانية والعبرية في فلسطين وما يشبهه في إقليم عسير.

الصالحة) قمصاناً وتبيعها، وأحزمة تعرضها على الكنعاني». ووردت أمثلة شبيهة بهذا في أيوب ٤٠/٣٠، وهوشع ٨/١٢، وصفنيا ١/١١، وإشعيا ٨/٢٣، وحزقيال ٢٧/٤.

ومن المرجح أن هجرة الكنعانيين نحو ساحل البحر الأبيض المتوسط قد بدأت في أوائل الألف الثالث قبل الميلاد، فوصلوا أولاً إلى بلاد العرب الصخرية في شمال الحجاز، ومنها دخلوا إقليم النقب ليأخذوا طريقهم بمحاذاة الساحل إلى لبنان وسوريا. ويبدو أن الموقع الجغرافي الساحلي لموطنهم الأصلي، ثم لمستقرهم الجديد، قد جعل منهم تجاراً وملاحين مهرة. وهم فيما يتعلق بفن الملاحة يعتبرون عنصراً فريداً في بابه بين الساميين، وبُناة حضارة بحرية لم يكن لها مثيل من قبل في الشرق الأوسط. وقد نشأت لهم على البحر مدن حصينة، كانت كل منها إمارة مستقلة وميناء نشيطاً في آن واحد؛ أهمها: صور، صيدا، وجبيل (بيبلوس)، وأرواد (أراد)، ورأس شمرة (أُوجاريت).

أما جبيل فهي «بَعَلَتْ جِبال» باللغة الفينيقية؛ أي صاحبة الحدود، لأنها فيما يبدو كانت النقطة التي ينتهي فيها النفوذ الكنعاني الشمالي المتأثر بالحضارات البابلية والآشورية والحيثية، ويبدأ الشطر الجنوبي، الفينيقي الذي يتميز بتأثره بالحضارة المصرية الفرعونية. ومدينة جبيل نفسها كانت منذ بداية الألف الثالث قبل الميلاد على صلة وثيقة بالدولة القديمة الفرعونية (من ٢٨٩٥ — ٢٦٨٠)، كما تشهد بذلك أشياء مصرية كثيرة عثر عليها في حفائر جبيل. وكانت هذه المدينة تتولى النقل البحري لصادرات غرب آسيا إلى مصر، كالنحاس من جزيرة قبرص، والفضة من آسيا الصغرى، والصوف والزيت والصمغ والقار من سوريا والعراق، والخشب من لبنان. ومن المعروف أن الفرعون سنفرو، من ملوك الأسرة الرابعة، قد استورد حمولة أربعين سفينة من خشب الأرز اللبناني.

وابتداء من الألف الثاني قبل الميلاد، وعلى طول حكم الدولة الوسطى والحديثة في مصر، كانت جبيل مستعمرة مصرية يحكمها حكام مصريون أحياناً وفينيقيون أحياناً أخرى، نذكر منهم «رِيَبـدِّي» الذي كان معاصراً لأمينوفيس

الثاني. وكان يعطي نفسه لقب «كلب الفراعنة»، ويكتب إلى فرعون قائلاً: «اعتبر جبيل لك بمثابة منفيس أخرى». وهذه السيادة المصرية تظهر أيضاً في الفن والدين، ففي الفن يعتبر تابوت أحيرام، ملك جبيل تحت حكم رمسيس الثاني، قطعة فنية ناطقة بتأثير الفن المصري على الفن الفينيقي.

أما في الدين فقد كانت هناك مجموعة نقوش محفورة على لوحات بعضها من البرونز بخط قريب من الكتابة التصويرية المصرية، بما فيها من طيور وحيوانات وزواحف، ولكن هذه الكتابة ظلت سراً مغلقاً، واكتفى العلماء بتسميتها مجموعة النقوش «الشبيهة بالهيروغليفية» حتى استطاع أستاذنا دورم في صيف ١٩٤٦ أن يفك رموزها، وإذا بها كتابة أبجدية فينيقية تتضمن كثيراً من أسماء الآلهة الفرعونية، في سياقٍ يثبت تقديس الفينيقين لها.

وما دمنا بصدد الحديث عن نقوش أبجدية، فلا بد من الإشارة إلى الدور الذي لعبته مدينة جبيل في تقدم فن الكتابة في العالم. ففي هذه المدينة ظهرت الكتابة الأبجدية قبل ابتداء القرن الثالث عشر قبل الميلاد، بصورة سهلة وعملية لأول مرة في التاريخ. وكانت الظروف هي التي رشحت جبيل، الميناء البحري النشيط، لهذا الدور، إذ لم تكن الكتابة المصرية الهيروغليفية، ولا الكتابة المسمارية العراقية متجاوبة مع الاحتياجات التجارية والبحرية لهؤلاء الفينيقين. فهم كثيرو الانتقال في البحر، وهم يرتادون الأسواق براً لبيع ما عندهم أو للحصول على بضاعة جديدة، واللغة المصرية بما تحتاج إليه من دقة في الرسم، وصبر، وجلسة خاصة يمثلها الكَتَبَةُ الفرعونيون المتربعون لتلقي الإملاء، كانت لا تناسب هؤلاء التجار الكثيري الحركة، الحريصين على توفير الوقت. وكانت الكتابة المسمارية بحاجتها إلى معجنةٍ من الطين، ولخطورة الماء على الوثائق المكتوبة بها، وضرورة تحويلها إلى فخار بالحريق في أفران، يستحيل أداؤها في السفن. هذه الظروف هي التي أدت إلى اختراع الحرف الأبجدي في جبيل، ومنها انتقلت الأبجدية إلى أوروبا وغرب آسيا وجزء كبير من إفريقية، وأصبحت أيسر الطرق لتسجيل أفكار البشر تسجيلاً بصرياً بالحبر على الورق؛

ومن أجل ذلك سميت هذه المدينة عند اليونان «بيبلوس»، أي مدينة الكتابة، أو مدينة الصحف المسطورة.

وإذا كانت مدينة جبيل هي المركز الديني والمعقل الثقافي لفينيقيا، فإن مدينتيْ صيدا وصور كانتا مركزين أساسيين للحياة السياسية والاقتصادية والعسكرية للفينيقيين. كانت صيدا أقدم مولداً من صور، وتسميها التوراة «المولود البكر» لكنعان. أمّا صور فقد أنشأها أهل صيدا أنفسهم حوالي سنة ٢٧٥٠ ق. م، وهو تاريخ نستخلص منه أن إنشاء صيدا يرجع إلى القرون الأولى من الألف الثالث قبل الميلاد. وقد اجتاحت صيدا غارات الحيثيين والهكسوس أثناء هجراتهم الأولى، فدُمِّرَت ثم أعيد بناؤها بعد ذلك بزمن قليل، شأنها في ذلك شأن بقية المدن الفينيقية. وقد ظلت قروناً طويلة على اتصال وثيق. وأيام الدولة الحديثة كانت ميناء لإنزال الجيوش الفرعونية الموجهة إلى أقاليم غرب آسيا، كما كانت ترسل منها سنوياً الجزية التي فَرَضَها الفراعنة على هذه الأقاليم.

وابتداء من القرن الخامس عشر قبل الميلاد تَعَرَّضت صيدا لهجمات من مختلف شعوب غرب آسيا، بدأت بقبائل من البدو يسمون «حبيرو» يظن أنهم العبريون، واستمرت غاراتهم خلال القرنين الخامس عشر والرابع عشر. وفي القرن الثالث عشر يهاجمها «أهل البحر» ويدمرونها. وما أقبل القرن الثاني عشر قبل الميلاد حتى كانت القوة السياسية والعسكرية للمصريين والحيثيين قد ضعفت، مما هيّأ الفرصة لصيدا، بل لكل فينيقيا للازدهار. وهكذا يرتفع نجم صيدا الاقتصادي والصناعي والفني، وتصبح بؤرة إشعاع على طريق البحر الأبيض المتوسط كله، بما في ذلك جزر كريت وقبرص ورودس وبحر إيجة.

وحوالي سنة ١١٠٠ ق. م.، هاجمها «الفلشتيون» ــ سكان فلسطين القدامى ــ وخرّبوها بقيادة ملك عسقلان. ولكن أعاد عمارتها ملك صور، وكان من أصل صيداوي، فعاشت محافظة على كيانها بصعوبة إلى أن جاء الإمبراطور الآشوري سلمانصرّ الثالث، ففرض عليها إتاوة ضخمة مرتين:

الأولى سنة ٨٥٤، ثم سنة ٨٣٩. ولكن المدينة انتهزت فرصة موت أحد خلفاء سلمانصر من الأباطرة الآشوريين الكبار، وهو سرجون الثاني، فقامت بثورة ضد الحكم الآشوري، تؤيدها أختها صور. ولكن الإمبراطور سنخاريب حَطَّم الثورة، وولَّى عليها ملكاً يرضى بالتبعية له هو «إتوبعل الثاني»؛ إلاّ أن هذا الوالي الصغير يثور على الحكم الآشوري أيضاً بمجرد وفاة الإمبراطور. فيأتي خلفه آسرحَدُّون إلى صيدا سنة ٦٧٦، فيقتل إتوبعل، ويأخذ كل سكان المدينة أسرى، ثم يدمرها عن آخرها ويقيم على أنقاضها قاعدة عسكرية آشورية سماها قلعة آسرْحدُّون. ومنذ ذلك الوقت أصبح موقع المدينة مطمعاً للمصريين والآشوريين والفرس، الذين آلَتْ إليهم أخيراً السيطرة عليها، ومع ذلك فقد ثارت عليهم، فأحرقها ملكهم، «أرطاَكْسِرْكسِسْ الثالث» سنة ٣٤٤. وبعد سنوات قليلة وضع الإسكندر الأكبر حداً لكل هذا بهزيمته للفرس وسيطرته على مصر والشام.

ويكاد تاريخ مملكة صور الفينيقية يسير محاذياً وموازياً لتاريخ صيدا. ومع ذلك فإنَّ موقعها على جزيرة صخرية (كلمة صور معناها صخرة بالفينيقية) كان يحميها إلى حد كبير من قسوة الغزو. وقد ارتبطت هي أيضاً بمصر منذ نشأتها، ولكنها عرفت، ابتداء من القرن العاشر قبل الميلاد، عهد ازدهار يستمر إلى القرن السابع. بل في القرن السادس نفسه تحتفظ صور بكثير من بهائها وفخامتها وقوتها كما يشهد بذلك نبي يهودي من هذا القرن هو حزقيال، الذي يتحدث عن غناها ومناعتها وكثرة بضائعها ورقي العمران فيها في الإصحاحين السادس والعشرين والسابع والعشرين من سفره.

والحق أنَّ صور في عهد ازدهارها كانت سيدة البِحار، وكان أسطولها يجوب الآفاق من سواحل أيونيا «آسيا الصغرى» إلى بلاد المغرب الأقصى، بل يظن أن مراكب الصوريين قد وصلت إلى جبل طارق وجزر القصدير في المحيط الأطلنطي، بل إلى الجزر البريطانية نفسها. ولأول مرة في تاريخ البشرية الثابت بالوثائق يتم اتصال بحري بين الشرق والغرب.

وكـان نـظام الحكم في صـور ملكيـاً، ومن أشهـر مَنْ وليها مِن الملوك الفينيقيـين: حـيـرام الأول (٩٣٥ ـ ٩١٩ق. م) وإتّـوبَعَـل الأول (٨٨٧ ـ ٨٥٦). وكـان يعـاون الملك مجلس استشـاري من شيـوخ المـدينـة وحكمـائهـا وأعيانها، أما السلطة التنفيذية والقضائية فكان يتولاها قضاة أو حكّام يسمَّى كل واحـد منهم «شُـوفِطْ»، أي قـاضٍ. ويبـدو أن القضـاء كـان وظيفـة وراثيـة مثل المُلك.

وملك صور، حيرام الأول، الذي ذكرناه الآن، كان معاصراً وحليفاً لملك اليهود وحكيمهم ونبيهم سليمان بن داود. وقد أرسل إلى سليمان عندما بدأ بناء الهيكل والقصر في أورشليم (القدس) الصنَّاع والأخشاب والذهب اللازم للطلاء والزخرفة، وتلقى منه في مقابل ذلك تنازلاً عن إقليم يحتوي على عشرين قرية في الجليل بشمال فلسطين.

وقد أصبـح تحالف صور وأورشليم خطاً سياسياً تقليدياً التزمه مَنْ أتى بعد هـذين الملكين، حتى إتّـوبعل الأول الـذي ذكرنـاه؛ فبالـرغم من كونـه مغتصباً لعرش صور، وبالرغم من أنه كان يمثل قمة الكفر في نظر اليهود لأنه كان كاهنـاً وثنيـاً للإلهـة عشتروت قبـل توليـه الملك، فإنـه يبالـغ في صـداقته لأخـاب ملك إسرائيل، لدرجة أنه يزوجه بابنته «إيزابيلا»، التي بقيت على وثنيتها وبنت معبداً لبعل في إسرائيل، وأنجبت مِنْ أخاب بنتاً اسمها «عتليا» أو «أتالي»، نشأت أيضـاً على الكفر، وتزوجها يُـورام ملك يهوذا (٨٥٥ ـ ٨٤٧). وكـان هذان الـزاوجان الملكيـان السيئان سببـاً في نقمة اليهـود جميعـاً عـلى الـزواج المختلط، ومهـاجمـة أنبـيائهم وكهنتهم له، حتى انتهى الأمر في الحالتـين إلى قتل كـل من المرأتـين في ثـورة من السخط الشعبي الجارف ضـدهما. وبقي من آثـار ذلك هـذا التعصب الديني والعنصري الشديد الذي اصطبـغ به الفكر اليهودي.

وعنـد مـوت إتـوبعـل الأول قـام نـزاع عـلى وراثـة عـرش صـور بـين حفيدته «إليسار» وأخيها «بـيجماليون» (وهو غير النحات العبقري اليوناني الـذي

يحمل نفس الاسم وله الأسطورة الشهيرة). والظاهر أن إليسار، (وتسمى في بعض الوثائق «إليز»، و«ديدُون»)، يئست من الاستيلاء على الحكم في صور، فلجأت هي وعدد من أهل المدينة إلى قبرص، ثم اتجهت إلى إفريقية الشمالية فكونت لها مستعمرة فينيقية على الساحل التونسي كانت عاصمتها قرطاجة، وأصل هذا الاسم بالفينيقية «قَرْتَا ــ حَدْشَا» ، أي القرية الحديثة ، وقد جاء التحريف من الكتّاب اليونان والرومان، وهم الذين سموا هذه الجهة أيضاً بالمستعمرة البونية.

ومنذ حُكْم الملك الآشوري سلمانصرّ الثالث تسير صور في تيار الأحداث التي أَلَمَّتْ بصيدا إلى الحكم اليوناني على يد الإسكندر.

وقد ترك لنا الفينيقيون نقوشاً على نقودهم وجدت في كل حوض البحر الأبيض المتوسط، بل وُجد بعضها في إيرلندة والنرويج. كما أن كتابتهم، وقد قلنا إنهم مبتكرو الأبجدية، قد استعملت في أماكن نائية: ففي قرطاجة عُثر على كثير من النقوش والوثائق باللغة الفينيقية تعتبر على أكبر جانب من الأهمية من حيث معارفنا عن الديانة والطقوس عند الكنعانيين. كذلك هناك مجموعة من النقوش التي عثر عليها في شبه جزيرة سيناء في الموضع المسمى سرابة الخادم، وبالرغم من أن أمر هذه الكتابة ما يزال موضع نقاش بين العلماء إلّا أنه يظن، بالرغم من كل شيء، أن اللغة نفسها ستكون لهجة كنعانية أيضاً.

وفي الأردن على ضفتيه الشرقية كانت تقوم قديماً مملكة «مؤاب»، وقد وصلتنا وثيقة هامة جداً من لغة هذا الإقليم في القرن الثامن قبل الميلاد، وهي عبارة عن نقش جنائزي يذكر فيه تاريخ الملك المؤابي «ميشع بن كموش»، الذي كانت له صولات وجولات مع يورام ملك إسرائيل[1]. وهذا النقش

(١) سفر الملوك الثاني، الإصحاح الثالث. وهو غير يُورام ملك يهوذا المذكور آنفاً والمعاصر لآخاب ملك إسرائيل.

مكتوب بالأبجدية الفينيقية ولغته فينيقية كنعانية في جوهرها، وهي قـريبة الشبـه جداً باللغة العبرية.

وهناك شاهـد على سعـة انتشار الفكـر الكنعاني الفينيقي هـو النقش الذي عثر عليه مكتوباً باللغتين الفينيقية والحيثية في منـطقة «قـره تبه» في آسيـا الصغرى سنـة١٩٤٧. ويعتبر أطـول وثيقة فينيقيـة قحة وصلتنـا إلى الآن، فقد أشـرنا إلى أن نقش ميشـع هو أطول مكتوب بلهجة مؤابية.

□ □ □

(٣)

العِبْرِيُّون

(بنو اسرائيل - اليهود)

يحتاج التاريخ الحقيقي للعبريين إلى جهود متضافرة على طلب الحقيقة وحدها، بعيداً عن تأثير عواطف الحب أو البغض، وبمعزل عن تأثير المقدسات على العالِم المتحري لما قد كان في الواقع ـ فنحن نعلم أن مجيء سيدنا موسى ومَنْ سبقه من الأسلاف ومن لحقه من الأنبياء، قد فرض نوعاً من الاحترام لهؤلاء الناس بين المسلمين والمسيحيين على السواء، احتراماً يمنعهم من فتح العينين جيداً، ورؤية الحقائق والوقائع وجهاً لوجه، على حين أن العرب قد أصبحوا الآن المرشحين الأُول لهذه المهمة، على أثر الاستعمار الصهيوني لفلسطين من ناحية، ولأن العرب واليهود، من ناحية أخرى، هما الشعبان الساميان الوحيدان اللذان قاوما أحداث الزمن فعاشا إلى القرن العشرين، بينما زال البابليون والآشوريون والكنعانيون والفينيقيون والآراميون والسريان في حقب متفاوتة من الزمان.

والذي يدعونا إلى إطلاق هذه الصيحة مطالبين بدرس أوسع وأعمق لتاريخ العبريين، هو أنهم الأمة الوحيدة تقريباً التي كتبت تاريخها بيدها، وبحسب هواها، ثم زعمت أن ذلك التاريخ قد أنزل من السماء، وأنه فوق الجدل والنقاش. وهم عندما كتبوا تاريخهم هذا أغاروا عَلَى المأثورات الشعبية للأمم القديمة التي عرفوها، وأضافوا إليها من بقايا الفولكلور الذي حفظته ذاكرتهم منذ بداوتهم الأولى، فنسجوا من ذلك كله أسطورة اختلطت فيها حكمة الحكماء، وشرائع الأنبياء، بحكايات الأبطال الخرافيين، وترجمات تكاد تكون حرفية لملاحم من أمم أقدم منهم.

وهم أنفسهم إذا تكلموا عن أصولهم الأولى تلجلجوا واختلفوا، فبعد أن جعلوا الكنعانيين من نسل حام في الإصحاح العاشر من سفر التكوين، وجعلوا أنفسهم من نسل سام، عادوا في نفس التوراة (سفر الثنية ٢٦ / ٥) فقالوا على لسان موسى: (كان أبي آراميا تائهاً)، وما نكاد نطمئن إلى انتسابهم لآرام حتى يعودوا فينتموا إلى «عابر» (التكوين ١١ / ١٤ ـ ١٧). ثم إنهم بعد أن تبرأوا من كنعان يعودون فيسمون اللغة العبرية: «لسان كنعان» (سفر إشعيا ١٩ / ١٨).

وليست عندنا آثار عبرية مكتوبة أقدم من القرن الثامن أو التاسع، على أبعد تقدير، قبل الميلاد. فمن القرن الثامن نقش قناة السلوان التي كانت قد حفرت لإدخال ماء هذه العين الواقعة جنوبي مدينة أورشليم (القدس) إلى داخل المدينة تحت الأرض، حتى يستمر تدفقها في حالة الحصار. كما وجدت بعض قطع الفخار في إقليم السامرة (بالقرب من مدينة نابلس) تحمل ألفاظاً عبرية قليلة. أما من القرن التاسع فقد عثر على تقويم في حفائر (جيزر)، وهي بقايا مدينة كنعانية تقع على بعد خمسة عشر كيلومتراً تقريباً إلى الشمال الشرقي من يافا. وقبيل الحرب العالمية الأخيرة عثر الأثري البريطاني (ستاركي)[1] في منطقة تل الدوير ـ لَكِيش القديمة ـ التي تقع جنوبي مدينة الخليل (حبرون) على مجموعة من الكتابات العبرية من أيام النبي إرْمِيَا، وقد قام بدراستها هذا الأثري المذكور مع زميل بريطاني هو (لانكستر هاردنج)[2]، ومعهما (ألكين لويس)[3]، وأستاذنا (هاري تورتشينر)[4].

وقد كانت لمعرفة المستشرقين المحدثين للغات الشرق القديم فضيلة أنها فتحت الأعين قليلاً على منابع أخرى للتاريخ اليهودي غير الكتاب المقدس.

---

(١) J.L. Starkey.

(٢) Lankester Harding.

(٣) Alkin Lewis.

(٤) H. Torczyner.

وليس أدل على أهمية ذلك من أن نجد إرنست رينان، بفطنته وتجربته وإحساسه الداخلي، يقول قبيل الوصول إلى قراءة الوثائق البابلية الآشورية: «إنه من الممكن أن تكون قد قامت في بابل حركة أدبية سامية معاصرة أو سابقة للعبريين والكنعانين، لكن هذه الحركة لم تظهر لنا من خلال أي نص مكتوب، وبالتالي فإننا لا نستطيع أن نمس ذلك في بحثنا الآن»[١] ــ وكان بحثه عن العبريين بالذات.

ولا يقتصر ميل رواة أسفار الكتاب المقدس إلى الأسطورة فيما يتعلق بهم وحدهم، بل تعدَّى ذلك إلى أصل فلسطين نفسها، فجعلوا لها أمماً بائدة تصوروا أنهم كانوا عمالقة ومردة وأنهم كانوا شعوباً وقبائل لها أسماء تميزها، ذكروا منهم: (النفيليم)، و (الإيميم)، و (الرفائيم)، و (الزوزيم)، و (الزمزميم)، و (العناقيم). وهذه الظاهرة كما يلاحظ رينان[٢] فاشية في طفولة جميع الشعوب المستقرة، المتحضرة، إذ تتخيل الإنسانية الهمجية الأولى على شكل البشر لهم أجساد خرافية في الطول والعرض، ولهم قوة وبأس على مستوى هذه الخرافات والأساطير. ثم نجد الكتاب المقدس الذي ذكر هذا، يذكر أجناساً تاريخية أخرى يجعلها طارئة على فلسطين، ويقسمها إلى ساميين، في مقدمتهم سلالة كنعان ــ (وقد أشرنا إلى تردد الكتاب المقدس في نسبة كنعان) ــ من أموريين وحيثيين وحويين وفرزيين ويبوسيين وجرجسيين، ممن سماهم اليونان بالفينيقيين، ممتزجين ببقايا من السلالات البائدة الخرافية، وخاصة العناقيم، ثم ببعض القبائل العربية مثل العمالقة، وأبناء المشرق، الذين يسمون في اللغة العبرية (بِنِي قِدِم) ويذكرون أن منهم أيوب نبي الله.

وبالرجوع، مرة أخرى، إلى الكتاب المقدس بحثاً عن أصول هذه المجموعة البشرية المحيرة، نجد أن كلمة (عبريين)، بالعبرية (عبريم)،

(١) Ernest Renan; Op. Cit., p.98 s.

(٢) نفس المرجع، ص ٩٩.

تستعمـل اسماً قـديماً لبني إسـرائيل الـذين كانـوا قبل نـزول هؤلاء النـاس أرض فلسطين أو (أرض الميعاد)، كما تسمى عند اليهود. وقد أشـرنا من قبـل إلى ظن بعض الباحثين أن كلمـة (عبري) هي كلمـة (حبـيرو) التي وردت في وثـائق تل العمـارنــة، وفي كتــابــات الكشيـين في العــراق، وفي نقــوش الحيثيـين في (بوغازكوي)، كما وردت في بعض نصوص آشورية عثر عليهما في حفائر نوزي (في الكردستان العراقي بالقرب من مدينة كركوك في الموضـع المسمى يُورجان تِبـه). ويـرى أستاذنـا إدوار دورم[1] أن العلاقـة بين اللفـظتين مشكـوك فيهـا، فلفـظة (حبـيرو) صفة، معناها الرفيق أو الحليف أو الشريك، أما (عبـري) فإنها مشتقة من الفعل السامي الشـائـع في العربيـة (عبر) بمعنى اجتـاز. والعِبْر بكسر العـين وسكون الباء اسم موجود في اللغة العبرية بكسرتين خفيفتين، ومعناها كما هو في العربية: الجهة الأخرى التي يستلزم الوصول إليها اجتيازاً وعبـوراً. واستعمل في العبرية (عبر الوادي) بمعنى الناحية الأخرى منه (صمويل الأول ٣١/٧)، (عبـر جدول صغير) مثل الأرنون (القضاة ١١/١٨)، و (عبر نهر) مثل الأردن (تكوين ٥٠/١٠)، و (عبـر بحر) مثـل البحر الأبيض المتـوسط (إرميا ٢٥/٢٢). ونحن نعلم أن الفرات بالنسبة للساميين جميعاً كان هو «النهـر الكبـير» (تكوين ١٥/١٨ تثنية ١/٩ إشعيا ١/٤)، وكان كثيراً ما يسمى (النهر) بدون ذكر اسمـه أو صفته (تكوين ٣١/٢١ خروج ٢٣/٢١ عدد ٢٢/٥ تثنية ١١/٢٤ صمويل الثاني ٧/٣ ارميا ٨/٧ وكذلك ١١/١٥). وكان اليهود يقولون بلغتهم (عِبِر هَانَهَر) كما كـان الأكاديون يقـولون (إبِـرنَارِي) أو (ابـرتي ناري) والآراميـون يقولـون (عَبَرْ نَهْرَا). وقـريب منه مـا في النقوش العربية الجنـوبية، ومعنى ذلـك كله الشط الأخـر من النهر، أي نهر الفرات بالذات.

فيكـون العبري، بنـاء على ذلـك، هو سـاكن الأرض الواقعـة إلى الضفة

---

(١) E. Dhorme, la Religion des Hébreux Nomades, N.S.E, Bruxelles 1937, p. 75-85.

الغربية من الفرات وهي الأقاليم المتاخمة لسوريا، والتي تسمى بادية الشام. كذلك كانت تسمية عبري تنطبق على مَنْ يهاجر من العراق فيعبر نهر الفرات إلى الشام؛ وهناك شواهد تشعرنا بأن هؤلاء العبريين كانوا كذلك. ففي الإصحاح الرابع والعشرين من سفر يوشع بن نون نقرأ ـ آية ٢، ٣: (هكذا قال الرب إله إسرائيل، آباؤكم سكنوا في عبر النهر منذ الأزل، تارح أبو إبراهيم وأبو ناحور، وعبدوا آلهة أخرى. فأخذت إبراهيم أباكم من عبر النهر وسرت به في أرض كنعان، وأكثرت نسله، وأعطيته إسحق). والحوادث المشار إليها ربما تكون قد وقعت في بداية الألف الثاني قبل الميلاد، فقد وردت أصداء منها في ملحمة (كرت) من ملاحم أوجاريت، (رأس الشمرة)، ولكنها تخالف كثيراً ما جاء في التوراة، ففيها إشارة إلى (تارح)، وبعض وقائعه في جنوب فلسطين.

هؤلاء العبريون كانوا قبل وصولهم إلى أرض كنعان (فلسطين) مجموعة من العشائر السامية البدوية المتنقلة حول المدن العراقية الكبرى مثل (أور) في جنوب العراق و (ماري) في وسطه و (حران)، في شماله. ويبدو أن مدينة حران، وهي تقع في ملتقى حدود العراق وسوريا، كانت منطلق الخطوة الثانية لرحلة هؤلاء البدو من بلاد «أكاد» إلى بلاد «آمورو» غرباً. فهم هنا يعبرون نهر الفرات ويسمون على أثر هذه الرحلة (العبريين). وبمجرد عبورهم هذا يجدون أنفسهم وجهاً لوجه أمام ساميين آخرين من البدو الرحل في أطراف بادية الشام، هم الآراميون»، ويبدو أن الطرفين تعايشا وامتزجا مدة طويلة من الزمن، وحصلت بينهما مصاهرة كما حدث تبادل في الثقافة العلمية، وفي المعتقدات والطقوس الدينية أيضاً. ووصلت الروابط بينهما لدرجة أن العبريين، بعد أن هاجروا نحو بلاد الكنعانين، كان شيوخهم مثل إسحق ويعقوب إذا أرادوا الزواج اتجهوا نحو (فدان آرام)، معقل الآراميين في عبر الفرات من جهة سوريا، ليخطبوا لهم زوجات، وكان آباؤهم ينهونهم عن زواج بنات الكنعانيين. وقد أشرنا من قبل إلى النشيد الذي يعزى إلى موسى، والذي يقول فيه: «كان أبي آرامياً تائهاً»، (تثنية ٢٦/ ٥).

وقصة العبريين مع أرض كنعان، وهي الطرف الغربي للهلال الخصيب، قصة مليئة بالمواقف المثيرة. فهذا الإقليم المحصور بين البحر والصحراء، كان طريق قوافل وطريقاً بحرياً من الطراز الأول يربط غرب آسيا بالبحر الأبيض المتوسط وبمصر على الخصوص. ولأنه كان طريقاً مطروقاً لم تعش فيه أمة نقية الجنس عريقة السلالة، بل هبطت إليه عشائر تنتمي لأمم كثيرة منذ فجر التاريخ، بدياناتها وحضاراتها، ولغاتها. عاش فيه نازحون من مصر القديمة، ومن العراق القديم، ومن فينيقيا، ومن كريت وقبرص وبحر إيجة، بل من سكان المناطق الجبلية في داخل آسيا. وهذا الموقع نفسه جعل من فلسطين عندما كانت تتصادم الإمبراطوريات الكبرى المتنازعة على مصير العالم المعروف في أيامها، موقعاً استراتيجياً على أكبر جانب من الأهمية، اقترن اسمه بعددٍ كبيرٍ من المواقع الحربية الفاصلة في التاريخ القديم. وما تزال مقدرات هذه البلاد تخضع لنفس هذه الاعتبارات إلى يومنا هذا. عرف ذلك الفراعنة، وأدركه بختنصر، ثم قيروش وقمبيز، ثم الإسكندر الأكبر، ثم قياصرة الرومان، ثم العرب، والصليبيون، وصلاح الدين، والمماليك، والعثمانيون، ونابليون، واللنبي، وحاييم وايزمان، وأخيراً الولايات المتحدة الأمريكية.

ويبدو من سياق التوراة أن نزول شيوخ العبريين الأول، وعلى رأسهم إبراهيم وإسحق ويعقوب، إلى فلسطين لم يكن له أي أثر سياسي يذكر، فقد ظلوا كما كانوا بدواً رحَّلاً يعيشون على هامش المدن والبلدان الفلسطينية التي كان يسكنها أهل البلاد الأصليين من فلسطيين[1] وكنعانيين وأموريين وحثيين وحويين وأدومين. . . إلخ. ويبدو أيضاً أن تلك العشائر العبرية كانت منذ وجودها في العراق قد تعلقت تعلقاً قوياً بالطقوس الدينية، وأصبحت لا تتصور المعيشة بدون مقدسات مادية محسوسة ملموسة. فكانت إقامتهم في فلسطين تقترن دائماً بقصص عن بقاعٍ قَدَّسها تَجَلِّي بعض الملائكة، أو حدوث معجزة من المعجزات

---

(١) تسميهم التوراة (فلشتيم).

أو خارقة من الخوارق. وكانوا عادة لا يختلقون قدسية جديدة لأماكن غير معروفة، إنما يقدسون أماكن قدسها من قبلهم وثنيون، وأقاموا فيها معبداً أو مذبحاً للقرابين، وكانت هذه البقاع المقدسة تعرف بصخرة تشرف عليها أو قبر يقوم فيها أو أجمة أو غابة أو حرش. وأحياناً، في المناطق الصحراوية كإقليم النقب، كان المكان المقدس يحيط ببئر (مثل بئر سبع)، أو عين ماء مثل عين قديس، التي تسمى بالعبرية قادش، أي المقدسة.

هؤلاء العبريون البدو الرحل يكثرون من المجيء إلى مصر منذ أيام إبراهيم، ثم نراهم في قصة التوراة يَفِدُون إليها على أيام يعقوب ويوسف ويقيمون في إقليم (الجوشن) في شرق الدلتا، متاخمين لصحراء سيناء. ويبدو أن المصريين، على أثر نجاحهم في حركتهم الوطنية التي حرروا بها البلاد من حكم الهكسوس الآسيويين حوالي سنة ١٥٨٠ ق. م؛ قد كرهوا الأجانب الذين تعاونوا مع الهكسوس، ومن ضمنهم العبريون «فقام على مصر ملك جديد لا يعرف يوسف» (خروج ١/٨)؛ فراح يضطهد هؤلاء الآسيويين الأجانب، ويفرض عليهم السخرة والضرائب، ويمعن في قتلهم حتى قرروا ترك البلاد بزعامة موسى.

هذا ما تقصُّه التوراة، بينما يرى باحثون علمانيون في مقدمتهم الطبيب والعالم النفساني زيجموند فرويد اليهودي أن موسى كان أميراً مصرياً، وأنه تولَّى حكم هذه المنطقة من قبل الفرعون إخناتون، أول من قال بالوحدانية في العالم القديم، وأنه بعد موته أراد موسى أن يخرج بكل الغرباء والأجانب الذين لا يملكون شيئاً في مصر، وكذلك بكل المصريين الذين انضموا إليه، وهدفه أن يجند في فلسطين جيشاً، وأن يعاود الهجوم على مصر لنشر الوحدانية من جديد بعد أن كانت قد انهارت مع موت إخناتون. ويرى هذا الباحث أن السبعين رجلاً الذين اختارهم موسى للسيطرة على هذه الجموع المغادرة لمصر وحكمها وتنظيمها في أثناء هجرتها، سياسياً وعسكرياً واجتماعياً، كانوا أيضاً من أعيان

المصريين. كل ذلك سببه أن موسى والخروج وغرق فرعون لم ترد به الأخبار ولا الآثار فيما عدا كتاب اليهود المقدس، في كل عصور التاريخ القديم[1].

على كل حال فإن موسى قد حدَّد للجموع الخارجة معه فلسطين كهدف يجب الوصول إليه لضمان أمنهم وسلامتهم. وتمت الرحلة عبر سيناء على مراحل، أولها قادش ومنها إلى أرض مؤاب في شرق الأردن على طول الساحل الشرقي للبحر الميت حتى جبل (نبو)، وتقول التوراة: إن موسى كان يرى أرض الميعاد من فوق هذا الجبل، ولكنه لم يدخلها، إذ أدركه الموت هناك.

هذا العمل السياسي الضخم الذي بدأه موسى لا يكاد يذكر إلى جانب دعوته الدينية والتغير الاجتماعي الذي سببته هذه الدعوة بين العبريين. فمن الناحية الدينية حمل إلى بني إسرائيل ــ وكان هذا اسماً للعبريين منذ أيام يعقوب، لأنه كُنْيَة ليعقوب نفسه معناها (قوة الله) ــ مجموعة من التعاليم تتضافر فيها العقيدة والعبادة والشريعة وقوانين السلوك حول إله واحد أحد، حَوَّله اليهود مع الزمن إلى إله وطني لهم وحدهم، وجعلوا أنفسهم بناء على هذا (شعب الله المختار). هذا الكتاب، التوراة، وما تكدس عليها مِنْ بعدُ مِنْ نصوص أخرى، انتهت بأن تصير تراثاً أدبياً ودينياً وقومياً ترفرف عليه روح موسى التي خلقها اليهود على صورتهم، ويهيمن على ذلك كله إله وطني بينه وبين الشعب حلف أبدي، يعاقبهم أحياناً إذا كفروا أو أخطأوا، ولكنه لا يتخلى عنهم أبداً، هكذا اعتقادهم.

أما من الناحية الاجتماعية، فإن موسى قد أنشأ من الأسباط الاثني عشر اتحاداً فيدرالياً، منذ أول خطوة من رحلة الخروج، محدداً مكان كل سبط ومهمته

---

(١) ما يراه الباحث فرويد ليس له سند من التاريخ مطلقاً، ولا يملك أي دليل على صحته. والحق أن موسى عليه السلام من بني إسرائيل وأنه قد طلب صراحة من فرعون أن يخرج ببني إسرائيل من مصر كما نصّ على ذلك القرآن الكريم (الناشر).

ومسؤوليته في المجموعة. وهذه الأسباط هي: رأوبين، شمعون، جاد، يهوذا، يساكر، زبولون، إفرايم، منسا، بنيامين، دان، آشر، نفتالي. ويضاف إلى هذه الأسباط الاثني عشر سبط لاوي، وهم عشيرة موسى وهارون، وكانت لهم الزعامة الدينية والاجتماعية على سائر الأسباط. وكان لهذا المجتمع مجلس تشريعي، يقابل ما يسمى أحياناً مجلس الشيوخ، ويتكون من السبعين رجلاً الذين اختارهم موسى؛ وكان هو نفسه رئيس هذا المجلس. وهذا التنظيم ما يزال إلى الآن يحاكى في المجتمعات اليهودية، ويوكل إليه، كما كان قديماً، أمر تطبيق الشريعة الموسوية وتنفيذها وتفسيرها والإفتاء بمقتضاها في الحالات المشكلة.

والظاهر أن موسى بعد أن مات لم يحتفظ بنو إسرائيل مِنْ ذكراه بشيء، أضاعوا الرجل وأضاعوا توراته، ومرت أجيال وأجيال لا يذكره منهم أحد، ففي الإصحاح الأخير من توراة موسى كلها، تقص الرواية قصة موته وكأنها حدث أسطوري قديم جداً لا يكاد يذكره إنسان، يقول: فصعد موسى إلى جبل نبو من فيافي مؤاب، إلى رأس الربوة المواجه لأريحا، فأراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان، وجميع نفتالي، وأرض إفرايم، ومنسا، وجميع أرض يهوذا إلى البحر الغربي، والجنوب، والمرج بقعة أريحا، مدينة النخل، إلى صوعر. وقال له الرب هذه هي الأرض التي أقسمت لإبراهيم وإسحق ويعقوب قائلاً: لِنَسْلكم أعطيها، قد أريتكها بعينيك، ولكنك إلى هنا لا تعبر. فمات هناك موسى عبد الرب في أرض مؤاب، بأمر الرب. ودفنه في الوادي، في أرض مؤاب، تجاه بيت فعور، ولم يعرف أحد قبره إلى يومنا هذا[1].

أما ضياع توراة موسى معه فإنه يبدو واضحاً في سفر الملوك الثاني، في القصة التي تروي العثور على هذه التوراة، بمحض الصدفة، في عهد الملك

---

(١) التثنية، ٣٤/١ ـــ ٦.

يــوشيــا بن آمــون بن منســا، من ملوك اليـهـود في أورشليـم (٦٤١ ــ ٦١١ ق. م.)، أي بعد وفاة موسى بأكثر من سبعمائة سنة. فذات مرة، وكان يوشيـا في الثامنة عشرة من سني ملكه، أرسـل أحد مـوظفي القصر، واسمه شـافان بن أصليـا بن مُشلَّـم إلى معبد أورشليم لمقـابلة كاهن الهيكـل، وكان اسمـه حلقيـا، ليحسب معه النقود التي وصلت إلى الهيكل من جمهور الزوار، حتى تصرف عـلى ترميم الهيكل. (فقال حلقيا الكاهن الأعظـم لشافان الكـاتب: قد وجـدت سفر التوراة في بيت الرب. ودفـع حلقيا الكاهن السفر إلى شافان فقرأه. فأتى شافـان الكاتب إلى الملك وردّ على الملك جواباً، وقال: قد أفرغ عبيدك الفضة الموجـودة في البيت، ودفعوها إلى أيدي القائمين بالعمل الموكلين ببيت الرب. وأخبر شافان الكاتب الملك وقال: قد دفـع إليّ حلقيا الكاهن سفراً، وقرأه شافان أمام الملك. فلما سمـع الملك كـلام سفر التـوراة مَزَّق ثيـابـه، وأمـر الملك حلقيـا الكـاهن، وأحيقـام بن شافـان، وعكبور بن ميكـا، وشافـان الكاتب، وعسـايا عبـد الملك وقـال: اذهبوا فـاسألـوا الرب لي وللشعب، ولجميـع يهـوذا من جهة كـلام هذا السفر الذي وجد، لأنه عظيم غضب الرب الذي اشتعل علينـا لأجل أن آبـاءنا لم يسمعوا لكلام هذا السفر لِيعملوا بكل ما كتب علينا)[١].

ويؤكد شعورَنا هذا بنسيان موسى والتوراة بين بني إسرائيل قروناً طويلة أنه يندر ذكرهما في كتب الأنبياء إلى عهد يوشيا هذا، بل يؤكده قول النبـي إشعيا في المرة الوحيدة التي ذكر فيها موسى (٦٣/١١، ١٢)، «ثم ذكر الأيام القديمة، أيام موسى وشعبه، أين الذي أصعدهم من البحر مع راعي غنمه؟ أين الذي جعـل في داخله روحـه القدوس، الـذي سَيَّر عن يمـين مـوسى ذراع عـزه، وفلق الميـاه أمامهم ليجعل له اسماً أبدياً». نعم، لقد أصبـح موسى وجهاً أسطورياً منذ أيـام سليمان إلى قرب انتهاء دولة اليهود في فلسطين، فالمرة الوحيدة التي يذكر اسمـه أيضاً فيها عـلى لسان النبـي إرميـا هي (١/١٥): «وقال لي الـرب لو أن مـوسى

---

(١) الملوك الثاني، ٢٢/٨ ــ ١٣.

وصمويل وقفا أمامي لما توجهت نفسي إلى هذا الشعب، فاطرحهم عن وجهي، وليخرجوا».

كل هذا يقوم دليلاً من الناحية اللغوية، إلى جانب دلالته التاريخية، على أن التوراة التي رويت ابتداء من القرن السادس قبل الميلاد كانت بلا شك بلغةٍ عبرية متطورة، غير التي كان يتكلم بها موسى، مع التسليم بأنه كان يتكلم العبرية.

عل كلٍّ حال هذا التاريخ الفولكلوري يقصّ علينا أنه بعد وفاة موسى تولّى خادمه وقائده الزعامة في بني إسرائيل، وهو يوشع بن نون. وكان عليه أن يدخل ببني إسرائيل إلى الضفة الغربية من الأردن، إلى أرض كنعان. فبدأ بمهاجمة مدينة أريحا واحتلالها، واستمر في حروبه مع الكنعانيين حتى سقطت في يده إحدى وثلاثون إمارة لهم. ثم شرع على أثر ذلك في توزيع بني إسرائيل على الأرض المحتلة وهو توزيع استمر مائعاً غامض الحدود إلى عهد المملكة اليهودية، بعد ذلك بنحو قرنين ونصف من الزمان. وكانت عشيرة اللاويين من آل موسى وهارون لا تقيم في مكان محدد، وإنما تقوم بالكهانة في أقاليم الأسباط الاثني عشر، وكانت لهم ثمان وأربعون قرية خاصة بهم موزعة في كل تلك الأقاليم.

وما كاد يوشع بن نون يموت حتى سادت الفوضى في بني إسرائيل وارتدّ كثير منهم إلى وثنية الكنعانيين وعبادة الأصنام وفي مقدمتها بعل وعشتروت. فتنبه لذلك عدد من الزعماء المحليين لبني إسرائيل، كانوا جميعاً من المحاربين الأشداء، فأخذوا يقاتلون دفاعاً عن الكيان المهدد، وهم الذين يسمون (القضاة) في التاريخ الإسرائيلي. اشتهر منهم عُثنيئيل، وباراق بن أبي نُوعم، وجِدْعون، ويفتاح، وشمشون الجبار. تعاقبوا ضمن عشرة من أولئك الحكام والقواد المناضلين واستغرق كفاحهم أكثر من قرنين ونصف من الزمان، في سبيل تحطيم المقاومة التي أبداها شعب فلسطين الأصلي ضد التسلل الإسرائيلي إلى بلادهم.

كان العبريون بهذاالشكل قد تهيأوا لوحدة وطنية يحكمهم فيها ملك مطاع من جميع قبائلهم وعشائرهم. وكان صاحب فكرة الوحدة هذه هو صموئيل التِشْبي، من سبط بنيامين، ويعرف باسم النبي صموئيل. ولقب النبوة هذا عند اليهود كان أقل خطراً مما يدل عليه في أذهان المسيحيين أو المسلمين. فقد سبق أن قلنا: إن اللاويين، عشيرة موسى الأقربين، كانوا (يحتكرون) الزعامة الروحية ويتوارثونها في إسرائيل، فلا يكون كاهن إلا منهم ومِنْ نسلهم. وكان يحدث، حسب سنة الطبيعة، أن ينبغ، من غير عشيرة اللاويين، رجل يمارس سلطة روحية وزعامة اجتماعية بين العبريين. وكان العرف يمنعه أن يكون كاهناً، فكان يسمى (عرافاً)، أو (شيخاً)، أو (رائياً)؛ وأخيراً اجتمعت كل هذه المواهب فيمن كان يسمى نبياً، وكان صموئيل أول من حمل هذا اللقب من الرجال في إسرائيل، كما كانت دبورة أول من حمله من نسائهم.

وكان هذا اللقب معروفاً قبل العبريين عند الكنعانيين والآراميين والبابليين الآشوريين؛ ولعل بني إسرائيل أخذوه أول الأمر عن بعض أولئك الأقوام. قام صموئيل بالدعوة إلى الوحدة الوطنية وكان ذلك في أخريات القرن الحادي عشر أو أوائل العاشر قبل الميلاد.

وكانت مصر في ذاك الوقت تجتاز فترة تأخر واضمحلال، أما آشور فكانت بعدُ في شغل شاغل بتأمين حدودها وتوطيد دولتها في العراق، ولم تكن بدأت عصرَ الغزاة ذوي الفتوحات البعيدة المدى. وأما فلسطين نفسها فكان سكانها الأصليون، الفلشتيون من القوة بحيث يستطيعون الصمود فقط، وبشرط أن يظل أعداؤهم الإسرائيليون منقسمين إلى أسباط.

أدرك صموئيل هذه الظروف المؤاتية فاغتنمها، ومع ذلك فقد كانت أمامه عقبة ضخمة قائمة في داخل الشعب الإسرائيلي نفسه، وهي أنه كان، من الناحية الحضارية، قد وصل إلى أن وُجدت فيه شعبتان مختلفتان تماماً، إحداهما في شمال فلسطين اختلطت بشعوب كثيرة، وكثر فيها الزواج الأجنبي، وعاشت

حياة مستقرة متحضرة فيها ترف وغنى وبُعْد عن التقاليد البدوية القديمة، والشعبة الأخرى في جنوب فلسطين، في صحراء النقب، وكانت تسكن منطقة فقيرة منعزلة لم تتعرض فيها للامتزاج ولا لتيارات المدنية. هاتان الشعبتان بما بينهما من تفاوت في نوع الحياة ظلتا على غير وفاق ولا تفاهم حتى في أيام الملكية، وكان لهذا أثره في سرعة انهيار الوجود اليهودي في فلسطين.

نجح صمويل النبي في أن يجمع مجلساً من ممثلي أسباط الشمال والجنوب جميعاً، وأن يقنعهم بضرورة تتويج ملك على كل الشعب، ورشح لهم شاءول، ملكاً على كل بني إسرائيل، فبايعوه. وكان شاءول من الشعبة الجنوبية، فيه بقية من البداوة، وصفات عسكرية لا يستهان بها. وقد عاونه في ملكه صمويل، كما استعان بابنه يوناتان، وبرجل عبقري من أهل الجنوب، من سبط يهوذا، يجيد فنون القتال كما يتقن الشعر والموسيقى هو داود. بدأ شاءول سلسلة من الحروب ضد أعداء إسرائيل، وفي مقدمتهم الفِلِشْتِيين. وكان هذا الملك غريب الأطوار، تصيبه نوبات من الكآبة واليأس. وقد انهزم أمام الفِلِشْتِيين في وقعة دارت رحاها على جبل (جِلْبُوَع) وجرح أثناء القتال، فاستولى عليه اليأس وانتحر(١)، وسيطر الأعداء على كل المنطقة الوسطى من فلسطين.

بعد موت شاءول كان على قائده داود أن يعيد الموقف إلى صالح إسرائيل. ولكن أهل الشمال رفضوا مبايعته، وأقاموا عليهم ابناً لشاءول، اسمه «إشبُوشِتْ»، بينما بايع الجنوب داود. أخذ داود في محاولة فرض سلطاته على الشمال، وأعلن الحرب على إشبُوشِتْ، واستمر القتال بينهما مدة سبع سنين ونصف، وانتهى باغتيال إشبُوشِتْ. وهكذا جاء ممثلو بني إسرائيل من الشيوخ

(١) هذا كلام التوراة التي كتبها اليهود بأيديهم، ثم نسبوها إلىٰ الله، أما كلام القرآن الكريم عن هذا الملك الذي يسميه (طالوت) فإنه يمدحه ويثني عليه خيراً ويقول عنه: ﴿وزاده بسطة في العلم والجسم﴾ (الناشر).

وقـواد الجيوش وعقـدوا مجلساً في مـدينة حبـرون (الخليـل) حـوالي سنـة ١٠٠٠ ق. م. وبايعوا داود ملكاً على كل الشعب. وبسرعة فكَّر داود في تغيير العاصمة التي كانت في الشمال، قرب مدينة نابلس، واتخاذ عاصمة في الجنوب، بـالقرب من ديار قبيلته، سبط يهوذا. فاتجه نظره إلى بلد كان في يد اليبـوسيين، وهم من العشـائر الفلسـطينية الأصيلة، وكـان اسم هـذا البلد أورشليم. فهـاجمهم داود وانتزع منهم جبلاً في أورشليم، اسمه «صهيون»، بنى عليـه قلعة حصينـة وأخذ يتوسـع، ويمارس الضغط على سكان أورشليم، حتى سيطر عليها كلها.

حكم داود أكثر من ثلاثين عاماً، وكان حكمه مقترناً بانتصارات عسكريـة خلابة، كما اشتهر بين قومه بعنايته بتجميل عاصمته الجـديدة أورشليم، وتـأمين حـدود مملكته، وتـطبيقه للحكمـة والعدل، في ممـارسة سلطتـه، وشـدة تقـواه، ورجوعه إلى الشرع إذا وقعت منه مخالفة. وأشهر هذه المخـالفات هـو زواجه من «بِتْشَابَـع»، وهي امرأة جميلة كانت زوجة لقائد من قواده اسمه «أوريـا» ويقال: إن داود أحبها وأبعد زوجها بإرساله إلى معارك حربية على حدود مملكته البعيدة، وأنه عاشرها ضـد أحكام الشـرع، وأنجب منها ابنـاً في الحرام، فمـات، ومات زوجهـا في الحرب، وفي نفس الـوقت كان نبـي يهـودي معـاصر لـداود، اسمـه ناتان، قد حضر وأنَّبه بشدة على ذلك فتاب، واستغفر، وعقد عقداً شرعيـاً على بتشابـع[1]، وأنجب منها في ظل هذا الـزواج ابنه سليمـان. وإذا كان التـاريـخ السياسي الإسرائيلي يذكر لداود توطيد المملكة، فإن اللغة العبريـة وآدابها لتـذكر

(١) قصة داود مع زوجة «أوريا الحثي» قـائده قصـة اخترعهـا كفرة اليهـود وآذَوا نبيهم بها، لذلك لعنهم كما نص القرآن على ذلك، وهـل يُعقل أن نبيـاً أوحى الله إليه، يصـل إلى هـذا المستوى؟! هـذا وقد اغـتر بها كثيرٌ من المفسـرين فنقلوهـا، ثم نبـه بعضهم عـلى افترائها. ويرى بعض علماء المسلمين أنه قد تكون القصة على الشكل التـالي: وهي أن القائد (أوريـا) استشهد مجـاهداً، فـما كان من داود عليـه السـلام إلا أن أكرام زوجة هذا الشهيـد، وضمها إلى البيت النبـوي، براً بهـا وبزوجهـا فلما فعل ذلـك قال عنـه اليهود مـا قالـوا!! هذا وقـد فعل هـذا رسول الله محمـد عليه السـلام حينما استشهـد صاحبـه أبو سلمة فتزوج امرأته أم سلمة، براً بها وبزوجها. (الناشر).

له شاعريته الملهمة، التي تتجلى في مجموعة الأناشيد والقصائد والتسابيح التي تنسب إليه وتسمى «المزامير»[1].

وبعد موت داود[2] خلفه ابنه سليمان (٩٧٣ ــ ٩٣٦ ق. م تقريباً). وقد وصل بالمملكة اليهودية إلى قمة مجدها. كان عصره عصر سلام تقلُّ فيه الخصومات والحروب، ومع ذلك فقد كَوَّن جيشاً قوياً مجهزاً مستعداً، ويبدو أنه كان يعتبر ذلك مكملاً ضرورياً لأبهة الملك، وأمراً لا بد منه للمحافظة على السلام. وقد اشتهر من هذا الجيش فرسانه وعرباته بالنظام والفخامة[3].

كان سليمان يدرك أنَّ مملكته الصغيرة لن تعيش إلّا بالتفاهم مع جيرانها والقوى العظمى المتحكمة في مصير العالم إذ ذاك. وكان يدرك أيضاً أن أحسن دخل لهذه المملكة يأتي عن طريق التجارة، فدخل في شركة مع حيرام ملك صور، بحيث كان له الثلث في الأسطول التجاري. وقد ساعده حيرام في بناء الهيكل في أورشليم، فأمدَّه بالمهندسين والصناع والأخشاب والمعادن. وهذه الشركة مع الأسطول الفينيقي في صور سببها أن الساحل الفلسطيني بكل موانيه كان في أيدي الفلسطينيين.

أما صداقته لجيرانه فقد قضت عليه أن يتزوج من بناتهم جميعاً، بما في ذلك بنت فرعون. وكان قصره الفخم في أورشليم أعجوبة في أعين الأمم الصغيرة المجاورة له مثل الكنعانيين والآراميين والأدوميين. بل إن ملكة سبأ

---

(١) يظهر أن «المزامير» قد أصبحت، بفضل داود، أسلوباً خاصاً في فن الشعر، كان له فيه أتباع وتلاميذ، ولذلك فإن شعر المزامير الذي جرت العادة على نسبته إلى داود يحتوي على مزامير كثيرة منسوبة إلى غيره أو مجهولة النسبة، ومع ذلك فقد تعودنا تسمية كل ذلك «مزامير داود» لأنه كان رائداً في هذا الفن.

(٢) مراجع تاريخ داود ــ غير العهد القديم ــ كثيرة، ومن أكثرها إحاطة:

B. Baentsch; David, Roi d'Israel; Payot, Paris 1935.

(٣) من المراجع الجامعة لتاريخ سليمان:

G. R. Tabouis, Salomon, Roi d'Israel; Poyet, Paris 1943.

عندما حضرت من اليمن لزيارته قالت له: لقد كان ما سمعته في أرضي عن شؤونك وعن حكمتك صحيحاً ولكنني لم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عيناي فإذا هي نصف الحقيقة[1]. كل هذا الترف اضطر سليمان إلى زيادة الضرائب على الشعب، وابتكار وسائل للسخرة، مما أدى إلى موجة من عدم الرضا ظهرت بسرعة بعد موته.

فما كاد ابنه «رحبعام» يخلفه على العرش حتى ثارت عليه أسباط الشمال، ولم تبايعه إلاّ قبيلتا يهوذا وبنيامين في الجنوب. أما القبائل العشر الشمالية فكانت قد سئمت هذا المُلك الباهظ التكاليف، وأقامت ملكاً عليها هو «يربُعام بن نباط» من سبط إفرايم، ومنذ ذلك الوقت أصبح ثمة دولتان: إسرائيل في الشمال، ويهوذا، أو اليهودية، في الجنوب.

إلى جانب هذا الانقسام نشأ نزاع بين المملكتين أسرع بانهيارهما، فمن ذلك حرب أبيا ملك يهوذا لإسرائيل وكان عليها الملك يربعام، وحرب آسا ملك يهوذا ضد بعشا ملك إسرائيل... إلخ.

وفي داخل كلتا المملكتين استقرت الفتنة، واستمرت المؤامرات، وأعمال الاغتيال والإرهاب لأسباب شخصية، مثل قتل الملك إيلَه بيد تابعه زِمري، ثم قتل زمري بيد عُمري[2]، كما كثرت المشاحنات والمعارك الدينية بين المتزمتين والمنحلين الذين سمحوا بطقوس وثنية من ديانات الكنعانيين التي عبدوا فيها بعل وعشتروت. وتفشى الفساد الخلقي بين الجميع.

وقد جاءت الغزوات من الخارج متكررة متلاحقة تضعضع من كيان هذه الدولة، فالآراميون من دمشق، والعمونيون، والمؤابيون، والعرب، والأدوميون، والفلشتيون، كل هؤلاء ضيقوا الخناق على إسرائيل ويهوذا، ثم بدأت القوات الأجنبية الكبرى تأخذ دورها في هذا الصراع. وقد بدأ ذلك بمهاجمة فرعون مصر

(١) سفر الملوك الأول، الإصحاح العاشر، الآية ٦ ـ ٧.

(٢) من ملوك المملكة الشمالية، إسرائيل، سفر الملوك الأول، ١٦/٨ ـ ٢٨.

(شيشنق) للقدس ونهبها، ويظن أن ذلك كان أثناء حكم سليمان نفسه[1]. كما يهاجم الفرعون نخاو الثاني مملكة يهوذا في أواخر القرن السادس قبل الميلاد، في عهد يوشيا، ثم في عهد يوآحاز حيث أسقطه عن عرشه وولى مكانه يوياكين.

ويسير تغلات فالصر الآشوري مهاجماً مملكة إسرائيل التي كان يجلس على عرشها مناحم (٧٤٧ ــ ٧٣٨). وبعد ذلك يحاصر سلمانصر الخامس السامرة، ثم يأتي خلَفُه سرجون الثاني فيتم تدمير مملكة إسرائيل سنة ٧٢٢.

أما مملكة يهوذا فإنها بسقوط إسرائيل في الشمال تصبح مكشوفة للهجوم الآشوري، فيهاجمها سنخاريب، ويأتي بختنصر فيكمل دمارها سنة ٥٨٦ واضعاً بذلك نهاية للوجود السياسي في فلسطين في التاريخ القديم.

فإذا ما عدنا إلى العهد القديم، وهو الكتاب المقدس العبري الموجود بين أيدي اليهود، والذي يسمونه في روايته وكتابته الحالية (المسورت)، أي النص الشرعي، وجدنا أن أهم سؤال يواجهنا هو: متى عرف العبريون الكتابة؟ فإن ذلك ضروري لإدراك أقصى تاريخ يرتفع إليه تسجيل هذه النصوص. يقول المستشرق الفرنسي إرنست رينان[2]: إنه يبدو، من كل القصص الخاصة بإبراهيم وإسحق ويعقوب، أن العبريين إذ ذاك كانوا أميين تماماً؛ بدليل أنهم كانوا إذا أرادوا أن يخلدوا ذكرى حادث، أو أن يعقدوا حلفاً، أو أن يميزوا قبراً لميت من عظمائهم،

---

(١) كان قائد سليمان يربعام بن نباط الذي تولى بعد ذلك حكم الشمال على أثر موت سليمان، وقد قاد حركة تمرد في حياة سليمان نفسه، ولكن سليمان حاربه واضطره إلى الهرب، حيث لجأ إلى مصر في عهد الفرعون شيشنق الليبي الذي كانت أسرته تحكم في بوبسطس. ارجع في ذلك:

Louis Delaporte, Les Peuples de l'Orient Mediterranéen, I-Le Proche-Orient Asiatique, Paris 1938, p. 228.

وإن كان هذا المؤلف يرى أن هجوم شيشنق على أورشليم (القدس) كان بعد موت سليمان، ص ٢٣٠.

(٢) E. Renan; Op. Cit., P. 106 ss.

عمدوا إلى إقامة حجر، أو ذبح ذبائح وقرابين، أو اختيار كهف طبيعي معروف، أو شجرة مقدسة، أو نبع ماء، للقيام بذلك. ولم يرد قط ذكر لنصوص أو صحف مكتوبة. أما على عهد موسى نفسه فكل شيء في التوراة يدل على وجود صحف مكتوبة لدى العبريين. وربما كانت هذه الصحف نقشاً على الحجر، وفي تلك الحالة لا يستبعد أن تكون في الأصل معتمدة على الكتابة التصويرية الهيروغليفية أو الكتابة المقطعية المسمارية. ونلاحظ أنه قد وردت في توراة موسى (عدد ٢١/١٥) آية فَهِمَ منها الباحثون أنه كانت هناك صحف مكتوبة يقرؤها بنو إسرائيل، إذ نقرأ في هذه الآية: (**لذلك يقال في كتاب حروب الرب...**). والواقع أن هذه الآية وأمثالها يرجح أنها من شروح كهنة إسرائيل القدامى التي انزلقت إلى داخل النص المقدس. فنحن نعلم أن هذا النص في صورته الحالية (المسورت) يرجع إلى عدة منابع في الرواية حسب الأبحاث التي بدأها المستشرقون الألمان في القرن الماضي، وفي مقدمتهم (إيفالد)، و (لنجيركه) و (توخ) و (فلهاوزن). وأوضح هذه المنابع، مدرسة من الرواة كان رب إسرائيل يسمى عندها (يهوه)، ومدرسة أخرى كان هذا الرب يسمى عندها (إلوهيم)، ثم منبع ثالث يسمونه (تعليقات الكهنة)، وهي عبارة عن جمل تفسيرية دخلت في سياق النص المقدس عند جمعه في القرن الثامن قبل الميلاد أو حتى بعد ذلك. يضاف إلى هذه المنابع رابع يسمى عندهم (رواية التثنية)، وهو خاص بالشرائع والقوانين المتضمنة في توراة موسى وبخاصة في السفر الخامس والأخير منها المسمى (التثنية) أو (تثنية الاشتراع).

إلى جانب توراة موسى يحتوي العهد القديم على كتب الأنبياء وهي مقسمة إلى قسمين، أولهما يبدأ بعد وفاة موسى مباشرة بيوشع بن نون، ويستمر مع حقبة القضاة، ثم النبي صموئيل وقيام المملكة، وينتهي بحصار بختنصر للقدس، ونقله لليهود في السبي إلى بابل. وهذا القسم من أسفار الأنبياء يسمى بالأنبياء الأُول. أما الأنبياء الأُخَر فإنهم أولئك الذين عاصروا السبي واستمروا إلى وقت العودة إلى فلسطين تحت نفوذ الفرس.

وهناك القسم الأخير من العهد القديم، وهو مايسمى (الكتب) أو (كتب الحكمة)، وهي مجموعة نصوص أدبية ودينية وتاريخية، رائعة بدون شك، ولكن نسبتها للأنبياء أو الملوك التي تنتمي إليهم جاءت عن طريق تقليد شعبي لا يدعمه سند متصل. كما أنها تختلف في الزمان والمكان الذي ظهرت فيه.

وإزاء هذا التراث الذي يغطي فترة من الزمان تزيد على ألف سنة، يبدو غريباً جداً أن تظل اللغة هي هي، بلا تطور. وانطلاقاً من هذه الفكرة بدأ العلماء المحدثون يبحثون في داخل النصوص عن القديم منها والجديد لغوياً، وخرجوا من ذلك بأن اللغة العبرية التي حفظها العهد القديم تتضمن ثلاثة أدوار:

١ ــ دور عتيق جداً، سابق على جمع هذا الكتاب.

٢ ــ دور فصيح وصلت فيه اللغة العبرية إلى قمة ازدهارها، وهذا الدور لا شك أنه كان أبهى ما يكون في عهد سليمان، وربما في عهد أبيه داود أيضاً، ففيه استقرت صيغ الصرف في اللغة العبرية، وتقاربت لهجات الأسباط بعد الوحدة تحت تاج واحد، وبعد ربط اليهود لأول مرة في التاريخ بالحضارة الفينيقية والمصرية والبابلية الآشورية واليمنية في آن واحد.

٣ ــ بعد ذلك يأتي عصر تتأثر فيه هذه اللغة بالتيار الآرامي والكلداني، وهو عصر الانحطاط، والحقيقة أن تيار الآرامية والكلدانية كان حياً وفعالاً عند سكان الشمال لكثرة اختلاطهم، حتى منذ أيام القضاة والملوك.

وقبل أن تموت اللغة العبرية على ألسنة اليهود، وتصبح لغةً دينيةً فقط، على أثر السبي البابلي، كانت الآرامية قد احتلت مكانها في تفكيرهم اللغوي، فكتب بها جانب كبير من سفر النبي دانيال، وأجزاء من سفر عزرا، وإستير، وظهر أثرها قوياً في عبرية أسفار أخر؛ مثل سفر نحميا، ويونس، وحجاي، وزكريا، وملاكي، وأخبار الأيام، وقوهيلت (سفر الجامعة).

وقد حاول الأمراء المكابيون الذين تولوا الزعامة الدينية على يهود فلسطين منذ فتح اليونان لهذه البلاد،على يد الاسكندر الأكبر، إنهاض اللغة العبرية من جديد، وكان ذلك منهم تتمة لعمل سياسي هدفوا به إلى تأكيد استقلال ذاتي داخلي لليهود في فلسطين، في ظل الدولة الحاكمة. ولكن يبدو أن نجاحهم في إعادة اللغة العبرية لغةً شعبيةً لليهود كان محدوداً جداً، ذلك أن الكلمات الآرامية والكلدانية كانت قد اجتاحت هذه اللغة كما اجتاحتها صيغ صرفية آرامية بحتة، وبعض مؤثرات نحوية خاصة بتركيب الجملة نفسها.

كل ذلك قصر اللغة العبرية في النهاية على المجامع العلمية والدينية، وكانت منذ القرن الثالث قبل الميلاد قد أصبحت لهجةً مغايرةً في روحها وجرسها وتركيبها للغة العهد القديم. بهذه اللهجة كُتبت المِشْنا، وهي مجموعة الشرائع الشفوية التي تناقلها أحبار اليهود إلى ذاك الوقت. وهي تقع في ستة أجزاء، وتختلف عبريتها كما قلنا، لدرجة أن عدداً كبيراً من العلماء اختصوها بنحو خاص بها، كما لاحظوا ألفاظاً جديدةً كثيرةً غير معروفة فيالكتابالمقدس، بعضها مولد من أصول موجودة في العهد القديم، مثل كلمة «كتاب» بنطقها ومعناها العربي، وهي غير مستعملة في عبرية الكتاب المقدس، ويستعمل بدلاً منها كلمة «سِفر»، بينما الفعل كَتَبَ بلفظه هذا مستعمل في العهد القديم. وهناك فعل قديم هو الفعل «دَرَشْ» بمعنى بَحَثَ، وقد اشتقت منه عبرية المِشنا كلمة «مِدْرَاش»، بمعنى التفسير للنصوص الشرعية، لأنه بحث عن معناها. وفي العبرية القديمة تستعمل كلمة «شِير» بمعنى الشعر الذي ينشد أو يتغنى به، وكذلك الفعل «شار» بمعنى أنشد أو غنَّى أو قال شعراً، وقد أخذت منها لغة المِشنا كلمة «مِشورِرْ» بمعنى مغنٍ وشاعر. كما نجد تعبيرات مثل «إلـه السموات» بدلاً من التعبير القديم «رب الجنود»، وكذلك «تزوج امرأة» بدل قولهم قديماً «أخذ امرأةً». ووُجدت في لغة المِشْنا أيضاً ألفاظ دخيلة من اليونانية والفارسية واللاتينية والعربية، هذا فضلاً عن كثير من ألفاظ بابلية، أو من جزر شرق البحر الأبيض المتوسط.

ولم يعدم عصر المكابيين حركات دينية أساسها الرجوع إلى القديم وتطهير اللغة العبرية من هذه الظواهر المتطورة، التي تخدش فصاحتها في نظر القائمين بهذه الحركات، وفي مقدمتهم الفرقة الخارجة على اليهودية الرسمية، التي عثر على وثائقها المخطوطة، من القرن الأول قبل الميلاد، في منطقة «خِربة قُمْران» قرب قرية «عين فشخة»، في منطقة أريحا المجاورة للبحر الميت. هذه النصوص بدأ العثور عليها سنة ١٩٤٧، ويظن أن بعضها ما يزال تتداوله أيدٍ خفية تظهره من حين لآخر للتجارة به، وتسمى لدى الباحثين المعاصرين بمخطوطات البحر الميت.

ومعظمها مكتوب بلغة عبرية حاولوا تنقيتها من الشوائب بحيث تحاكي أسلوب الأنبياء الأول، واختاروا لها الخط العبري المربع الذي تكتب به التوراة نفسها، ونخص بالذكر من ذلك تفسيراً على سفر النبي حبقوق، على الطريقة الرمزية التي يستعمل فيها النص المنسوب لهذا النبي لوضع مسائل سياسية، تهم الطائفة وتزعج الحكومة، في ثنايا التفسير. ومن نصوص البحر الميت هذه كتاب صوفي عسكري في آن واحدٍ اسمه حرب أبناء النور وأبناء الظلام: وهي حرب يفنى فيها أبناء الظلام، وينتصر فيها أبناء النور انتصاراً أبدياً. وأبناء الظلام أولئك هم كل البشر ما عدا أعضاء هذه الجماعة. ويظن الباحثون أنها فرع من طائفة اليهود الأطباء (الاسينيين)، وهو أمر يحتاج إلى مزيدٍ من الأدلة، لا سيما أن بعضهم قد ربط بين هذه الجماعة وبين السيد المسيح عليه السلام(١)، والفرق كبير بين الإثنين، فهذه طائفةٍ يهودية متعصبة شديدة التعصب، ممعنة في المحافظة على القديم لدرجة الرجعية، حتى في اللغة؛ بينما

---

(١) في مقدمة أصحاب هذا الرأي أستاذنا ديبون سومير A. dupont — sommer ومن أهم كتبه في ذلك:

1 — Observations sur le commentaire d'Habacuc découvert près de la Mer Morte.

2 — Les manuscrits de la Mer Morte (aperçus préliminares sur..).

3 — Les Manuscrits de la Mer Morte (nouveaux aperçus sur).

الأول والثاني طبع باريس سنة ١٩٥٠ والثالث ١٩٥٣.

كان السيد المسيح يبلغ الوحي بالآرامية، ويأمر الحواريين بمخاطبة البشر كل بما يفهمه، ولا يستعمل العبرية إلاّ إذا ناقشه الكتبة والفريزيون بهذه اللغة. ومع ذلك فالقضية ما يزال فيها نظر.

انتهى أمر اللغة العبرية كلغةٍ حيةٍ بين اليهود، وحلت الآرامية محلها، وكرس هذا التحول اللغوي التلمود، ذلك المستودع الهائل لتراث، وتعاليم، وشرائع، وأساطير، وأمثال، ومواعظ ومعلوماتٍ عمليةٍ، تناقلها الخلف عن السلف، وأخذوا بعضها من أمم أخرى، وادعوها لأنفسهم.

وانحصر أمر العبرية في معابد اليهود، يصلُّون بها ويتعلمونها أحياناً في المدارس الملحقة بهذه المعابد؛ علناً إذا سمحت لهم السلطات بذلك، وسراً في كثير من الأحيان، إذا كانوا يعيشون بين مضطهِدين كارهين.

وكانت أقوى مراحل العلنية في الاتصال باللغة العبرية مع ظهور الإسلام، وفي ظل الدولة العربية، حيث عومل اليهود في أغلب الأوقات على أنهم أهل كتاب يعيشون في ذمة المسلمين، فتركت لهم الحرية الكاملة في الدين والثقافة، وهكذا قامت نهضة لغوية وأدبية على يد يهود العالم العربي في العصور الوسطى اهتموا فيها لأول مرة بتعميق دراسة النحو في هذه اللغة على طريقة النحاة العرب.

فمن هؤلاء العلماء سعديا سعيد بن يوسف الفيومي المتوفى سنة ٩٤٥م. تلقى دراسته الأولى في الشريعة اليهودية واللغة العبرية في مصر، ثم رحل إلى فلسطين ولازم فيها عالماً تلمودياً هو أبو كثير يحيى بن زكريا الطبري، ثم استقر في بغداد حيث درس النحو العربي واتصل بالحركة اللغوية الهائلة في هذه المدينة على أيام العباسيين، كما درس المذاهب الإسلامية، وأعجبه منها مذهب المعتزلة، فأراد إدخاله في الديانة اليهودية، وكتب في ذلك باللغة العربية كتابه المشهور (الأمانات والاعتقادات)، وعلى أثره اختاره قصر الخلافة العباسية ليكون حاخاماً أكبر، وزعيماً للأكاديمية اليهودية في بلدة سورة القريبة من بغداد. ولكن بعض

أعدائه من اليهـود أشاعـوا بين إخـوانهم في الدين أن سعـديا كـافر، وأنـه يريـد تشويه العقائد اليهـودية بـإدخال الفكـر الإسلامي فيهـا، فهاجم غـوغاء اليهـود مقره، وطلبوا تنحيته، فترك كل مناصبه قرابة اثنتي عشرة سنـة خصصها لتـرجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية وتفسيره بمـا يطابق مـذهبه. كـما كتب في اللغة كتاباً ضخماً اسمه (كتاب اللغة) يبدو أنه وضع فيه قـواعد النحـو العبري مقتفيـاً أثر اللغويين العرب في تأليفهم في النحو العربـي. ولكن هذا الكتـاب قد ضـاع إلاّ بضع ورقات منه عثر عليهـا بالصـدفة. كـذلك كتب سعـديا بـاللغة العبـرية رسائل مختلفة أشهرها: كتاب في قـوانين الميـراث حسب الشريعـة الإسرائيليـة، ومجموعة من الأدعية والصلوات والابتهالات، ما يزال بعضها ينشد في منـاسباتـه في معابد اليهود.

ويبدو أن هذه الحـركة اللغـوية والأدبيـة في داخل المجتمـع اليهودي المقيم بين العرب، قد أغرت سعديا وغيره بقول الشعر باللغة العبريـة، بعد أن كـانت آذان اليهود قد فقدت أصول النغم الشعـري في عبريـة الكتاب المقـدّس. وكان الحـل الوحيـد أمام هؤلاء هـو أن يـأخـذوا أوزان الشعـر العـربـي التي سجلهـا الخليل بن أحمد في علم العروض، وأن يؤلفوا شعـرهم على هـذه الطريقـة. وقد ورد في أخبـار سعـديـا الفيـومي أنـــه كتب في هـذا المـــوضـوع كتـابه المسمى «كتـاب الشعر العبـراني». وله من بعـدُ كتاب هـام جداً في تـاريـخ الـدراسـات اللغوية السامية المقارنة، هـو كتاب (تفسـير السبعين لفـظة الفردة)، وهي ألفـاظ من غـريب الكتاب المقـدس ومشكله، لم تستعمل كـل لفـظة منهـا فيـه إلاّ مـرة واحـدة؛ مما جعـل من المستحيل معـرفة معنـاهـا عن طـريق تتبـع الاستعمـال، كما هو النهج في تحديـد معاني ألفـاظ اللغات الميتـة، أو الألفاظ الغـريبة في سـائر اللغات. وقد لجـأ سعديـا إلى طـريق المقـارنة اللغـوية في هـذه الألفاظ، فبحث عنها بلفظها في اللغة الآرامية،التي كان يتقنها لأنها لغةالتلمود، وفي اللغـة العـربيـة التي كان يتقنها لأنها لغته الأم. فإذا أنس إلى معنى للفظة من هذه الألفـاظ وجده في إحدى هاتين اللغتين، سجله للكلمة العبرية، وفسر الكتاب المقدس بمقتضاه.

أمَّا أسلوبه العربي عندما يكتب فكان نمطاً غريباً في بابه يستحق العناية والدرس أيضاً. إذ مع حرصه الشديد الواضح على تحري الدقة في الترجمة، والسلامة اللغوية في الأداء، كان يكاد يلتزم لغة في الجملة الفعلية بمقتضاها يتبع الفعل المتقدم فاعله المتأخر في النوع والعدد، فيقول مثلاً: رأوا بنو الأشراف بنات العامة.. (تكوين ٦/٢) ويقول: فجاءوا القوم إلى موسى.. (عدد ٢١/٧) ويقول أيضاً: ثم رحلوا بنو إسرائيل.. (عدد ٢٢/١) وفي المثنى: أذنبا ساقي ملك مصر والخباز لسيدهما ملك مصر.. (تكوين ٤٠/١)، وهي التي تسمى بين نحاة العرب (لغة أكلوني البراغيث). كذلك نلاحظ لديه جنوحاً نحو العامية في بعض الأحيان، في استعمال الضمائر مثل ترجمته (تكوين ١/١٧) أثناء الحديث عن النجوم والكواكب بقوله: وجعلهم الله في جلد السماء ليضيئوا على الأرض. وكذاك ترجمته (تكوين ٢/١) كملت السماء والأرض وكل جنودهم. ومن تأثير العامية البغدادية عليه إبقاء نون الرفع في آخر الفعل المضارع في غير حالات الرفع، كترجمته (عدد ٤/١٥): ولا يدنوا من القدس فيهلكون. وهذا الاضطراب في إعراب الفعل المضارع ظاهر في نفس هذه الآية عندما يترجم: فبعد ذلك يدخل بنوقَهَت ويحملوها... وكذلك (تثنية ٤/١٦): لئلا تفسدون فتصنعون. كذلك نجد أثر ذلك في كثرة العامي والدخيل عنده، فهو يستعمل الفعل [شال] بمعنى [حمل] (لاويين ٩/٢)، ويستعمل الفعل [أدلج] الذي معناه عند العرب [سافر ليلاً] في معنى سافر نهاراً (تكوين ٣٢/٣ وخروج ٣٢/٦)، ويجمع [رمان] على [رمامين] (خروج ٢٨/٣٣ وكذلك ٣٩/٢٤، ٢٥)، وفي أكثر من موضع حيث تكون الكلمة العبرية معناها [النُصُب] أي الحجارة المنصوبة تكريماً أو تقديساً أو تخليداً يستعمل سعديا كلمة [الدِكاك]، وهي فيما يبدو جمع «دِكَّة» التي يستعملها عامة العراق، وخاصة عند الشيعة، للنصب الخشبي الذي يقام في أيام عاشوراء لتقرأ من فوقه، أو تمثل عليه أحياناً، قصة استشهاد سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنهما. وردت هذه الكلمة عنده في (تثنية ٧/٥ وكذلك ١٢/٣).

أمّا الدخيل عنده فكثير نذكر منه كلمة «شفشج» التي يستعملها بمعنى حِزام (خروج ٥/٣٩)، «وبرهمان» لحجر كريم كالماس، والمعروف في نطقه هو «بهرمان» (خروج ١١/٣٩)، واستعمال «الجوق» بمعنى الجماعة من الناس (عدد ١٢/١٧) وقد اشتق منه الفعل «جوق» بمعنى جمع (خروج ١/٣٥) و «تجوَّق» بمعنى تجمع وتجمهر (خروج ١/٣٢)، كما استعمل الفعل «بِذْرق» بمعنى اصطحب شخصاً ليحرسه، قال: «فبدرقوا به» أي حَفُّوا به ليحرسوه (تكوين ٣٠/١٢) وهو من الفارسية «بدرقة» وهي حاشية من الحرس، وكان فصحاء العرب على عهد سعديا ينطقون هذه الكلمة بالذال بدلاً من الدال. وفي العبرية تستعمل الكلمة التي تنطق «قِرِشٍ» بمعنى اللوحة من الخشب، وأكثر ما وردت في الإصحاح السادس والعشرين من سفر الخروج، وقد جرى سعديا على أن يترجمها بكلمة «تختجه»: وأغلب الظن أن أصل هذه الكلمة هو اللفظ الفارسي «تخته» التي معناها لوحة، وربما كانت في الأصل لفظاً فارسياً عامياً على ألسنة السوقة في العراق، وكان أصله «تختكاه» وإن كان معنى هذه الكلمة في الفارسية هو «المقر الرسمي»، ولعله حدث خلط بين هذا اللفظ ولفظ «تخته» عند العوام العرب. واستعمل سعديا للَّون الأزرق السماوي كلمة [أسمانجون] في ترجمته (خروج ٤/٢٥ و٢٦/٠، ٣٠٤، ٣٦) وهذه الكلمة دخيلة من الفارسية وأصلها (آسمان) ومعناها سماء و (كون) ومعناها لون.

وإنما وقفنا هذه الوقفة لنبين ما كان من تفاعل بين اللغات التي كَرَّستها الحضارات والأديان في منطقة الشرق. وكان قد سبق سعديا الفيومي بسنين قلائل عالم يهودي آخر حاول ربط الفكر الإسرائيلي بأقوى حضارة كانت موجودةً في ذلك العهد وهي الحضارة الإسلامية، فألَّف في أصول الدين اليهودي كتاباً اسمه (عشرون مقالة). وهذا العالم هو داود بن مروان المقمَّص(١).

(١) Hassan Zaza, essai sur le vocabulaire religieux de sa'adia ga'on, Ecole Pratique des, Hautes Etudes, Paris, 1948 — introduction p, 1 — xxx.

انتقلت هذه الحركة كما قلنا إلى أقطار إفريقية والأندلس حيث نجد لغوياً مغربياً من اليهود القرائين اسمه أبو سليمان داود بن إبراهيم الفاسي، يؤلف في مصر على الأرجح معجماً كبيراً لعبرية التوراة مشروحاً بالعربية اسمه (إجرون) أو (كتاب جامع الألفاظ)[1]. ويأتي بعده من نحاة اليهود الذين ترسموا خطى العرب في دراسة اللغة في غضون القرن العاشر الميلادي يهوذا بن قريش، ومناحم بن سروق، وأبو زكريا يحيى بن داود حيوج، ودونش بن لبرط، وحسداي بن شبروط، وأخيراً ـ في النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي ـ شيخ نحاة اليهود على الإطلاق أبو الوليد مروان بن جناح القرطبي، الذي ألّف بالعبرية كتاباً في النحو اقتفى فيه أثر نحاة البصرة العرب، وسماه كتاب «اللمع»، ومعجماً عبرياً للكتاب المقدس سماه كتاب «الأصول»؛ وقد اعتبر الكتابين متكاملين، وجعلهما أداة لا غنى عنها لفهم اللغة العبرية، فأعطاهما جميعاً اسماً واحداً يجمعهما وهو كتاب «التنقيح»[2].

وانفتح بهذا باب حركة فكرية بلغة عبرية متطورة، متأثرة باللغة العربية الغنية بكل ما وجد فيها من آثار الحضارة، فظهر بين يهود الأندلس شعراء مثل يهودا اللاوي، وابن جبيرول، وأبراهام بن عزرا، وموسى بن عزرا، والحريزي، مؤلف المقامات العبرية على غرار مقامات الحريري، والرحالة بنيامين التطيلي، وفوج من الفلاسفة والمفسرين وعلماء التوراة والتلمود والمترجمين في مقدمتهم داود قمحي، وابن جقطيلة، وسليمان الإسحاقي، (رشي)، وابن تِبون الذي ترجم كثيراً من آثار الفكر العربي اليهودي المكتوب بالعربية إلى العبرية، وأخيراً

---

(١) كتاب جامع الألفاظ أو الأجرون، تأليف داود بن إبراهام الفاسي المعروف بأبي سليمان داود بن إبراهيم الفاسي. نشره في فيلادلفيا بالولايات المتحدة الأميركية: سالمون سكوس Salomon Scoss في مجلدين، الأول سنة ١٩٣٦ والثاني سنة ١٩٤٥.

(٢) Hassan Zaza, l'oeuvre grammaticale d'Ibn Djanah — Paris, thèse présentée a la Sorbonne, 1958.

موسى بن ميمون المغربي الطبيب الفيلسوف، المتوفى بالقاهرة في أيام الأيوبيين، وصاحب الكتاب المشهور في العقيدة اليهودية المسمى كتاب «دلالة الحائرين».

وما دمنا قد أشرنا إلى المقامات التي كان الحريزي رائداً لها في اللغة العبرية، والرحلات التي اشتهر بكتابتها بنيامين التطليلي، فيجدر بنا أن نذكر أن الشعراء أيضاً من أولئك اليهود لم يكتفوا بأخذ الأوزان العربية وكذلك القوافي، وإدخالها في الشعر العبري، بل طرق الأندلسيون منهم الأوزان التي اخترعها العرب في فن الموشحات، وكتبوا لأول مرة في المدح والفخر والخمريات والغزل، محاكين في ذلك كله أساتذتهم من شعراء العرب.

وبعد طرد المسلمين من الأندلس، وظهور السيادة التركية في الشرق على يد السلاجقة والمماليك، انكمشت اللغة العبرية من جديد، وعادت لغة ميتةً، لا تستعمل إلاَّ في العبادات والكتابات الدينية أو الصوفية، في شمال أوروبا وشرقها، وفي بعض أنحاء من حوض البحر الأبيض المتوسط. ولم تقم لها قائمة بعد ذلك إلاَّ بظهور النعرة العنصرية اليهودية في القرن التاسع عشر في أوروبا، مع ظهور القوميات المحلية، ثم تبلْوُر هذه النعرة في الحركة اليهودية الاستعمارية المسماة بالصهيونية، التي رسمت لها هدفاً هو احتلال فلسطين، وإقامة دولة يهودية لها جميع مقومات الدول والقوميات، وفي مقدمتها اللغة. وهنا أيضاً نجد جهازاً كاملاً من اللغويين يحاولون إمداد العبرية التي كانت جثةً هامدةً بعناصر البعث والحياة، وفي مقدمتهم اليعازر بن يهودا، ويوسف كلوزنر، وهاري تورتشينر، ويهودا جرازوفسكي، وابن شوشان، والقلعي وغيرهم. وقد اعتبر هؤلاء جميعاً اللغات السامية ملكاً مباحاً للُّغة العبرية الحديثة، فاجتمعت في معاجمهم وكتاباتهم ألفاظ عربية وسريانية وكلدانية، ودخل فيها كل ما يصلح من آرامية التلمود، وغيره من الكتابات اليهودية، كما احتوت بطبيعة الحال جميع الألفاظ العبرية التي وردت في الكتاب المقدس أو في شروحه وتفاسيره «المدراشيم»، أو كتب الشريعة الشفوية «المِشنا»، إلى كل ما ورد في عبرية اليهود

المستعربين في الشرق وإفريقيا والأندلس في العصور الوسطى. واصطنعوا إلى جانب ذلك منهجاً عملياً مرناً في توليد الألفاظ وابتكار التعابير، ووضع المصطلحات، هَيَّأَ لهم رغم حداثة عهدهم بالكيان الذاتي، وكل الأخطار العربية والإسلامية والعالمية التي تهدد هذا الكيان بحق، إمكانيات في الفكر والثقافة والعلم والأدب ما كانت لتتهيأ لهم لولا الجهد الضخم الذي بذلوه في إحياء لغتهم من الممات.

□ □ □

(٤)

الآرامِيُّون

ويكوِّنون لغوياً وحضارياً الفرع الشرقي من اللغات السامية الشمالية، أي الكتلة الواقعة غربي العراق. فبينما كان الكنعانيون والفينيقيون يسيطرون على ساحل البحر الأبيض المتوسط بموانئه، كان الآراميون إلى الخلف في سوريا وبوادي الشام يسيطرون على نوعٍ آخر من الموانىء هي محطات القوافل الواقعة على خطوط التجارة البرية القديمة. وقد ذكرنا أن إحدى عواصمهم الكبرى، وهي مدينة «حران»، كان معنى اسمها «الطرق»[1]، كما أن الموضع المسمى في التوراة «فدان آرام» معناه «طريق آرام».

وأهمية المدن الآرامية ترجع كلها تقريباً لكونها واحات ومحطات للقوافل منثورةً على طرق الصحراء المؤدية من الفرات إلى سوريا والأردن والبحر الأبيض المتوسط. أما الدور السياسي الذي لعبه الآراميون في تاريخ العالم القديم فمحدود جداً، كما أن مدة نشاطهم كأمةٍ لها كيان مستقل كانت قصيرة نسبياً، لا تتجاوز أربعة قرون أو خمسة. يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الآراميين لم يقيموا لهم في أي وقت من الأوقات مملكةً موحدةً أو إمبراطورية، شأن غيرهم من الساميين، بل عملوا منقسمين إلى قبائل وعشائر بدوية لكل منها مدينةٌ هي حكومتها وإمارتها، وكانت بعض هذه المدن تسمي نفسها ممالك، وبالرغم من هذا القدر الضئيل من الأهمية السياسية والقدر المماثل له في الضآلة من حيث الأهمية الدينية، فإن الآراميين يشدون اهتمام الباحث في التطور اللغوي والحضاري في هذه المنطقة، وسنرى تفصيل ذلك فيما يلي، كما سنرى أن تاريخهم مكمِّل ضروري لتاريخ الآشوريين والعبريين، وربما العرب أيضاً.

---

(١) هي في الآرامية جمع «حارة» أي الطريق.

هؤلاء الآراميون فيما يبدو كانوا في الصحراء السورية العربية منذ أقدم العصور، فهذه الصحراء امتدادٌ طبيعي لشبه جزيرة العرب التي هي الموطن الأصلي للساميين، ومن المحتمل أن يكونوا قد قضوا دهراً طويلاً يحومون حول المدن المقدسة العتيقة في هذا الشرق الأدنى، وخصوصاً حول العراق. ففي غضون الألف الثالث قبل الميلاد نجح الآراميون في النزول في شمال العراق، وفي إقامة حكم ذاتي لهم تحت سلطة ملك منهم، كما يشهد بذلك نقش عثر عليه بالقرب من ديار بكر، في أقصى الشرق من الأناضول بالقرب من منابع الفرات، يخلد انتصارات الملك الأكادي نارام سين (حوالي سنة ٢٥٠٠ق. م.) على الآراميين دفاعاً عن إقليم السوبارتو[١]، وهو اسم هذا الإقليم قديماً.

بين هذه الوثيقة الأولى التي يُذكر فيها الآراميون ككيان سياسي وعسكري والوثيقة التي تليها أكثر من ألف سنة، لا ندري ماذا كان أثناءها من أمر الآراميين. هذه الوثيقة التالية هي إحدى رسائل تل العمارنة التي سبقت الإشارة إليها (القرن ٤ ق. م.)، وهي تذكر الآراميين باسم «أخلامو»[٢]، وعلى نحوٍ يُفهم منه أنهم كانوا مجموعةً من البشر لا يستهان بها تعيش بالقرب من الفرات.

وبالقرب من الفرات كان هؤلاء الآراميون في بداوتهم يعيشون من الرعي ومن السلب والنهب وقطع الطرق، مما دفع عدداً من ملوك العراق الأقدمين إلى القيام بحملات تأديبية ضدهم، كما فعل الملك الآشوري إريك دين إيلو (حوالي ١٣٢٥ ــ ١٣١١ق. م.) وأما الإمبراطور الآشوري تغلات فالصر الأول

---

(١) Sabatino Moscati, op, p. 164، ويضيف موسكاتي إلى هذه الوثيقة الأولى وثيقتين أخريين متأخرتين قليلاً، إحداهما من عهد (شولجي) أحد ملوك الأسرة الثالثة في (أور) بجنوب العراق، وأخرى من ملك آخر من نفس هذه الأسرة هو (شوسين)، ثم نصاً ثالثاً عثر عليه في (ماري) على الفرات. والوثيقتين الأوليين ترجعان إلى حوالي سنة ٣٠٠ قبل الميلاد، بينما ترجع الثالثة إلى سنة ١٧٠٠ قبل الميلاد تقريباً. لكن ينبغي أن نتنبه إلى أن هذه الوثائق الثلاث لا تصرح بوجود سياسي أو عسكري للآراميين، وإنما نفهم منها أنهم موجودون في المنطقة لا غير.

(٢) A. dupont — sommet, les araméens. Paris 1949, p.16.

(١١١٦ ـ ١٠٩٠) فيكتب في شأنهم: «لقد عبرت نهر الفرات ثمانياً وعشرين مرة، بواقع مرتين كل سنة وراء الآراميين (أخلامو)، فحققت هزيمتهم في كل مكان، ابتداءً من مدينة «تدمر» التي في بلاد آمورو، ومدينة عانة التي في بلاد سوخي، إلى مدينة رابيقو التي في بلاد كردو نياش. وقد أحضرت معي إلى عاصمتي في آشور غنائمهم وأمتعتهم وأملاكهم»(١).

ولكن البدو لا تؤثر فيهم مثل هذه الهزائم ولذلك ظلوا يهاجمون المدن الآشورية، وظل ملوك آشور يحاربونهم أجيالاً بلا هوادة.

وفي القرن الحادي عشر قبل الميلاد أسس الآراميون من جديد في منطقة أعالي الفرات بالقرب من بلدة «تل برسيب» مملكة قويةً ممتدةً على الضفتين الشرقية والغربية من النهر تسمى مملكة بيت آديني. وتلتها ممالك وإمارات أخرى آرامية في العراق، اثنتان منها في وادي بليخ، وأكثر من ذلك في وادي الخابور، كان من أشهرها بيت بخياني. وفي حوض الخابور الأعلى أسسوا ثلاث إمارات، هي: نصيبين، وخريزانا، وجدارا. وتستقر عشائر آرامية أخرى في عانة ورابيقو والسهل الذي يطل عليه جبل سنجار، ويمتد هذا إلى الدجلة وإلى حوض الزاب الأدنى.

وهكذا وجد الآشوريون أنفسهم محاصرين بالآراميين وأخذوا يتحينون الفرص للوثوب عليهم وطردهم. وقد حانت الفرصة في غضون القرن العاشر قبل الميلاد، عندما توقف التسلل الآرامي إلى العراق، وبدأت المنافسات والمنازعات بين قبائل الآراميين وعشائرهم.

وقد امتد الخطر الآرامي إلى بابل أيضاً، التي تسلل إليها فرع منهم اسمهم (كلدو)، أي الكلدانيون، وقد نجحوا في غضون القرن التاسع قبل

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٧ ــ ١٨.

الميـلاد في تكـوين ست إمـارات في أقصى الجنـوب من العـراق هي : لاراك، وبيت دكوري (أو بيت آديني)، وبيت شلاني، وبيت شعلي، وبيت يكيني.

وإلى الغرب من نهر الفرات، في شمال شرق سوريا اتخذ التسلل الآرامي شكـل الغزو، وارتـطم في البدايـة بمقاومـة كبيـرة من الحيثيـين، ولا سيـما حـول مـدينتهم المحصنة (قـرقميش). فصـرف الآراميـون نـظرهم عن هـذا المعقـل، وانسـابـوا في السهـول السـوريـة حيث كـونـوا لهم إمـارات في نـواحي «أربـاد» و «حلب» (إمـارة بيت آجـوشي)، وإلى الشمـال منهـا حـول «زنجيـرلي» (إمـارة شمـأل) التي ضمت إليها مملكة صغيرة آراميـة مجاورةً اسمهـا «يأودي». أمـا إلى جنوب حلب فإن حوزة الآراميين ضمت إمارات حماة، ودمشق، وصوبة، وبيت ركوب، وأخيراً تدمر، وهي واحة تقع في بادية الشام (١).

كـانت هذه الإمـارات الفتية التي استقـرت في سوريـا تمثل خـطراً في نظر العبريين الذين كانـوا يحاولـون ــ وسط عداء سكـان فلسطين الأصليـين ــ إقامـة مـملكـة لهـم. لـذلـك قـام شـاءول (حـوالي ١٠٤٤ ــ ١٠٢٩)، وداود (حوالي ١٠٢٩ ــ ٩٧٤)، بمحاربـة الإمارتـين الآراميتين المجـاورتين لمملكتهـا: إمارة صوبة، وإمارة بيت ركـوب؛ وكانت قـد انضمت إليها ضـد اليهود مملكـة العمونين (إمارة عمان) وكذلك بعض إمارات للآراميين في العراق.

وجاء على عرش اليهود سليمان. وبالـرغم من أن حكمه كـان يتسم بقلة الحروب، إلاّ أنه لم يتهاون مع الآراميين، فأرسل حملاتٍ عسكريةٍ تأديبيةٍ وصلت إلى حمـاة وتدمـر؛ وكانت حمـلات أبيه داود قـد وصلت إلى دمشق. كذلـك وجه سليمان قوة لمهاجمة إمارة صوبة وتدميرها، وبعد أن أتمت هذه المهمـة وقتلت أمير صـوبة «هـدد عزر»، قـام أحد قـواده واسمه «رزون» واعتصم في إقليم دمشق، وحارب جيوش اليهود فهزمها، وَحَرَّرَ منها منطقة دمشق، وأعلن فيها من جـديد إمـارة آرامية مستقلة في عهـد سليمان نفسـه. ومنذ ذلـك الوقت اتخـذت دمشق

(١) Dhorme: Langues et Ecritures Sémitiques, Paris, 930; p. 27.

أهميـةً خاصـةً في تاريـخ الآراميـين، وأصبـح ملك الآراميين يُسمى في الكتـاب المقدس اليهودي، وفي النصوص الآرامية نفسها «ملك دمشق».

هذه المملكة القوية التي كـان من الممكن أن تلعب دوراً رئيسياً في سيـاسة الشرق الأوسط ابتداءً من القرن التاسع قبل الميلاد، جاءت متأخرةً بعض الوقت على مسرح التاريـخ. فقد صادف قيامها وصول الإمبراطورية الآشورية إلى ذروة قـوتها؛ فـوقعت دمشق في منطقـة المطامـع العراقيـة، وراحت تتلقّى الضـربـات العسكـرية الآشـورية ضمن الإمـارات المختلفة التي تعـرضت لذلـك في سوريـا وفلسطين. ومع ذلك فإن قوتها وتماسكها حـالتا دون أن تكـون الضحية الأولى، وسبقتهـا الإمـارات الآراميـة الـواقعـة في العـراق إلى السقــوط في أيـدي الملوك الآشــوريــين: آشــوردان الـثــاني (٩٣٢ ـ ٩١٢)، وأدد نـيــراري الــثــاني (٩١١ ـ ٨٩٠)، ورُتُوكُلني نينـورتـا الثـاني (٨٨٩ ـ ٨٨٤)، وأخيـراً الـطاغيــة الآشوري آشور ناصربال الثاني (٨٨٣ ـ ٨٥٩).

كـانت دمشق في ذلك الـوقت ما تـزال بعيدة عن الخـطر، مما أتـاح لملكها بَـرْهَدَد الأول بن طــاب رِمـون بن حـزيـون أن يحـاول الاستفـادة من المشـاكـل السياسية المعقدة في المنطقـة، وأن يركـز همه عـلى الاستفادة من النـزاع القائم في فلسطين بين مملكة إسرائيل وملكها بَعْشَا، ومملكة يهوذا وملكها آسا. وقد هيـأ له ذلك تدعيم أهميته خارج نطاق ملكه في دمشق، بشهادة نقش يحمل اسمـه، عثر عليه في أقصى الشمال، في حلب.

وازدادت أهمية المملكة الآرامية في دمشق من الناحية السياسية والعسكريـة في أيام الملك بَرْهَدَد الثاني، الذي يكتب اسمه في النقوش أحياناً بِنْ هَدد، ويـرد في النقـوش الآشوريـة باسم «أدد إدْرِي». ففي حكم ملك إسـرائيـل «عُمـري» (٨٨٦ ـ ٨٧٥) قام بينه وبين بن هدد صراع على الحدود ظل يـزداد حدة إلى أن تـولّى ملك إسرائيـل «آخاب» (٨٧٥ ـ ٨٥٣)، فهـاجمـه ملك دمشق ووصـل إلى أبواب السامرة عاصمة ملكه، ولكن إسرائيل استـطاعت صَدَّه، فعـاود الكرَّة في

العام التالي حيث مُني بهزيمة حاسمة في موقعة (أفيق). ومع ذلك فإن آخاب ملك إسرائيل، الذي كان يشعر بثقل القوة الآشورية بقيادة الإمبراطور سلمانصر الثالث (٨٥٩ ـ ٨٣٤) ، رأى من حسن السياسة أن يُبقي على مملكة دمشق بعد هزيمتها لتكون خطاً أمامياً في مواجهة الزحف الآشوري. وهكذا ظهر لأول مرة في التاريخ تحالف سوري إسرائيلي أمام الخطر الذي يهدد الطرفين.

وكانت نتيجة هذا التحالف أن أصبحت سوريا الآرامية بطبيعة الحال شريكة في نفس المصير الذي تعرَّضت له فينيقيا واليهود، وهدفاً للزحف الآشوري، إلى أن وقعت فريسة له سنة ٧٣٢ قبل الميلاد.

أما في جنوب العراق فإن الآراميين الذين يسمون (كلدو) لم يستسلموا للغزوات الآشورية بل قاوموا الغزو، وصمدوا لأعمال الذبح والإحراق والتخريب والنقل الجماعي للسكان. وهذا النقل الجماعي إلى المنفى وصل ذروته في عهد سرجون الثاني، الذي تقول النصوص: إنه أخذ من الآراميين إلى المنفى سنة ٧٠٣ قبل الميلاد جموعاً يبلغ عددها ٢٠٨٠٠٠[١]. وفي سنة ٦٢٦، على أثر موت آشوربانيبال نجح نبو فالصر في تكتيل البابليين، ثم إنه بالتعاون مع الميديين هاجم أشور ودمَّر نينوى نفسها سنة ٦١٢ قبل الميلاد، وأقام في العراق ما يسمى بالإمبراطورية البابلية الجديدة كما ذكرنا. وبقيام هذه الدولة التي كانت تضم أكثر من عنصر من العناصر البشرية التي تسكن في العراق خضع لها الكلدانيون (الآراميون العراقيون) بالطرق السليمة، واندمجوا في سائر السكان.

اختفى إذن الآراميون شيئاً فشيئاً مِنْ على مسرح السياسة في غضون القرن التاسع والثامن والسابع قبل الميلاد. ومع ذلك فإنهم استمروا قروناً عدة بعد ذلك كمجتمع وكثقافة. وإذا كان الفينيقيون قد أثروا في حضارة هذه المنطقة، بل في الحضارة الإنسانية كلها باختراعهم الأبجدية فإن الآراميين قد تركوا لهذا

(١) ديبون سومير: المرجع السالف الذكر (Les Araméens) ، ص ٧٥.

الشـرق الأوسط ميراثـاً حضاريـاً قيّماً هـو اللغة الآراميـة. فهذه اللغـة من أبسط اللغات السامية، وأكثرها مرونةً وملاءمـةً للحياة الحضـارية والعمليـة. وهي لغة لم تتأثر بالانهيار السياسي والعسكري للأمة التي تكلمتها. وبالعكس، كان حملهم إلى المنفى بعيداً عن موطنهم الأول، وكان تشرُّدهم في جميـع أنحـاء الشرق بعـد هـزائمهم، سبباً في انتشـار لغتهم معهم حيثما ذهبـوا. وهكـذا نـلاحـظ، منذ أواخر القرن التاسع قبل الميلاد، أن هناك غزواً لغوياً آرامياً ناجحاً جداً، إذ تبدأ اللغة الآرامية بالتدريـج في الانتشار في الرقعة الشاسعة التي تمتد من الهنـد شرقـاً إلى البحر الأبيض المتوسط غرباً. فتصـير الآرامية هي لغـة الإدارة والدبلومـاسية لدى الفرس الإخمينيين، تكتب بها الـوثائق الـرسمية والعقـود والرسـائل في كـل أنحاء الإمبراطورية الفارسية، حتى إننا نعثر على مجموعة من أهم هذه النصـوص في جزيرة الفيلة بأسوان في فترة الاحتلال الفارسي لمصر.

وفي فلسطين تحل شيئاً فشيئاً محل العبرية حتى تموت العبرية نهائياً. فنقابل الآراميـة في الكتـاب المقـدس نفسـه، وفي المـأثـورات الـدينيـة، والأدعيـة، والصلوات، والشـروح والتفاسـير اليهوديـة، بـل إنـه ــ بعـد فتـوح الإسكنـدر الأكبر ــ تحتفظ اللغة الآرامية بمكانتها إلى جانب اليـونانيـة، ويكفي أن نشير إلى أنـه، عند ظهـور المسيح، كانت العـامة في بـلاد الشام من أقصـاها إلى أقصـاها لا تفهـم إلاَّ الآراميـة، مما دعـا المسيـح نفسه إلى استعمـالها في وَعـظهم والحديث إليهم. وهذه الآرامية التي اتسع انتشارهـا على هـذا النحو قـد انقسمت بطبيعـة الحال إلى لهجات نذكر منها:

١ ــ الآرامية القديمة:

وفي داخلها أيضاً أنواع:

(أ) **آرامية النقوش**: وأقـدم نص منها هـو الذي ورد إلينـا من مملكة شمـأل، ويعـرف بنقش زنجيرلي نسبـةً إلى الاسم التركي الحـديث لهـذه المنـطقـة الأثرية. وهو يرجح إلى القرن التـاسع قبـل الميلاد، ولغتـه كانت مـا تزال

متأثرة بوضوح باللغة الكنعانية. وتندرج في هذا النوع أيضاً الآرامية المنقوشة على هامش مجموعة من الوثائق الفخارية المسمارية، عثر عليها في «نيرب» وهي تغطي فترة من التاريخ تبدأ من بختنصر الثاني (٦٠٤ ــ ٥٦٢) إلى دارا الأول «داريوش» (٥٢٢ ــ ٤٨٦). وهذه الألفاظ الآرامية على هامش لوحات نيرب عبارة عن تفاسير لبعض ما ورد بالآشورية في اللوحات، مما يثبت أن الآرامية كانت بلا شك مفهومةً في هذه الإمبراطوريات القديمة على نطاق أوسع من اللغات الرسمية نفسها.

(ب) **آرامية الإمبراطورية الفارسية**: وقد عثر منها على نصوص بعضها منقوشٌ على الحجر، وبعضها على الطين، وبعضها مكتوبٌ على ورق البردى، وكلها ترجع إلى الحكم الفارسي في منطقة الشرق الأوسط. فقد عُثر على منقوشاتٍ حجريةٍ في آسيا الصغرى في مناطق ليميرا وكبادوسيا وقيليقيا. كما وجدت نقوشٌ في شمال شبه الجزيرة العربية في تيماء والحجر (مدائن صالح)، وفي مصر أيضاً، في منفيس وأبيدوس وإخميم وأسوان (البردي الآرامي بجزيرة الفيلة)، وهذا الأخير عبارةً عن مجموعةٍ كبيرةٍ تحتوي على عقود بيع أو إيجار أو زواج... إلخ، ورسائل متبادلة بين موظفي الدولة الفارسية في مصر، أو بين رجال الأعمال، ومنها يتبيَّن أن الفرس على عهد قمبيز، كانوا يعتمدون في حكم مصر، وفي تأمين إقامة جيش الاحتلال، على عملاء من اليهود المقيمين في مصر، كذلك وجدت قطع من قصة قديمة تسمى «أحيقار» باسم بطلها. وكل هذه النصوص ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وإلى عهد الاحتلال العسكري الفارسي في مصر، وتنتمي كلها إلى فئة من اليهود كانت تقيم في جزيرة الفيلة، وتتكسب من التعامل مع قوات الاحتلال الفارسي.

(جـ) **آرامية الكتاب المقدس**: وهي أيضاً أثر من آثار ازدهار الآرامية بين اليهود في ظل الحكم الفارسي، وأشهر نصوصها ما جاء في سفر عزرا

(٨/٤ إلى ١٨/٦، وكذلك ١٢/٧ ـ ٢٦) ثم سفر دانيال (٢/٤ إلى ٢٨/٧).

(أ) **الآرامية اليهودية**: وهي مجموعة آثار يهودية دينية مكتوبة، منها الترجوم، وهو ترجمة آرامية للكتاب المقدس اليهودي، دعت الحاجة إليها عندما أصبح الشعب اليهودي يجهل اللغة العبرية ويحتاج إلى ترجمة ليفهم النصوص الدينية التي يعتمد عليها في العبادات والمعاملات. ولذلك تعدَّدت الترجمات الآرامية: فمنها ترجمة أونكلوس، ويبدو أنها اقتصرت على توراة موسى فحسب، ومنها ترجمة يوناثان بن عُزيئيل التي تشمل العهد القديم كله خلافاً لما يظنه بعض المؤلفين من أنها تكمل ترجوم أونكلوس مبتدئةً من أسفار الأنبياء فقط، وهناك ترجوم ثالث يسمى الترجوم المقدسي أو الأورشليمي، تغلب عليه نزعة التأويل أكثر من الترجمة الحرفية، وهو ما يزال في حاجةٍ إلى مزيدٍ من العناية من قبل الباحثين.

من هذه الآثار أيضاً المدراش، وهو مجموعة تفاسير آرامية على أسفار العهد القديم.

ثم هناك التلمود وهو الشرح الآرامي (الذي يسمى «الجمارا») على الشريعة الشفوية العبرية اللغة (التي تسمى «المِشنا»). وهذه الجمارا نمت على مدى أجيالٍ من الرواة اليهود في العراق (التلمود البابلي) وفي فلسطين (التلمود المقدسي) ولغتها متأثرة تأثراً قوياً بالعبرية.

(ب) **الآرامية الفلسطينية المسيحية**: وهي لغة المسيحيين الملكانيين في فلسطين. فبعد انفصالهم عن الكنيسة السريانية، اليعقوبية والنسطورية، كتبوا بلهجتهم الآرامية ترجمة للكتاب المقدس ومجموعة من الصلوات والأدعية، مترجمين ذلك كله عن اليونانية، ولهجتهم تشبه اللهجة الآرامية اليهودية في الترجوم.

(ج) **الآرامية النبطية**: كان النبط في مدينة سلع (بترا) في بادية شرق الأردن، وفي بُصْرَى بإقليم حوران في جنوب سوريا، سادةَ التجارة بالقوافل بين جزيرة العرب والبحر الأبيض المتوسط منذ القرن الثالث قبل الميلاد. وقد أخضع الرومان بلاد النبط لحكمهم عام ١٠٦ ميلادية، ووصلت أهميتهم في الإمبراطورية الرومانية إلى أن قام منهم إمبراطور روماني يسميه مؤرخو الرومان فيليب العربي، واسمه الكامل الإمبراطور يوليوس فيليبوس العربي، الذي ولد في مدينة بُصرى بحوران في أوائل القرن الثالث بعد الميلاد، وكانت له حروب ضد الأكراد والفرس لتأمين حدود الإمبراطورية الرومانية، وهو الذي أمر بإقامة العيد الألفي لتأسيس مدينة روما سنة ٢٤٧م. ويميل المؤرخون إلى اعتقاد أنه لم يكن وثنياً ولكن كان مسيحياً، مع أن الأدلة على ذلك ما تزال غير كافية. وقد انتشر هؤلاء النبط من مدائن صالح إلى العُلَى، ومن شرق الأردن وحوران إلى منطقة صيدا، ووصلت عشائر منهم إلى إيطاليا نفسها، وانتشروا في شبه جزيرة سيناء في المنطقة التي تسمى وادي المكتب.

وكان النبط قد أخذوا الأبجدية التي تلقاها الآراميون عن الفينيقيين، ثم طَوَّروها وحَوَّلوها من كتابة منفصلة الحروف إلى كتابة متصلة الحروف، وبهذا أراحوا الكتَّاب من كتابة كل حرف على حدة، ومِنْ وَضْع خطوط رأسية أو نقط لتحديد حدود كل كلمة، أو ترك مسافات بيضاء بين كل كلمة وأخرى. ومنهم أخذ العرب الكتابة التي ما زلنا نستعملها إلى اليوم.

(د) **الآرامية التدمرية**: كانت تدمر محطة قوافل كبيرة في شرق سوريا، ذات نشاط تجاري ضخم، خاصة فيما بين القرن الأول قبل الميلاد وسنة ٢٧٣ بعد الميلاد، حيث سقطت المدينة في يد الرومان. وفي تلك الفترة كان يبدو أن أمراءها عرب أو مستعربون على الأقل. وقد وجدت فيها مجموعة كبيرة من النقوش تزيد على سبعمائة نقش جنائزي في سنة ١٩٣٢، ثم

وجدت نقوش أخرى تدمرية أيضاً في جهات متفرقة من العالم، أشهرها نقش يحتوي على أسعار مرور القوافل باللغتين اليونانية والتدمرية. وقد وجدت نقوش تدمرية في إنجلترا نفسها. وترجع الكثرة الغالبة من النقوش إلى الفترة الواقعة بين ١٢٨ ـ ٢٧١ بعد الميلاد.

وأقدم نقش تدمري يحمل تاريخاً، يرجع إلى شهر نوفمبر من السنة التاسعة قبل ميلاد المسيح، وأحدثها يرجع إلى سنة ٢٧١ ميلادية. واسم تدمر نطق آرامي لكلمة «تتمر» العربية، ومعناها المدينة التي يكثر فيها التمر والنخل، ولذلك سميت عند الأوروبيين «بلميرا»، بنفس المعنى.

واللهجة الآرامية التدمرية لها مميزات بررت أن يختصها بعض الباحثين بدراسة لغوية منفصلة، ومن أشهر هذه الدراسات كتاب الأستاذ المستشرق الفرنسي (كانتينو)[١]. وقد طَوَّر التدمريون الكتابة الآرامية، وعنهم انتقلت إلى السريان في الرُّها، فظهر منها الخط السرياني القديم المعروف باسم الخط السطرنجيلي، وسنذكره في حديثنا عن اللغة السريانية.

٣ ـ الآرامية الشرقية:

وهي كذلك أنواع أهمها:

(أ) **آرامية التلمود البابلي**: وهو شرح المشنا الذي تعاقبت عليه أجيال من الرواة والأحبار اليهود في مدارسهم بالعراق، وأشهرها سورا، ونهر دعه، وبومبديتا. ويشغل الجيل الأول من هؤلاء الأحبار من سنة ٢١٩ إلى سنة ٢٥٧ ميلادية، ويقوم على أستاذين من هؤلاء الأحبار هما «أبا أريكا» ويشتهر أيضاً باسم «رب» أي السيد و «مار صمويل». وأما الطبقة الثانية من هؤلاء الأحبار فتشغل الفترة من ٢٥٧ إلى ٣٢٠ ميلادية، وفيها خمسة

(١) له في النبطية J. Cantineau;Le Nabatéen, 2 Vols. paris 1930-1932. وفي التدمرية J. Cantineau; Grammaire du Palmyrénien épigraphique, Le Caire 1935.

من الأحبـار هم «هـونـا» و «يهـودا بـريجـزقيــل» و «حسـدا» و «شيشت» و «نحمان بن يعقوب». والطبقة الثالثة تتضمن سبعـة من الأحبار يغـطون الفتـرة من ٣٢٠ إلى ٣٧٥ وهم: «ربا بَـرْهونـا» و «ربا بَـرْنحماني» و «رب يوسف بَرْحيا» و «أباي» و «ربا» وهو ابن يوسف بن حامـا، و «رب نحمان بر إسحق» و «الرب فافا».

وإلى هذه الطبقة يكون قد مضى أكثر من مـائة وخمسـين عامـاً منذ الـطبقة الأولى، وكان التلمود الغربـي «الأورشليمي» قد بدأ في نفس الوقت، ثم انقطعت رواته مع هذه الطبقة من رواة التلمود البابلي الذين ينفردون بعد ذلك لنحو قرن وربـع من الزمان، إذ تبدأ الطبقة الرابعة منهم سنـة ٣٧٥ وتستمر إلى سنة ٤٢٧ ميلادية. ومن أشهر رجالها في مدرسـة سورا «آشي» وفي مدرسة بومبديتا «زبيد» و «ديمي» و «رفـرام برفـافا» و «كـاهنا» و «مـار زوطرا». وفي مدرسـة نهر دعه «أميمـر». وطبقتهم الخامسـة من ٤٢٧ إلى ٤٦٨ ظهر فيها في سورا «ماريمر» و «إيدابَرْ أبا، أو أبـين» و «مار بَـرْ رَبْ آشي» و «آحا» وفي بومبديتا «رفرام الثاني» و «رحـوماي» و «سـما بَرْ ربـا». وأما الطبقة السادسة والأخيرة فتستمر من ٤٦٨ إلى ٥٠٠ ويمثلها في سـورا «ربا توسفيا، أو توسفا» و «ربينا»، الذي يسمى في بعض المراجـع «ربينـا زوطا»، وفي بومبديتا «يوساي»[١].

(ب) آرامية الصابئة: التي تسمى اللغة المندعية أو المنـدائية، كـما ينطقهـا أهلها الـذين تأثـروا بـالنطق الآشـوري، فلم يعـودوا يحسنـون نـطق الحـروف الحلقية، وخاصة العين والحاء.

وهؤلاء الصابئة يوجدون في جنوب العراق في منـاطق البصرة وواسط عـلى الخصوص، وهم الآن يختلطون دينياً بطائفة قـديمة هي التي كـانت تسمى

(١) M.Mielziner ; Introduction to the Talmud, New York 1952.

في الواقع الصابئة، وكان هؤلاء يسمون المَنداثيين، وكان الصابئة قد اتبعوا سيدنا يحيى ــ يوحنا المعمدان عند المسيحيين ــ الذي ظهر قبيل ظهور المسيح، ومات شهيداً عندما طلبت سالومي من زوج أمها هيرودس أن يقطع رأسه ليلة زواجه بأمها حتى ترضى بهذا الزواج. فلما جاء المسيح بالرسالة كذبه بعض أتباع يوحنا المعمدان واتهموه باغتصاب شريعته والسطو عليها وتحريفها وادعاء النبوة، وأصبحوا فرقة دينية متأرجحة بين اليهودية والمسيحية، ولها كتاب خاص مكتوب بهذه اللهجة الآرامية، ومن بين نصوصه صلوات وأدعية يسبون فيها المسيح عليه السلام.

أما المندائيون الحقيقيون، فقد كانوا قبل امتزاجهم بالصابئة فرقة دينية أساسها تعاليم المانوية الفرس مع آثار يهودية ومسيحية أيضاً، وكانت ديانتهم هذه مرتبطة بالكواكب، بتأثير بقايا الديانة البابلية الجديدة (الكلدانية) في بعض مظاهر الديانات الفارسية الزرادشتية والمانوية والمزدكية، ومن هنا شاع عنهم بين العامة أنهم يعبدون الكواكب بينما هم قوم يؤمنون بالله وبنظرية في المعرفة متفرعة من «الغنوصية»، وهي التسامي نحو معرفة الذات الإلهية عن طريق الرياضة الروحية والتأمل العميق. ولذلك اعتبر الصابئة أهل كتاب وليسوا كفاراً.

(جـ) **اللغة السريانية**، وهي لهجة آرامية قديمة نشأت وترعرت في الإقليم الذي تقع فيه مدينة الرها، وكانت تسمى عند الرومان «إديسا» واسمها الحالي «أورفا» في جنوب شرق تركيا، قريباً من الحدود السورية. وترجع أهمية الرها إلى الفترة ما بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الثالث بعده، فقد كان موقع هذه المدينة على طريق التجارة البري الموصل من الهند إلى البحر الأبيض المتوسط، سبباً في ازدهارها الاقتصادي.

وقد دخلتها المسيحية منذ القرن الأول، بل إن القصص السريانية الفولكلورية تذكر أن ملك الرها، أبجر بن معن الأسود كان يحكم على عهد

المسيح، وآمن بـه وأرسل يدعوه لترك أورشليم القـدس والإقامـة عنده، فكتب المسيح إليـه معتذراً بلطف، ثم جـاءه مِنْ قِبَله «أدّاي» الـذي نشر المسيحيـة في الرها. ومهـما يكن من شيء فإن الثـابت تاريخيـاً هو أن الـرها تنَّصـرت تمامـاً في القرن الثاني المسيحي، وأصبحت العاصمة الثقافية لكـل نصارى الشـرق الذين لا يتكلمون اليونانية.

وإذا كانت لغة الـرها منـذ ما قبـل المسيـح قد سُمِّيت آراميـة، فإنها بعـد انتشار النصرانية بها قد بدأت تُسَمَّى السريانيـة تمييزاً لهـا عن الآراميـات الـوثنية أو اليهـودية، لا سيـما أن لفظ «آرامي» كان قـد اتخذ في أذهـان العـامـة في هـذا الإقليم مـدلـولاً يشبـه لفـظه «جـاهـلي» عنـد المسلمـين، أي لا يـؤمن، ويعبد الأصنام.

وبعـد فترة تمهيـدية في بـداية المسيحيـة في الرهـا، بـدأ الأدب السـريـاني المسيحي يـدخل في عصر الازدهـار الذي استمـر من القـرن الثـالث إلى القـرن السابـع. في هذا الوقت ترجم الكتاب المقدس إلى السريانية ترجمـة أصبحت من المـراجـع في تحري آيـات هذا الكتـاب وتحقيقها وتفهمهـا، وهي المعروفـة باسم «فشيطو» أي الترجمة البسيطة. كـذلك ظهـرت في المسيحية السـريـانيـة أشعار في التصوف والابتهال إلى الله ومـدائـح في المسيـح والعذراء ونحـو ذلك، كـان مِنْ أشهر مَنْ نبغوا فيها القديس أفرام. وكثرت فيها كتب اللاهـوت والتاريـخ، كـما أقبـل السريـان على التـرجمة وبـرعوا فيهـا جداً، وكـان من أشهر مـا ترجم كتب فـلاسفة اليـونان، وعنهم انتشـرت في فلسطين وسـوريا والعـراق وبلاد فـارس. واستمرت حركة الترجمة هذه حتى بعد ظهور الإسـلام بمدة طـويلة، فنحن نعلم أن خلفاء المسلمين، وخـاصة الخليفـة المأمـون العباسي (٨١٣ ـ ٨٣٣ ميـلادية) استعان بالمترجمين السريان في إغناء المكتبة العـربية بكتب الـطب والفلك والمنطق والفلسفة والهندسة والرياضة وغيرها من العلوم التي ورثها السريان عن اليونان.

وقد استمرت اللغة السريانية حية في حلقات العلم والفكـر في الشرق إلى القرن العاشر الميلادي تقريباً. وكانت قد نشأت فيها لهجتان، لهجة غربية تسمى

اليعقوبية، ولهجة شرقية تسمى النسطورية، لكل منهما كتابة مختلفة شيئاً ما، وطريقة في الضبط بالحركات. فاليعقوبية تمتاز بتحويل الفتحة الممدودة الطويلة إلى ضمة ممالة طويلة، كما أنها تخفف التضعيف جداً، وحركات الضبط فيها مأخوذة من الحروف المتحركة اليونانية من حيث طريقة رسمها، بينما النسطورية أقرب إلى الآرامية القديمة من حيث النطق. والخط النسطوري يعتمد في الضبط بالحركات على النقط وحدها.

تدخل السريانية في فترة اضمحلال تستمر إلى القرن الرابع عشر الميلادي، ويكثر فيها الأدب الكنسي، والدراسات الدينية والأدعية والصلوات، ثم تموت اللغة السريانية وتصبح لغة عبادة فقط للكنيسة المارونية وكنيسة السريان الشرقيين (الكلدان).

أما كيف انفصلت هاتان الكنيستان فذلك يرجع إلى حركة انشقاق مذهبي وقعت بين سريان الرها، وانتهت باعتزال فريق منهم هذه الكنيسة التي أعلنت تكفيرهم سنة ٤٨٩، فأسسوا كنيستهم النسطورية في مدينة نصيبين. ومنذ هذا التاريخ بدأ الخط السطرنجيلي الذي أشرنا إليه سابقاً يتطور وتتولد منه الكتابة السريانية الشرقية المعروفة بالخط النسطوري، أو السرياني المربع، والكتابة السريانية الغربية المعروفة باسم الخط اليعقوبي أو السرتو. كما أن السريان بعد اضمحلال لغتهم كانوا يكتبون أحياناً باللغة العربية، ولكنهم يستعملون لذلك الخط السرياني بحيث لا يستطيع المسلمون ــ إلا مَنْ تعلم منهم ــ قراءة هذا النوع من النصوص، وهو الذي يسمى عندهم «الكرشوني» نسبة إلى أحد علمائهم ويدعى كرشون القبرصي. أما الخط السطرنجيلي القديم فظل يستعمل للكتابات الصرحية المعمارية وللأغراض الزخرفية، مثل عناوين الكتب، وما يكتب حفراً على النحاس أو الخشب أو تطعيماً بالفضة أو الذهب أو الصدف، أو تطريزاً على المنسوجات.

وما كاد سريان نصيبين يُنْشئون لهم هذا المركز الديني والفكري على مقربة من الفرس، حتى اهتم علماء المجوس بدراسة الفكر اليوناني على أيديهم،

وأصبحت الفارسية والنسطورية من اللغات الضرورية للمثقفين الفرس خاصة في جامعتهم القديمة بمدينة جنديسابور، حيث كان الاهتمام بفلسفة أرسطو بالذات على أشده. وفي أثناء هذا الاختلاط دخل بعض المغول في الديانة المسيحية النسطورية على يد مبشرين من هذه الكنيسة، وكان من مشاهيرهم «كيكبوكا» قائد هولاكو التتري، الذي قاد الغزو المغولي إلى سوريا وهزمه المماليك في موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ ميلادية. وليس أدل على سعة انتشار السريانية من وجود نقش باللغة السريانية مع ترجمته بالصينية في الصين نفسها، وهو المعروف بنقش «سي ــ نجان ــ فو».

وإذا كانت السريانية اليعقوبية والنسطورية قد ماتتا، فإنه ما تزال بعد قرى متفرقة من مناطق الحدود بين سوريا وتركيا وإيران والعراق وروسيا تتكلم لهجات حديثة من السريانية، أشهرها معلولة بالقرب من دمشق، وكذلك نجعة وجبعدين وأرميا وطور عابدين.

وقد حاكى السريان العرب واليونان في ضبط قواعد لغتهم، وكتابة مؤلفات قيمة في النحو السرياني، ومعاجم لهذه اللغة، ومن أشهرهم يعقوب الرهاوي؛ وابن زعبي، وإيليا الطيرهاني، وديونيسيوس الترقي، وإيلياس بن شينا، وساويرس، أبو الفرج ابن العبري، وسرجيوس الرزي الذي تولى مطرانية دمشق سنة ١٦٠٠ ميلادية، وتوفي في روما سنة ١٦٣٨. وقد عثر القس اللبناني جرجس الرزي في أواخر القرن التاسع عشر على كتاب له في النحو السرياني مشروحاً باللاتينية في روما بمكتبة الأمير بربريني، يقول: إنه مخطوط نفيس في قواعد هذه اللغة[١]. ثم تعاقب المؤلفون من سريان ومستشرقين بعد هذا التاريخ، فكتبوا في النحو والصرف، وألفوا المعاجم، ودرسوا التراث الفكري والديني والأدبي للسريان.

---

(١) الكتاب، في نحو اللغة الآرامية السريانية الكلدانية وصرفها وشعرها، تأليف القس جرجس الرزي الراهب الحلبي اللبناني ــ طبع المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٨٩٧، ص ٧.

واللغة العربية مدينة للُغة الآرامية بعشرات الآلاف من الألفاظ التي دخلت في عصور مختلفة ومن طرق متباينة. فمصطلحات الزراعة أخذ العرب معظمها عن النبط الذين كانوا يشتغلون بالفِلاحة على حافة الجزيرة العربية، حتى إن علم الزراعة ظل إلى وقت طويل بعد الإسلام يسمى عند العرب «الفلاحة النبطية». كذلك كان الآراميون في كثير من الأحيان الوسيط في توصيل الدخيل اليوناني واللاتيني إلى اللغة العربية، كما أخذ العرب عن النبط والصابئة والسريان كثيراً من ألفاظ الصناعة في التجارة وسباكة المعادن والحياكة والصباغة والكتابة والطب والصيدلة والفلك وغيرها. كما أثر أسلوب المترجمين السريان على تركيب الجملة وصياغتها في العصر العباسي وما يليه.

□ □ □

(٥)
السَّاميُّون الجنُوبيُّون

(بلاد العرب - الحبشة)

ذكرنا أن موطن الساميين الأصلي كان في شبه جزيرة العرب على أرجح الأقوال، كما أننا بينَّا أن ما رُوي لنا من أخبار العرب، وأخبار الهجرات السامية القديمة، يُشعر بأن العربية الفصحى هي أقرب الألسنة إلى لغة الساميين الأم. ويؤكد ذلك البحثُ التاريخي والمقارن بين اللغات السامية من جهة، والنتائج التي يقدمها علم اللغة العام، عن التطور اللغوي من جهة أخرى. وهنا، ونحن نقدم عرضاً للإطار التاريخي والحضاري واللغوي الذي يتحدد فيه مكان العرب ولسانهم، فإننا سنقدم فكرة عَن الساميين الذين يشغلون الجنوب الغربي من المنطقة الكبرى التي تشعبت فيها هذه اللغات السامية وشهد التاريخ تطور أبنائها.

هذا القسم من اللغات السامية يحتوي على شطرين: أحدهما العرب، والثاني هو الموجة القصوى من الساميين التي دفعتها شبه الجزيرة من أقصى جنوبها الغربي، عبر مضيق باب المندب نحو قلب أفريقية، فظهر أثرها واضحاً في كثير من لغات الحبشة ولهجاتها. بل إن الباحث ليشعر بأن هذا المدّ السامي في إفريقية يرجع إلى أزمان لم يُعرف مبدؤها، ولا شك أنه بدأ في ما قبل التاريخ، ولعله كان يتعدى الحبشة، لتتأثر به لغات وحضارات إفريقية، كما لوحظ ذلك في اللغة المصرية القديمة، ولغة البربر في شمال إفريقية، ولغة النوبيين. إلى حد أن كثيراً من الباحثين وقف أمام هذه الظاهرة مضطراً أن يقول بمجموعة لغوية ممتزجة يطلق عليها اسم «الحامية السامية».

* * *

العرب

وقد ورد ذكرهم في الكتابات المسمارية منذ أزمان سحيقة. ففي أوائل الألف الثاني قبل الميلاد كانت الأسرة البابلية الأولى تحكم في العراق، وقد ورد إلينا مِنْ أحد ملوكها وهو نرام سين نقش على قاعدة تمثال له، يذكر مفاخره ومآثره، ويقول فيه: نرام سين، الملك القوي المسيطر على الأقاليم الأربعة... أخضع بلاد مجان، وأخذ «مانيوم»، أمير مجان أسيراً. ويظن الأثري الألماني فريتز هومل أن «مجان» ربما كان تحريفاً لاسم إقليم «معين» في اليمن[1] أما نحن فنرى أنه يحتمل أن تكون لفظة «مجان» هو في الأصل «معان» في أقصى الشمال من الحجاز شرقي خليج العقبة. وليس قربُ هذا المكان من العراق هو الذي يدعونا إلى ترجيح هذه الفكرة، ولكن اسم هذا الأمير الذي كان يحكم الإقليم، (مانيوم)، الذي يبدو أنه نطق آشوري للاسم العربي (معنٌ)، بالضم والتنوين، وهو شائع في أسماء عرب الشمال نادر في الجنوب، لا نجده فيما نعلم من النقوش اليمنية، بينما يقابلنا بكثرة جداً في الشعر العربي الجاهلي وفي النقوش العربية القديمة التي عُثر عليها في الشمال كالنقوش الصفوية مثلاً.

وفي سنة ٨٥٤ق. م. تذكر لنا نقوش الإمبراطور الآشوري سلمانصر الثالث أميراً عربياً آخر اسمه (جِنْدِبُو) ــ (جُنْدُب) بالعربية ــ تحالف ضده مع الآراميين وأرسل لهم مدداً محمولاً على ألف جمل أثناء موقعة (قرقر). ويَرِدُ في نقوش تغلات فالصر الثالث (٧٤٥ ــ ٧٢٧ق. م) أن ملكة عربية تدعى (زبيبة)

---

(١) Henri Fleisch, Introduction à l'Etude des Langues Sémitiques, Paris, 1947-p. 90.

كانت تدفع الجزية لهذا الإمبراطور[1]. ويرد ذكر ملكة خلفت زبيبة اسمها شمس ـ (سَمْسي) بالآشورية ـ كانت أيضاً تدفع الجزية لسرجون الثاني (٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق. م).

والظاهر أن ملوك اليمن في الألف الأول قبل الميلاد كان قد اشتد بأسهم بشكل أعطاهم أهمية خاصة في سياسة الشرق الأوسط، فقبيل هاتين الملكتين نسمع عن ملكة ثالثة تحدِّثنا عنها الكتب الدينية، هي ملكة سبأ التي توطدت علاقاتها بمُلك بني إسرائيل على أيام سليمان. وفي النقوش الآشورية من عهد سرجون الثاني نجد أحد أمراء سبأ واسمه (إتعمر) يرسل الهدايا إلى إمبراطور آشور. وتتحدث نقوش سنخاريب، خليفة سرجون الثاني (٧٠٥ ـ ٦٨١ق. م) عن وقائع مع (ملكة العرب) ولعلها الملكة شمس التي عاصرت سلفه سرجون الثاني.

ويَرِدُ ذكر العرب في الكتاب المقدس في أكثر من موضع. فقد كانت لهم ملوك وممالك في البادية (إرميا ٢٥/ ٢٠، ٢٤)، ولهم تجارة مزدهرة جداً، نشعر بذلك عندما يخاطب النبي حزقيال مملكة صور الفينيقية قائلاً: «العرب وجميع رؤساء قيدار يتجرون معك في الضأن والكباش والماعز، بهذه الأشياء تعاملوا معك. تجار سبأ وراعمة يتجرون معك بكل عطر طيب، وبكل حجر كريم، وبالذهب أقاموا أسواقك» (حزقيال ٢٧/ ٢١، ٢٢). ثم إن هؤلاء العرب يوصفون بأنهم رعاة يسكنون الخيام (إشعيا ١٣/ ٢٠)، ويكثر فيهم المتربصون على طرق القوافل (إرميا ٣/ ٢) ، ولم تكن علاقتهم باليهود علاقة ودية في أي يوم من الأيام، بل كانوا أحياناً يرغمون على الخضوع ودفع الجزية (أخبار الأيام الثاني ٩/ ١٤)، ففي هذا الموضع كانوا يدفعونها لسليمان، وفي موضع آخر ليهوشافاط ملك يهوذا من ٨٧١ ـ ٨٤٨ (أخبار الأيام الثاني ١٧/ ١١). وقد سبق أن أشرنا إلى زيارة ملكة سبأ لسليمان حوالي سنة ٩٥٠ق. م، ومظاهر

---

(١) Henri Fleisch, Op. Cit-p. 90

الحفاوة الخيالية التي قوبلت بها في أورشليم (ملوك أول ١٠/١ ــ ١٣ وكذلك أخبار الأيام الثاني ٩/١ ــ ١٢). وكان العرب كلما شعروا بتكتل سياسي موجه ضد اليهود في هذه المنطقة انضموا إلى أعداء اليهود. حدث ذلك في أيام يورام، ملك يهوذا، ٨٥٥ ــ ٨٤٧، إذ تحالف العرب مع الفلشتيين ــ سكان فلسطين الأصليين ــ وقاموا بهجوم على اليهود (أخبار الأيام الثاني ٢١/٦، ١٧). وفي أيام نبي اليهود نحميا، المعاصر للإمبراطور الإيراني أرطا كسرسيس الثاني، ٤٢٤ ــ ٣٥٨ق.م، نجد العرب متجمعين ضد أورشليم بقيادة ملكهم «جُشَم» الذي كان حليفاً ضد هذه الحركة الصهيونية القديمة لسَنْبَلط الحوراني وطوبيا العموني وإمارة الأشدوديين (نحميا ٢/١٩ و ٤/١ ــ ٨ و ٦/١ ــ ٩).

ومن خلال هذه النصوص، مسماريةً وعبرية، يشعر القارىء بأن العرب لم يكونوا جميعاً في حالة بداوة تامة. فهناك سهول ضيقة على سواحل شبه الجزيرة العربية، يتوفر فيها الماء بدرجة تسمح بحياة مستقرة متحضرة، قائمة على الزراعة والتجارة. مكَّنت العرب من إنشاء ممالك لهم بقي ذكر كثير منها في التاريخ.

فلو أننا اتجهنا جنوباً من الخليج بحذاء الساحل، ماضين نحو البحر الأحمر، لالتقينا بالممالك العربية القديمة التي قامت على الطريق التجاري الدولي القديم المعروف باسم (طريق البخور) أو (طريق التوابل). هذه الممالك القديمة خلفت لنا نقوشاً مكتوبة تبدو مختلفة جداً عما ألفناه عند الساميين الشماليين، ومع ذلك فإن هذه الكتابة العربية الجنوبية مستوحاة من الأبجدية الفينيقية أيضاً. فمن هذه الممالك مملكة (حضرموت) وقد ورد ذِكْر هذا المكان في سفر التكوين، الإصحاح العاشر، الآية ٢٦، وهو يقع إلى الغرب من ساحل عُمان، وأهم مدنه (شبوة). وهي معروفة باسمها إلى الآن. ويليها إقليم قَتَبان وعاصمته (كحلان) وكان اسمها القديم (تمنع) وهو مبتعد عن ساحل المحيط الهندي إلى الداخل حيث كانت تقوم بينه وبين البحر مملكة صغيرة اسمها (أوسان) وأهم بلادها (شقرة) على ساحل المحيط الهندي، ثم ننتهي إلى إمارة

عدن، ومنها يبدأ الإقليم الكبير الممتد إلى ساحل البحر الأحمر المسمى اليمن.

وهذا المثلث من الأرض الواقع في الزاوية الجنوبية الغربية من شبه جزيرة العرب كان وما يزال أخصب مناطق الجزيرة العربية، وكان مقسماً بين سبأ ومعين؛ وكلاهما مذكور في العهد القديم، سبأ في التكوين ١٠/٧، ٢٨ و ٢٥/٣ والملوك الأول ١٠/١، ٤، ١٠، ١٣ ويوئيل ٤/٨... مثلاً، ومعين تَرِدُ أيضاً في الكتاب المقدس مكتوبة (معون) حزقيال ٢/٥٠، نحميا ٧/٥٢ القضاة ١٠/١٢.. مثلاً. أما النقوش المسمارية فلا تذكر غير سبأ والسبئيين، ورد ذلك في نقوش سرجون الثاني (٧٢٢ ــ ٧٠٥) حيث يسمي السبئيين بالكتابة المقطعية المسمارية (سا.. با ــ آ ــ ا) ويذكر ملكهم الذي أشرنا إليه من قبل (إتعمرا). ويرد ذكر السبئيين أيضاً في نقوش سنحاريب (٧٠٥ ــ ٦٨١) ويذكر ملكاً لهم اسمه (كَرِب ــ إلو). وبالرغم من ذلك فإن بداية السبئيين والمعينيين وتاريخ هذه البداية ما يزال موضع جدل كبير بين العلماء. يقول الأستاذ الإيطالي ساباتينو موسكاتي[1]: إنه من ناحية التاريخ لا نعلم عن مملكة معين في شمال اليمن ما يعيننا على تحديد بدايتها فبعض العلماء يرى أن هذه المملكة أقدم في الظهور من مملكة سبأ، وآخر من يدافعون عن هذا الرأي هو البريطاني فِلْبِي، وحسب هذا ترجع هذه المملكة إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد وتمتد إلى القرن السابع بعده. ويرى آخرون أن مملكة معين لا تتجاوز في بدايتها القرن الرابع قبل الميلاد ومن هؤلاء العلاّمة البلجيكي الأب ريكمانز. بل إن العالم الأمريكي (ألبرايت) يرىٰ بالتحديد أن معين قامت في حدود سنة ٤٠٠ق. م.

والذي يرجح لدينا هو أقدمية سبأ، نظراً لأن النصوص القديمة التي ورد فيها اسمهم، عند الآشوريين وفي الكتاب المقدس العبري، صريحة في الكلام عنهم كمجتمع منظم سياسياً وعسكرياً واقتصادياً، بينما لم يرد ذكر مَعِين

(١) Sabatino Moscati, Op. Cit-p. 178.

بصراحة وتحديد في نفس تلك الأزمان. ومهما يكن من أمر الوثـائق المكتوبـة فإن الملاحظ من الناحية الأثرية هو أن الكتابات التي وردت بالخط المسند، من ممالك اليمن المختلفة تبدأ بالكتابات السبئية. ثم إن الآثار غير المكتوبة تبين أن كل هذه التواريـخ متأخرة بالنسبة لقيام الحضارة في اليمن، فهناك آثار ترجـع بالتأكيد إلى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد.

ويرى أستاذنا إدوار دورم[١] أنه من المحتمل جداً أن تكـون المملكتان قـد قـامتا في آن واحـد، أو في وقتـين متقـاربـين جـداً: معـين في الشمـال وسبـأ في الجنوب. ومعين تحمل اسم المدينة التي كانت عاصمة لهـا، وكانت هـذه المدينـة تسمى أيضـاً «قرنـاو»، وقد انتقلت منهـا السيادة عـلى معـين إلى مـدينـة أخـرى أحدث، اسمها «يـاثل»، ولعلهـا قد أصبحت في العـربية الفصحى «وثلة» فقـد ذكرها الفيروزآبادي في القاموس اسماً لقرية، وقال من نـاحية أخـرى «وذو وثلة قَيْلٌ»، يعني من أقيال اليمن وهـم ملوكها القدماء. أما مدينة نجـران فإنها كـانت مدينة مقدسة لكافة اليمن. ويبدو أن معين وسبأ كلتيهما كانتا تحكمان في البدايـة حكماً دينياً كسائر بلاد العالم القديم، ولكن سبأ أقـامت مُلْكاً ودولـة منذ مـرحلة متقـدمة من تـاريخها هي وَقَتَبَـان، وكان اللقب الـرسمي لأمراء هـاتين الـدولتين الأقدمين «مُكَرّب» ويقابله في العـربية الفصحى «مقـرب» وهو أمـير كاهن يقـوم بذبـح القرابين للآلهة[٢]. وكانت العـاصمة السيـاسية لسبـأ هي مدينـة «مأرب» واسمها القديم «مريب».

---

(١) E. Dhorme; Langues et Ecritures Sémitiques; paris 1930, pp. 39 ss.

(٢) هذا ما يراه الأستاذان (دورم) و (موسكاتي) في الكتابين المذكورين، وقـد وردت الكلمة في نقش معيني صيغته هي:
شهر ياليل ــ بن يدعاب مكرب
قتبان، بكر أنباي وحوكم، ذو أمر وسام.

Réperioire d'Epigraphie Sémitique, publié par la commission du corpus inscrtptionum
= Semiticarum— tome 1, Paris 1900-1905.

ويتفق المؤرخون على أن المعينيين انتهوا كدولة في غضون القرن الأول قبل الميلاد، عندما بسط ملوك سبأ سلطانهم على هذا الإقليم، ولعل ذلك يفسر لنا هجرة قبائل يمنية كثيرة نحو الحجاز فقد وجدت نقوش معينية في تيماء، شمال المدينة وفي الواحة الموجودة في الشمال أيضاً والتي كانت تسمى في النصوص القديمة «دَدَن» ويسميها العرب الآن «العلا» كما وُجِدت لهم نقوش في «مدائن صالح» بالقرب من العقبة.

وكان المعينيون منذ أن تضعضعت دولتهم يشتغلون بالنقل بالقوافل وبالتجارة في كل أرجاء الشرق الأوسط تقريباً. بل عُثر على تابوت معيني يحمل نقشاً بهذه اللغة في مصر، يرجع إلى عهد البطالسة، وهو محفوظ الآن في المتحف المصري بالقاهرة. وكذلك عثر في «ديلوس» وهي إحدى جزر بحر إيجة على نقش يرجع إلى القرن الثاني قبل الميلاد باللغتين المعينية واليونانية. وهذاالنقش يشير إلى قيام رجلين من معين ببناء مذبح لإلهها (ودّ).

وفي جنوب اليمن قامت مملكة سبأ القديمة في عهد الملوك الكهنة الذي أشرنا إليه، وكانت عاصمتها قبل مأرب هي مدينة «صِرْواح». وإلى هذه الحقبة تنتمي ملكة سبأ المشهورة في تاريخ سليمان بن داود. ولم يكن اسم هذه الملكة يقيناً «بلقيس» وإنما كانت هذه صفة، تنطق في العبرية وفي الآشورية «بِلَّجِش» أو «فلجش» ومعناها العشيقة أو المرأة غير الشرعية، والراجح أن ملكة سبأ وصمت بذلك من الشعب اليهودي الذي لم يكن يستريح إلى مثل هذه الصلات بين ملوكه والنساء الأجنبيات.

بعد ذلك انتقلت السيادة إلى أمراء مأرب، وحدث مع ذلك التحول الذي

وهو النقش رقم ٣١٢ في هذا المجلد، ص ٢٦٤ ــ وترى لجنة العلماء الفرنسيين التي أشرفت على نشره أن لفظ (مكرب) هذا ليس إلّا لفظ (مكرم) في العربية الفصحى، وهكذا يكون (مكرب) قتبان (هو مكرم قتبان) أو (أمير قتبان) حسب رأيهم.

أشرنا إليه من حكومة دينية إلى حكومة مدنية. وقد ظل ملوك مأرب في الحكم إلى حوالي سنة ١١٥ ميلادية حيث انضمت إمارة صغيرة مجاورة لمأرب اسمها «ذُو رَيْدان» إلى سبأ، وبدأت تنتعش سياسياً، وكان سكانها قبائل يُعرفون باسم حِمْيَر فأسسوا معقلاً جديد لهم في مدينة «ظفار». ومنذ ذلك الوقت كثر ذِكْرُ حمير إلى جانب سبأ في كتابات الأمم المختلفة عن اليمن، بل قَلَّ ذِكْرُ سبأ وكثر ذكر حمير. وفي خلال هذا التطور دخلت إمارات اليمن الجنوبية الواحدة تلو الأخرى في مملكة سبأ أو حمير، فبدأ هذا العرش الموحد بضم معين ثم قتبان وحضرموت، بحيث جاء القرن الثالث الميلادي والسبئيون يسودون كل جنوب شبه الجزيرة العربية.

كانت اليمن، بكثرة خيراتها، وموقعها الممتاز على طرق المواصلات البرية والبحرية القديمة، محطَّ أنظار الطامعين والمستعمرين، وقد اتجهت إليها أنظار الرومان والفرس منذ القدم. ففي عهد الإمبراطور الروماني أوغسطس، وفي سنة ٢٤ قبل الميلاد، قامت حملة رومانية لغزو اليمن بقيادة «إيليوس جالوس» الذي قطع البحر الأحمر بجيشه بعد صعوبات رهيبة ثم أنزل جنوده على أرض الجزيرة العربية فاحتلَّ مدينة نجران وخَرَّبها، وظل يلقى مقاومة عاتية من عرب اليمن على مدة ستة أشهر حتى وصل أمام مدينة مأرب، التي دُعيت في النصوص اللاتينية «مَارْيُوبَا». ولكن الشقة كانت بينه وبين تلك المدينة ما تزال بعيدة، وقد تفشى المرض والإعياء بين جنوده فعدل عن فتح اليمن، وانسحب منها عائداً إلى الإسكندرية.

واتجهت أنظار الأحباش أيضاً إلى اليمن فاحتلوها لفترة قصيرة خلال القرن الرابع الميلادي، إذ سرعان ما قام الحميريون بتحرير بلادهم. ولكن حدث أن انتشرت المسيحية في الحبشة، وبدأت تنتشر في اليمن أيضاً. وكان في اليمن عدد كبير من اليهود الذين رأوا في هذه البلاد، منذ سليمان وملكة سبأ، أرضاً طيبة يلجأون إليها، وكان عدد لا بأس به من عرب اليمن قد تهوَّد أيضاً، فنشأ بسبب ذلك كُره بين اليمن والحبشة وصل في بداية القرن السادس الميلادي إلى أن اليمن،

التي كانت تحت حكم أمير حِمْيري هو «يوسف ذونواس» يحكمها من قبل الإمبراطور الحبشي «الأصبان» ثارت ضد سيطرة الحبشة عليها. وقاد هذه الثورة ذونواس نفسه، فغيَّر دينه من المسيحية إلى اليهودية، وأعلن تحريم المسيحية في كل أنحاء اليمن، وجعل عقوبة من يبقى عليها القتل والإحراق في النار. وقد تبعه عدد كبير من اليمنيين فتهودوا، ولكن بقيت مدينة نجران، معقل المسيحية في اليمن، ترفض دعوة «ذي نواس». فدخلها وقام فيها بمجزرة بشرية رهيبة تجاوبت أصداءها الحبشة وبيزنطة وبلاد الفرس. وجاء إمبراطور الحبشة الأصبان على رأس جيش جرار لإخضاع اليمن والانتقام للقتلى المسيحيين. فقام هو أيضاً بمذبحة رهيبة بين اليهود والمتهودين اليمنيين قُتل فيها ذو نواس نفسه(١).

وبعد هذه الحوادث بفترة قليلة من الزمن كان الحاكم الحبشي لليمن «أبرهة» قد أعلن استقلاله بهذا الجزء من بلاد العرب، واعترفت الحبشة بسيادته عليه. وفي حكم أبرهة أخذ الاضمحلال السياسي والاقتصادي يتفشى في اليمن؛ ففي ذاك الوقت كان النقل البحري قد ارتقى رقياً محسوساً، وسيطر عليه الرومان والمصريون والهنود، بحيث لم يَعُدْ لليمن مورد كاف من النقل البري بالقوافل. وجاء انهيار سد مأرب، سنة ٥٤٢ ميلادية. فأجهز على البقية الباقية من الازدهار القائم على الزراعة في هذه البلاد مُحَوِّلاً إياها إلى مناطق مقفرة، إلا القليل من أرضها الذي ترويه الأمطار الصيفية أو تنساب فيه بعض السيول أو الجداول.

وأبرهة هذا هو الذي حاول أن يمد ملكه من اليمن، فيسيطر على الحجاز أيضاً. كانت حجته في ذلك أن الكعبة التي تقوم في مكة، ويكفل سدانتها والدفاع عنها سكان تلك المدينة المقدسة القديمة من قبيلة قريش، كانت معقلاً للوثنية، ومقراً للأصنام. وكانت مع ذلك تنافس مدينة نجران اليمنية المسيحية،

---

(١) وجاءت إشارة إلى هذه الحادثة في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدود. النَّارِ ذاتِ الوَقُودِ. إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ. وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بالمُؤْمِنِينَ شُهُود﴾.

(سورة البروج: الآيات ٤ ـ ٧)

وتصرف أنظار العرب عن الكنيسة الكبرى التي أقامها هو نفسه في صنعاء. وقد تعلل بأن بعض القرشيين قد أرسلوا خصيصاً لتدنيس هذه الكنيسة الكاتدرائية، فجهز حملةً تأديبيةً توجه بها نحو الحجاز. وكان هدفه الأصلي من هذه الحملة أن يصرف أنظار العرب عن مكة بعد تدمير الكعبة، فيسهل انتشار المسيحية بينهم، وبهذا ينحرف موسم الحج نحو الجنوب بحيث تعود كل فوائده الاقتصادية على نجران وصنعاء.

جاء أبرهة يتقدم جيشاً من اليمنية والأحباش وهو راكبٍ على ظهر فيل، وبالقرب من مكة هلك هذا الجيش بشكل ما يزال سراً خفياً إلى الآن، لا ندري أكان بوباء، أم عاصفةً مقترنةً بالصواعق والبرد، أم كان بعاصفة من الريح الشديدة المحملة بالحصى والحجارة. وصف القرآن ذلك بقوله في سورة الفيل: **﴿أَلَم تَرَ كيف فعل رَبُك بأصحاب الفيل. أَلَمْ يجعل كَيْدهم في تضليل. وأرسل عليهم طيراً أبابيل. ترميهم بحجارةٍ مِنْ سِجِّيل. فجعلهم كعصفٍ مأكول﴾**[1].

وفي هذا العصف المأكول كان أبرهة نفسه، بين من ماتوا على أثر تلك تلك الغزوة الفاشلة. وسمت قريش سنة الغزو هذه (عام الفيل)، وفيه ولد النبي عليه الصلاة والسلام، وكان ذلك سنة ٥٧٠ ميلادية.

جاء على عرش اليمن، بعد هلاك أبرهة حكام ضعفاء. وكانت الفرس تنتظر دورها لاحتلال اليمن ومد سلطانها، بهذا الشكل، من أقصى الحدود الغربية للعراق إلى أقصى ما يمكن أن تمتد به سيطرتها، في منطقة الخليج

---

(١) قد صرَّح القرآن الكريم بما أهلكهم الله به، وهو الحجارة التي قذفتهم بها الطير الأبابيل، جاء في تفسير (صفوة التفاسير): **﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل﴾** أي وسلط عليهم من جنوده طيراً أتتهم جماعات متتابعة، بعضها في إثر بعض، وأحاطت بهم من كل ناحية **﴿ترميهم بحجارةٍ من سجِّيل﴾** أي تقذفهم بحجارةٍ صغيرةٍ من طين متحجر، كأنها رصاصات ثاقبة لا تصل إلى أحد إلاَّ قتلته **﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾** أي فجعلهم كورق الشجر الذي عصفت به الريح، وأكلته الدواب، ثم راثته. (الناشر).

العربي وجنوب شبه الجزيرة العربية، وقد تحقق لها ذلك سنة ٥٧٥، حيث خضع عرب اليمن لكسرى ملك الفرس ولم يحررهم من هذا الاستعمار إلاّ الإسلام، في السنوات الأخيرة من حياة النبي نفسه.

وقد سبق أن ذكرنا أن هجرات يمنية كانت تنطلق باستمرار نحو الشمال، بل لعل الكنعانيين أنفسهم قد جاءوا، في ما قبل التاريخ، من هذه الجهات أيضاً كما بيّنّاه عند حديثنا عنهم. ولكن الذي لا شك فيه هو أن هجرة اليمنية إلى الشمال أخذت أكثر من شكل؛ هاجروا على شكل قبائل بدوية نسيت لغتها وتكلمت لغة الشمال، ومن هؤلاء طيء وكندة والأزد، بل هناك قبائل مثل قُضاعة اختلف أبناؤها: أهم ينتمون إلى عرب الشمال أم إلى عرب الجنوب، واحتج من يميلون إلى إلحاقها بعرب الجنوب بقول الراجز:

يَا أيها الدَّاعي ادْعُنا وأَبْشِرِ وكُنْ قُضاعِياً ولا تَنَزَّر
قضاعةُ الأعلَوْن خيرُ معشرِ قضاعة بن مالك بن حميرِ

وهو أمر يثبت شدة الاختلاط والامتزاج بين العنصرين.

ولكن كانت عرب الشمال تلاحظ أن لغة حمير في مواطنها باليمن لغة أجنبية بالنسبة للعربية الفصحى، فقالوا: «مَنْ دخل ظفارِ حَمَّر». وقالوا أيضاً: «ما لسان حمير بلساننا». ومع هذا فهناك أيضاً أثر للكتابة الحِميرية على تطور الكتابة في شمال شبه جزيرة العرب، فاللهجة الثمودية، في إقليم مدائن صالح، والجوف، والحَرة (قرب تبوك)، واللهجة اللحيانية في العلا (دَدَن)، وفي الحُرَيْبَة، واللهجة الصفوية التي عثر على نقوشها في جبل الصفا إلى الجنوب الشرقي من دمشق، كلها قد استعملت الخط المسند، وهو خط المعينيين والسبئيين والحميريين متطوراً، ولم تستعمل الأبجدية الآرامية كما استعملها التدمريون والنبط مثلاً.

وما تزال الحضارة اليمنية غير واضحة المعالم تماماً لقلة الحفائر الأثرية في أيام الأئمة من أسرة حميد الدين، وذلك للتخلف العلمي والاجتماعي وعدم توفر وسائل الراحة والأمن للأثريين الأجانب، مع كثرة الأوبئة في تلك البلاد.

ومـع هذا النقص في وسـائل البحث العلمي عن الحضارة اليمنيـة، فـإن الذي بين أيدينا من آثار هذه الحضـارة أن عرب هـذا الإقليم كانـوا قد تـطوروا كثيراً، وعلى نحو لـه خصائصه المميزة، سواءً أكان ذلك في الكتابـة، وقد أشـرنا إلى اختلافها عن الكتابة الأبجدية الشمالية، أم في الدين أم في اللغة.

فمن ناحية الدين ذكرنا أن الإِلّه الوطني للمعينيين هـو «وَدّ»، أما إلـه سبـأ وحمير فكان يسمى «مُقَة»، وكانت قَتَبَان تعبد الإلّه «عمّ» ويبدو أن الآلهة الثلاثـة كانت آلهة قمرية من نوع الإلّه «سين» عند الشومريـين والأكاديـين. كما يبـدو أن الإلّه القمرية كانت أكثر من ذلك، إذ هناك أيضاً في النقـوش العربيـة الجنوبيـة الإله «ورخن»، والظاهـر أنه كـان يدل عـلى الهلال، فقـد استعملت في اللغات السامية كلها تقريباً ألفاظ مشابهة لهـذه اللفظة لمعـانٍ متصلةٍ بالهـلال منها (يـرَحْ) بالعبرية و (يَرْحَا) بالسريانية والآرامية و (أرْخُـو) أو (وَرْخُو) بـالآشوريـة و (أَرَخْ) بالبابلية و (وَرْخ) بالعربية اليمنية والحبشية، كلهـا بمعنى القمر والهـلال والشهر، ومنها جاء في العـربية الفصحى الفعـل(أَرَّخَ) أي حسب حساب الأيـام والشهور على دورة القمر، والاسم (التاريـخ)[1].

وقـد ورد من أسـماء الأصنـام في القـرآن مقتـرنـة بـاسم الصنم (ودّ) اسم (سـواع)، قال الـزبيدي في شـرح القامـوس: وسُـواع بـالضم في قولـه تعـالى: ﴿لاَ تَذَرُونَّ وَدَّاً ولا سواعاً﴾ (سورة نوح ٢٣) والفتح لغة فيه، وبه قرأ الخليل، اسم صنم كان لِهَمْدان، وقيل عُبِدَ في زمن نـوح عليه السـلام فدفنـه الطوفـان، فاستثاره إبليس لأهل الجاهلية، فعُبِدَ من دون الله عـز وجل، كـذا نص الليث. وزاد الجوهري: ثم صـار لهُذيـل، وكان بِـرهاط، وحُـجَّ إليه، قـال أبو المنـذر: ولم أسمع بذكره في أشعار هذيل. وقال رجل من العرب:

(١) Wilhelm Cesenjus' Hebrâisches und Aramâisches Handwôrterbuch, bearbeitet von Dr. Frants Buhl —Leipzig 1921.

تـراهـم حــول قيلهـم عـكــوفـا   كمـا عكفت هُـذيــل على سُــواع
يـظل جَنَــابَــهُ بِــرُهَــاطَ صــرعى   عـــتــائــرُ مِنْ ذخــائــرِ كــلِّ راعِ

واسم سُواع يرجع إلى فعل سامي قديم يأتي حرف العلة في وسطه أحيانـاً فنقـول في العربيـة مثلاً: (شَيَّـع) بمعنى صحب إنسـاناً لحـراسته وهـو في اللغات السـامية الأخـرى يكون بحـرف العلة في أوله أو وسـطه، ومعناه عمـوماً أنقـذ، ونجّى، وأخرج من ضيق أو كرب، وهـو الذي أصبـح في اللغـة العربيـة الفعل (وسع) ويرتبط به في اللغات السامية الأخرى أسماء مثل يَسـوع ويُوشَع وإشعيا، فكلها من الفرج بعد الشدة. وقـد ورد اسم إلّـه في النقوش الصفـوية التي عـثر عليها المستشرق الأثري الفرنسي «رينيـه ديسو»[١] في بـادية سـوريا وشمـال نجد يقال له «شيَـعْ القوم» وربما كان (سُواع) هو الاسم القديم اليمني الذي تطور في الشمال إلى (شَيْـع).

ومن الأصنام المذكورة في القرآن، وفي نفس الآية التي ذكرناها (يغـوث)، وقد ذكره الفيروزآبادي وقال إنه صنم كـان لمذحـج، وهي قبيلة يمنية الأصـل بل ذكر الزبيدي أنه «شعب عظيم فيه قبائل وأفخاذ وبطون، واسمه مالـك بن أدد، قال العيني. قال ابن أبـي الحـديد في شـرح نهج البلاغـة، كالمبـرد في الكامـل: «مذحج هـو مالـك بن زيد بن كهـلان بن سبأ». وفي اللسـان: «ومذحج مالـك وطيء، سميا بذلـك لأن أمهما لما هلك بعلها أذحجت عـلى ابنيها طيء ومـالك هذين، فلم تتزوج بعـد أدد». وقد ورد اسم يغـوث في النقوش الصفـوية أيضـاً كما أنه عرف بهذا الاسم في النصوص اليونانية[٢].

وثمة صنم آخر مذكور في الآية الكريمـة اسمه (يعـوق)، قال الـزبيدي في شرح القاموس: ويعوق صنم كان لكِنانة، عن الزجاج، وقِيل: كـان لقوم نـوح

(١) René Dussaud, avec la collaboration de Fréderic Macler, Mission dans les régions désertiques de la Syrie moyenne — 1903.

النقوش: ٩٣٢، ٣٩٣، ٣٩٥، ٧٤٢، ٨٨٢، ٨٨٨.

(٢) نفس المرجع السابق؛ ص ٢٢١.

عليه السلام، كما في الصحاح، أو كان رجلاً من صالحي أهل زمانه، فلما مات جزعوا عليه فأتاهم الشيطان في صورة إنسان، فقال: أمثله لكم في محرابكم، حتى تروه كلما صليتم. ففعلوا ذلك به، وبسبعةٍ من بعده من صالحيهم، ثم تمادى بهم الأمر إلى أن اتخذوا تلك الأمثلة أصناماً يعبدونها من دون الله، تعالى الله علواً كبيراً. والزبيدي لم يحاول، لا هو ولا غيره من اللغويين الأقدمين الربط بين يعوق و (العَيُّوق) الذي يأتي في نفس هذه المادة من المعاجم، اسم نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن، يتلو الثريا، لا يتقدمها ويطلع قبل الجوزاء. وسمي بذلك لأنه يعوق (الدبران) عن لقاء (الثريا).

ويرد في نفس الآية صنم آخر اسمه نسر؛ ونجد في شرح المحيط للزبيدي «قال الجوهري»: (نسر) صنم كان لذي الكلاع بأرض حِمْيَر، وكان يغوث لمذحج، ويعوق لهمدان، من أصنام قوم نوح عليه السلام». وهنا أيضاً تذكر المعاجم أن كلمة نسر اسم لكوكبين، يفرقون بينهما فيقولون (النسر الواقع) و (النسر الطائر)، والراجح أن يعوق ونسرا كانا كوكبين، قبل أن يكونا صنمين، مثلهما في ذلك مثل آلهة وثنية كثيرة. فعشتروت مثلاً كانت في الأصل كوكباً، ثم أصبحت لها تماثيل تجعلها رمزاً للأنوثة والأمومة، وكذلك أفروديت عند اليونان وفينوس عند الرومان. وقد دان أهل اليمن القدماء بديانة عشتروت وسموها (عشتر)[1]، وتخيلوها ذكراً لا أنثى مخالفين بذلك كل مواطن الساميين التي عُبِدَتْ فيها عشتروت.

وهناك آلهة محلية[2] ففي إمارة حضرموت كان إله القمر يسمى (سين)

---

(١) وردت في النقش رقم ٣١١ ص ٢٦٠ من مجموعة النقوش السامية التي نشرتها لجنة من العلماء الفرنسيين وذكرناها آنفاً ــ المجلد الأول، باريس، ١٩٠٠ ــ ١٩٠٥. وهذا النقش معيني، يقول في ختامه كاتبه: تبع كرب ذو ذرح بن شهرنين كاهن (عم) متوسلاً، بعشتر، وعم، وأنباي، وذات صلت، وذوات ظهر، ويدعاب ذو بر وابنه. . . إلخ.

(٢) موسكاتي، المرجع السابق ذكره؛ ص ١٢٨ وما بعدها.

وهو الاسم العام له في الديانات العراقية، بينما كان يعرف بأسماء أخرى ذكرناها عند اليمنية: ودُّ في معين، والمُقة في سبأ، وعمّ في قتبان. كذلك كانت قبيلة همدان الحميرية تعبد إلّهاً خاصاً بها اسمه (ثعلب). كما كانت هناك قبائل تعبد الإله (بعل)، أو الإله (شمس) وهي آلهة سامية عامة. وكان أهل اليمن القديم شديدي التعلُّق بآلهتهم، وكانت وثنيتهم مبنيةً على كثرة المعبودات وتعددها وتقديسها جميعاً. وكانوا يكثرون من القرابين ومن بناء المعابد وكانوا يحجون إلى هذه المعابد، ومن أشهرها وأحدثها كشفاً معبد ذات بعدان بالقرب من صنعاء ومعبد للإله سين إلّه القمر في حضرموت، بالقرب من «حريضة».

واللغة اليمنية القديمة لغة موقوفة، أي لا يوجد فيها إعرابٌ على أواخر الألفاظ، وهي بهذا الوضع تعتبر خطوة متطورةً شديدة التطور بالنسبة للسامية الأم، التي يتأكد لنا أنها كانت معربة مثل العربية الفصحى ولكنها احتفظت بتنوين الأسماء.

كذلك هناك تطور من ناحية اللفظ، فبعض حروف الصفير مثل السين تحل في هذه محل الهاء في الضمير المنفصل، فحيث يقال في اللغة العربية الفصحى (هو) و (هي)، كان يقال في العربية الجنوبية (سو) و (سي)، وهو تطور سارت فيه البابلية الآشورية على تقادمها في العهد؛ إذ نجد فيها (شو)و (شي).

كذلك ظهرت أداة التعريف في العربية الجنوبية ، لا مثل (ال) في العربية الفصحى، ولكن بأشكال مختلفة منها (الهاء) و (هل) و (هن) كما سمع أيضاً (أم) كأداة التعريف على لسان اليمنية في عهد النبي ﷺ. ولكن يبدو من ملابسات الحديث، أن (أم) التي للتعريف هذه، كانت لهجة لليمنية إذا تكلموا بلغة عرب الشمال أو على الأصح باللغة العربية الفصحى.

لم تمت الحميرية في العصر الحديث نهائياً، بل كان شأنها شأن الآرامية التي بقيت منها بضع قرى تتكلم لهجةً عاميةً آرامية إلى الآن كما أسلفنا. فهناك أيضاً طائفةً من اللهجات الباقية من الحميرية القديمة إلى يومنا هذا، تستعمل في بعض

مجتمعات من أصول يمنيةٍ وحضرميةٍ تعيش في أقصى الجنوب في شبه الجزيرة العربية، على ساحل المحيط الهندي، وقد اشتهرت في هذا الإقليم لهجتان إحداهما اللهجة التي يسمونها (مَحْري)، والثانية (شخوري)، تضاف إليهما لهجة مستعملة في جزيرة (سُقُطْرَى) المواجهة للجنوب العربي في المحيط الهندي ويسمونها (سقطري). وهي لهجات غير مكتوبة كما أنه ليست لها ثقافة ما عدا بعض الأمثال والمأثورات القليلة الشعبية. وقد عُني الرحالة الأوروبيون والمستشرقون والمبشرون وعلماء اللغة والمستعمرون، بهذه اللهجات ووسَّعوا دراستهم لها، ومن أهمهم البريطاني «برترام توماس»[1]، الذي اكتشف وجود مجموعة لغويةفي هذه المناطق اسمها (هدارة) تضم الشخوري من ناحيةٍ، والمحري ومعه البوتهري والهرسوسي من ناحيةٍ أخرى. واللهجة التي تسمى بوتهري تتحدث بها مجموعة من الصيادين اليمنيين على ساحل عُمان المكون لخليج (كوريا موريا)، ومجموعة الجزر الصغيرة الواقعة في هذا الخليج. أما الهرسوسي فهو لهجة لقبيلةٍ صغيرةٍ جداً لا يتجاوز عدد أفرادها المائتين، تعيش متجولةً إلى الشمال من خليج (كوريا موريا)، وهي تتكلم الهرسوسي والعربية على السواء.

وللحضارة اليمنية القديمة، من حيث اللغة، والكتابة، والعلاقات السياسية والاجتماعية، امتداد طبيعي في القارة الأفريقية هو بلاد الحبشة. إذ إن الطبيعة الجبلية، والمناخ الحار، والموقع الساحلي على المحيط الهندي والبحر الأحمر جعل من الحبشة غرباً إقليماً شديد الشبه باليمن شرقاً. وبوغاز باب المندب الفاصل بينهما كان في حقيقة الأمر فاصلاً وواصلاً في آنٍ واحدٍ، إذ هو ممرٌّ مائيٌّ ضيق يغري كلا طرفيه بالعبور إلى الطرف الآخر، ووراء شطيه خيراتٌ كثيرة

---

(١) Bertram Thomas, four strange tongues from south Arabia, the Hadara Group.
وهو بحث منشور في محاضر الأكاديمية البريطانية، مجلد ٢٣ (سنة ١٩٣٧) ــ لندن.

تجذب هؤلاء العابرين. فليس عجيباً أن تحدث عبر هذا المضيق هجراتٌ بين الشطين منذ أقدم العصور، منذ فجر الإنسانية في ما قبل التاريخ على الأرجح، مما كان عاملاً أساسياً في امتزاج اللغات الإفريقية الحامية، واللغات الآسيوية السامية، وظهور ما أطلق عليه كثيرٌ من الباحثين في مقارنة اللغات وتصنيفها اسم (مجموعة اللغات الحامية السامية). وسوف نعطي فكرةً تاريخيةً ولغويةً عن الحبشة بمجرد انتهائنا من إلمامة ببقية سكان شبه الجزيرة العربية، وهم العرب الشماليون .

ولعلنا قد لاحظنا أن أطراف الجزيرة العربية شمالاً وجنوباً، وهي مناطق صالحة للزراعة، ملائمة للحياة المستقرة، كانت مهداً للهجات كلها متطورة، أصبح أكثرها لغات قائمةً بذاتها، كالثمودية، واللحيانية، والصفوية شمالاً، وكالمعينية والسبئية الحميرية والحضرمية القتبانية جنوباً. وعلى ذلك يكون العرب الذين انطلقت منهم الحضارة العربية التي نعرفها، واللغة الفصحى التي ورثناها، هم سكان البوادي الواقعة في قلب شبه الجزيرة بين الشمال والجنوب؛ وهو الجزء الأعظم منها.

والظاهرة التي يجب التنبه لها هي أن هؤلاء العرب الذين نعنيهم هنا، كانوا حسب نتائج البحوث اللغوية، والدراسات السكانية والحضارية لمنطقة الشرق الأدنى، أقدم أمة سامية عاشت في موطنها لم تتركه. ولكنهم مع ذلك كانوا أحدث أمة سامية ظهوراً على مسرح التاريخ. كما أن لغتهم تبدو، طبقاً لما ذكرناه في الكلام عن أصل الساميين، أقدم لغة في هذه المجموعة، بالرغم من أن آثارها المكتوبة كانت آخر ما سَطَّرته أقلام الساميين في هذه المنطقة.

كان لهؤلاء العرب ماضٍ طويل عرفنا طرفاً منه من خلال كتابات الأكاديين والعبريين. وتبدو ملامح أكيدة من هذا الماضي في متن اللغة العربية الفصحى نفسها، على نحو نشعر معه بأن مساهمة العرب في تجارة الشرق الأوسط أدخلت إلى لغتهم كلمات كثيرة قديمة، من أمم اتصلوا بها قبل العصر

الجاهلي الذي حدده علماء تاريخ الأدب العربي، وجعلوه لا يكاد يوغل إلى ما وراء القرن الخامس الميلادي. ولنذكر على سبيل المثال بعض هذه الألفاظ:

التاجر: وهي كلمةٌ مأخوذةٌ عن اللفظة الأكادية (تَمْقَر) أو (تَمْجَر). وقد دخلت نفس الكلمة إلى الآرامية بلفظ (تَجارا). وكان استعمال الآراميين لها للدلالة على بائع الخمر خاصةً.

التبر: بمعنى الذهب المسحوق، وهو من الأكادية (تبيرو) ومعناه الصائغ، أو المشتغل في المعادن، وليست مأخوذةً من الفعل الآرامي (تبر) بمعنى كسر، كما رأى الأب رفائيل نخلة[1]، إذ كلمة تبر، حتى في الأكادية مأخوذةٌ من الشومرية[2].

إكار: ومعناها فلاح، وهي في الأكادية (إكارو).

صرصر: وهو صفة للريح الشديدة الباردة، والكلمة من أصل آرامي.

إفك: وهو الكذب المبين، من فعل موجود في اللغات الكنعانية والآرامية هو (هفك) ومعناه قلب رأساً على عقب، وَبَدَّل، وغيَّر.

بيدر: وهو الجرن الذي تدرس فيه الحبوب، وأصله من كلمتين آراميتين هما (بيت، ادرا) ومعناه بيت درس الغلال وتذرية التبن، وكانوا يستعملون لفظة (أدرا) وحدها بدون كلمة بيت، وقد دخلت العربية بلفظ (أندر) بمعنى بيدر.

جَوَّاني وبَرَّاني: من الآرامية (جو) بمعنى داخل الشيء وقلبه و (بَرَّ) بمعنى خارجه.

درب: بمعنى الطريق، وهو بنفس المعنى في الآرامية.

---

(١) غرائب اللغة العربية، الطبقة الثانية، بيروت ١٩٦٠، ص ١٧٥.

(٢) أنظر مثلاً:

Carl Bazold, babylonisch — Assyrisches glossar, Heidelberg 1962 — p. 291.

دمية: بمعنى الصورة والتمثال والصنم، وهي من فعل مستعمل في الكنعانية والآرامية معناه أَشْبَهَ، وكان على صورة شخص أو شيء آخر.

سَبْط: صفة للشعر المسترسل أو العظام الطويلة، وهو من كلمة (شِبِط) في الكنعانية والآرامية بمعنى الغصن الطويل المستقيم، الفرع.

سامور: وهو اسم للحجر الكريم المعروف بالماس، وهو في العبرية (شامير)، وفي الآرامية (شامورا).

صيدلاني: صيدلي، وهو في السريانية (صيدنايا)، منسوب إلى مدينة صيدا في لبنان، لكثرة من كانوا يحترفون تركيب الأدوية من أبنائها في الزمن القديم.

تَنُّور: وهو الفرن، والكلمة موجودة في اللغة الآرامية، وقد تردد الباحثون في أصلها، فقالوا: إن التاء بقية من كلمة بيت، ونور في الآرامية معناها (النار) فيكون معنى الكلمة بيت النار. وقال آخرون: إنها مكونة من كلمة تن بمعنى دخان في الآرامية، ونور التي معناها النار. والظاهر أنّ الكلمة أقدم من ذلك بكثير، فهي صيغة اسمية مبتدئة بالتاء من مادة (ن أ ر ـــ ن و ر) في اللغة الأكادية، ومعناها اشتعل والتهب وأضاء، واستعمل الأكاديون كلمة (تنور) ولكن بكسر التاء، بنفس المعنى الذي تدل عليه الكلمة في الآرامية والعربية، ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن نفس الكلمة مستعملة في العربية القديمة، وفي المصرية الفرعونية، وفي الفارسية القديمة أيضاً، ومما يرجح أن مصدرها هو العراق القديم التوسع في استخدام النار قديماً هناك، حتى في الأغراض الصناعية، كعمل الفخار الذي بدأ مبكراً جداً.

خُلْد: وهو حيوان صغير من فصيلة القوارض، لا يبصر، ويعيش حياته في أنفاق ودهاليز يحفرها في الأرض، وأصله من الفعل الآرامي «حلد» بالحاء المهملة، ومعناه في هذه اللغة «حفر»، ومن الأدلة على كون الخلد اسماً غريباً على العرب أنه لا جمع له من لفظه وإنما يجمع على «مَناجِذ».

النورج: وأصله الفأس الآرامية، واستعمل بمعنى حديدة المحراث التي يسمونها بالفصحى (سكة المحراث)، واستعمل أيضاً للآلة الزراعية التي تدرس بها الحبوب.

والعبرية أيضاً تركت بعض مخلفاتها القديمة في متن اللغة العربية، فمن ذلك:

شاش: وهو نسيج رقيق من القطن، وقد جاء بنفس المعنى في العبرية القديمة، التي كانت أخذته بدورها من المصرية الفرعونية، والكلمة تنطق في العبرية بإمالة الفتحة إلى الكسر. وأرجع بعضهم نسيج (الشاش) إلى بلدة بهذه الاسم في إقليم الصغد. (وبهذه المناسبة فإننا نذكر أن هذه الكلمة بنفسها في اللغة العبرية تستعمل أيضاً بمعنى النقي الصافي من حجر الرخام. وهي بهذا المعنى أيضاً مأخوذة عن المصرية الفرعونية، ولكن كان بينها وبين العبرية وسيط هو الأكادية، التي نجد فيها كلمة (شاشو) بنفس المعنى. والعبرية إذا استعملتها للدلالة على حجر الرخام نطقتها بالفتح أو بالإمالة أو بالياء اللينة «شايش»).

جدث: وهو القبر، وورد في نطقه (جدف)، وهو في العبرية (جديش) ومعناه التل فيه قبور.

جهنم: وهي من العبرية (جي) معناها الوادي، و (هِنُّم) اسم قبيلة وثنية كانت تقطن جنوبي مدينة القدس، وكان من تعاليمها الدينية تقديم الضحايا البشرية من الأطفال قرباناً لمعبود لهم اسمه «مُلُك»، يذبحونهم ويلقونهم في النار في هذا الوادي، فاشتهر باسم (جي هنُّم)، وشاع اسمه للدلالة على عذاب الآخرة.

دواة: وهي وعاء الحبر، ولا علاقة لها بالدواء الذي يأخذه المرضى، ولا بالدويّ بتشديد الياء، وهو الصوت العالي، ولا بتشديد الواو، بمعنى الصحراء، ولكنها ترجع إلى كلمة (ديو) العبرية ومعناها الحبر، وهي مستعارة

على الأرجح من اللغة المصرية القديمة، ومنها جاء في الآرامية (ديوتا)، وكذلك في السريانية، بمعنى الحبر[1].

والفارسية لها من العربية وضع دقيق.

ذلك أن الفرس اتصلوا بعالم الساميين في عصور سحيقة موغلة في القدم، إما عن طريق الخليج العربي وجنوب شبه الجزيرة. وإما عن طريق العراق، حيث أقام الأكاديون، ومن بعدهم البابليون والآشوريون ثم الكلدانيون، دُوَلَهُم. كما أن هناك طريقاً هاماً ثالثاً هو قوافل الآراميين التي كانت منذ أواسط الألف الثاني قبل الميلاد تشق طريقها بالتجارة عبر كل من إيران وأفغانستان وجنوب روسيا من الهند وإليها. يضاف إلى ذلك اكتساح الفرس لبلاد الساميين في القرن الخامس قبل الميلاد، ووصولهم إلى مصر نفسها واحتلالها.

كل هذا أوجد تبادلاً لغوياً بين الساميين والفرس في عصور قديمة سابقة على الإسلام. ثم انطلق العرب على أثر ظهور الإسلام فاتحين، ناشرين للدين الجديد، ومعه لغتهم، لغة القرآن. ثم انتفضت الشعوبية في العالم الإسلامي فأعادت إلى أعاجم المسلمين، من الفرس والترك والأفغان والباكستانيين (بلاد السند)، لغاتهم القديمة مشوبة بكثير جداً من العربية. في هذا الدور الإسلامي أيضاً، أي منذ الفتح العربي لبلاد فارس على أيام عمر بن الخطاب، تمَّ انتشار العربية في تلك البلاد، ثم انحسارها عنها منذ أواخر القرن الرابع الهجري،فحدث تبادل لغوي تسربت إلى اللغة العربية خلاله آلاف من الكلمات. والوضع الدقيق الذي أشرنا إليه هو: كيف يمكن التمييز بين الدخيل الفارسي القديم الذي أصبح فصيحاً، والحديث الذي ظل غريباً في بناء لغة العرب؟.

من وسائل ذلك أن تكون الكلمة الفارسية الأصل ذات تاريخ أكيد،

---

(1) W. Gesenius; Op. Cit. p. 191 a.

وعليها شواهد من كلام العرب، قبل الفتح الإسلامي لبلاد العجم، أو أن تكون الكلمة موجودة في اللغة العربية بنطقها الفارسي القديم، بينما هي نفسها قد تطوَّرت إلى نطق متغير في الفارسية الحديثة. فمن ذلك لفظة إبريق، وهي مشتقة من (آب) يعني الماء، وكلمة أخرى من الفعل (ريختن) بمعنى سكب. ونلاحظ أن كلمة «إبريق» غير معروفة في الفارسية الحديثة، والمعروف هو(أَبْرِيز) بمعنى دورة المياه، أي حيث ينسكب الماء.

استبرق: وهو نسيج من الحرير تتخلله سلوك من الذهب أو الفضة تعطيه بريقاً، ولولا غرابة وزن الكلمة الصرفي بالنسبة لمعناها، وأن أكثر اللغويين يعتبرونها من أصل فارسي، لجعلتها عربية الأصل من مادة (برق)، ولكنهم قالوا: إنها ترجع إلى كلمة (استبرك)، وهو ثوب من حرير مطرز بالذهب.

برهان: وهو الدليل والحجة، وأصله على الأرجح من الفارسية (بروهان) بالباء الفارسية الثقيلة، ومعناها الواضح، الذي لا يحتاج إلى إثبات.

بستان: من الفارسية (بوستان)، ولفظه «بو» تعني الرائحة، وخاصة الرائحة الطيبة، و«ستان» معناها مكان أو موضع، فيكون المعنى الحرفي للبستان: موضع الرائحة الطيبة.

جردق: وكذلك جردقة، وهو رغيف الخبز، وقد ضاعت هذه القاف الأخيرة من نطقه الحديث الذي أصبح (كرده) بكاف فارسية.

خندق: ضاعت قافه، وتطور نطقه الحديث في الفارسية إلى (كنده).

رستاق، رسداق، رزداق: وهي بالعربية القرية وزمامها من الأرض الزراعية، وهو في الفارسية (روستا) ضاعت منه القاف، ومعناه قرية.

زركش: أي زيّن بالذهب، من الفارسية (زر) أي ذهب، وكلمة مشتقة من الفعل (كشيدن) يعني سَحَب.

زنبق: اسم زهرة معروفة، وهو بالفارسية الحديثة (زنبه) بلا قاف.

زيق: وهو من الثوب طوقه الذي يحيط بالرقبة، من (زه) بلا قاف ومعناه الحافة.

ساذج: وهو البسيط من كل شيء، بالفارسية الحديثة (ساده).

سبيج: وهو في العربية قميص بلا كمين للنساء، في الفارسية (شَبِي) ومعناه ليلي، خاص بالليل.

ستوق: وهو الدرهم المزيف المطلي بالفضة. وفي الفارسية (ستو) النقود الزائفة من لفظة (سه) أي ثلاثة، و(تو) ومعناها الحشو، والمقصود كون ذلك الدرهم مركباً من ثلاث طبقات؛ اثنتان خارجيتان من الفضة، وواحدة داخلية من معدن خسيس.

سِجِّيل: وهو حصي كالحجارة من الطين اليابس، وأصله من (سنك) بالكاف الفارسية، أي حجر، و(كل) بالكاف الفارسية، يعني طين، فيكون معناه الطين المتحجِّر.

سراب: من الفارسية (سر) يعني المخيلة، و(آب) أي الماء، والمعنى، ما يصوره الخيال كأنه ماء. (هذا ما يقوله بعض اللغويين في هذه الكلمة؛ وعندنا أنها قد تكون سامية أصيلة من نفس الأصل الذي جاءت منه اللفظة العبرية «شراب»، أي شدة حر الشمس في الصيف، وقد اشتقوا منها في العبرية المتوسطة والآرامية الفعل «شرب» بمعنى جَفَّ من شدة الحر، ولعل هذا هو الأصل الذي تطور عنه أيضاً الفعل العربي «شرب» الذي يتم بامتصاص الماء أو غيره من السوائل وابتلاعه، وذلك يكون واضحاً عند الكائنات الحية وكثير من المواد المسامية عندما يشتد الحر ويكثر الجفاف).

طراز: وله في العربية معنيان، أحدهما التطريز وهو فن من فنون الخياطة أصله من الفعل (درز) بمعنى خاط بالإبرة، ومن العربية دخل الفعل إلى الفارسية، لا العكس كما ظن بعض اللغويين؛ ومنه جاء لفظ فارسي هو (درزي)

أي خياط، الذي أصبح في العامية المصرية (تَرْزِي). أما المعنى الثاني لكلمة طراز فهو الطريقة، والخطة، وهو من كلمة (تِرَاز) الفارسية التي معناها المستوى، والميزان، والهيئة.

مهرق: وهو في العربية نسيج أو ورق أبيض يصمغ ويصقل ثم يكتب عليه، واستعملت اللفظة كذلك للأداة التي تستعمل في هذا الصقل، من الفارسية (مهره) بمعنى المِصْقلة.

شَمَخْتَر: في العربية صفة معناها المشؤوم، واللئيم، والمنحوس، من الفارسية (شوم) أي شؤم، و (اختر) أي نجم أو طالع، والمعنى طالع الشؤم، النجم المنذر بالنحس.

بَرَّج: بهرج، بمعنى زين التزييف والخداع، وأصله الفارسي القديم (نبهرج) وأصبح في الحديث (نابهره)، ومعناه الزائف من النقود. وأصله من كلمتين (نا، نه) وهي أداة نفي، و (بهره) يعني فائدة أو قيمة، فيكون معناه الحرفي الذي لا فائدة منه أو لا قيمة له.

ماخور: وهو عند العرب الخمارة، وبيت المومسات، أو هُما معاً. وهو أيضاً من كلمتين فارسيتين: (مي) ومعناها الخمر، والفعل (خوردن) أي شرب، ويكون المعنى الحرفي: مشرب الخمر. ولعله مأخوذ من لفظة أخرى هي في الفارسية (خورند) ومعناها المعد والمناسب، والصالح لأمر ما. فيكون المعنى الحرفي: المكان المهيأ للخمر، المعد لذلك، الصالح له.

نمط: وهو في العربية نوع من البسط والمفروشات، لعله كان يستعمل في تغطية الممرات الضيقة المؤدية إلى الحجرات، وهو في الفارسية (نمد) أي: بساط من لبد، وجاء منه في العربية الفعل **نمط** له على الشيء تنميطاً: دلَّه عليه وأرشده إلى طريقه، وهو الذي أصبح في العامية المصرية (نبط) عليه بتشديد الباء أي أشار إليه ودل عليه باستخفاف. وفي العربية الفصحى النمط، الجماعة من

الناس أمرهم واحد، أي وجهتهم واحدة، ومن ذلك كله جاء أخيراً في العربية النمط بمعنى الطريقة والمذهب، أو الصنف والنوع.

نمق: بمعنى دقق في الزينة، والنمق الكتاب، ونمق الخط أي كتبه جميلاً دقيقاً، وأصل ذلك كله الفارسية (نَامه).

نيزك: وهو الجرم الذي يسقط من السماء، من نوع الشهب والمذنبات في الفارسية (نيزه) يعني حربة، رمح.

فهذه الألفاظ وأمثالها تدل على ما كان من تبادل بين العربية والفارسية في قديم الزمان.

أما الكلمات التي جاءت بعد الإسلام فهذه كثيرة جداً: كاللوزينق، أو اللوزينج، وهو حلوى من اللوز، والجوزينق مثله لكنه من الجوز. والجوسق بمعنى ما نسميه بالكلمة الدخيلة (فيلا)، وقد جاءنا من الجوسق لفظ محرف هو (الكوشك).

والدبوس: وأصله الهراوة القصيرة التي لها رأس مكوّر، ثم تضاءل أمرها فأصبحت تدل على هذه الأداة الدقيقة التي يشبك بها الورق، بالفارسية (توبوز) بباء ثقيلة، وبمعنى الهراوة جاءت في أرجوزة ابن مكانس في آداب المنادمة حيث يقول:

يقوم في الجلوس بالسيف والدبوس

والرهوان: وهو الحصان الجيد السير، من الفارسية (راهور) بمعنى معتدل السير، مشتق من (راه) يعني طريق، و (وار) وهي لاحقة دالة على الصفة المميزة، فيكون المعنى الأصلي: الملائم للطريق.

وإذا كنا قد تلمسنا أقدمية اللغة العربية حتى الآن في ما تبادلته في الحقب السحيقة مع من كانوا جيراناً لها ثم انقرضوا، فإننا لو أبعدنا في تلمس هذا لوجدنا كثيراً منه في اليونانية واللاتينية أيضاً. فمن ذلك على سبيل المثال:

إقليد: بمعنى مفتاح، من اليونانية (كليدا) klida، وجمعه في العربية ليس من لفظه فهو مقاليد بالميم، أي مفاتيح، وقلده منصب كذا، أي سلمه مفاتيح هذا المنصب، ولا علاقة لذلك بالتقليد الذي هو المحاكاة.

أسطورة: باليونانية (استوريا) istoriya، أي قصة، أو حكاية، أو سيرة. وجمعها العرب على أساطير، وربما كان السطر والتسطير مشتقين منها أيضاً.

إبليس: باليونانية (ديابوليوس) diaboleus، ومعناه الأصلي؛ النمَّام والكذاب، ثم انتقل مع الأديان السماوية إلى معنى رئيس الشياطين، ثم حُرِّف على ألسنة العرب بحذف داله الأولى في اليونانية، لشبهها في آذان العرب بأداة التعريف اليونانية وهي التاء.

إقليم: باليونانية (كليما) klima، ومعناه البقعة من الأرض، وما تمتاز به من نوع الجو وطبيعة الهواء.

إنجيل: من اليونانية (إنجيليون) evanglion، ومعناها بشارة، خبر سعيد.

برج: وهو البناء الصغير الشاهق الارتفاع من (برجوس) purgos.

بلسم: وهو كل دواء يشفي الجروح والحروق والالتهاب، أصله (بلسمون) balsamon.

بيطار: وهو طبيب الخيل ثم أصبح يطلق على طبيب الحيوانات عموماً، من اليونانية (ابياتروس) ippiyatros، بمعنى معالج الخيل.

ترياق: من اليونانية (ثرياكوس) (thiryakos)، وهو دواء لمعالجة عض الوحوش، ثم استعمل بمعنى المضاد للسم، وهو معناه بالعربية.

جنس: وهو النوع من الناس أو غيرهم، وأصله (جينوس) (genos).

حلزون: ويقال له أيضاً حلز، وهو حشرة رخوة تعيش في صدفة مبرومة في البر والبحر، من (هِلِكس) (helix)، ويعني خط حلزوني.

دامس: بمعنى شديد الظلام، مأخوذ من (ديموسيون) (dimosion)، أي السجن، وكانت عادتهم أن يجعلوه جباً مظلماً في بطن الأرض، واستعمل العرب لفظة الدِيماس، للمكان العميق الذي لا يدخله النور، وقد سُمي به سجن للحجاج بسبب ظلمته. ولعل منه في عاميتنا الأطعمة المدمسة، كالفول مثلاً، لأنه في الأصل كانت تحفر له حفرة في رماد الموقد أو التنور يدفن فيها منعزلاً عن لهب النار.

زَخْرَف: وهو فعل معناه زين، وأصله من (زو) أي حيوانات، و (جرافيا) بمعنى يكتب أو يرسم، فيكون معنى الكلمة أساساً هو التزيين برسم الحيوانات خاصة، ثم غفل الناس عن هذا التخصيص.

سِنْدَأو: وهي لفظة عربية قديمة معناها اللص وقاطع الطرق، وهي من اليونانية (سنتيس) (sintis) التي تصبح في هذه اللغة في حالة الجر (سنتو) (sintou) بنفس المعنى.

شدياق: وهو شماس، أو كاهن مسيحي وأصله (أرشيديا كون) بنفس المعنى.

طقس: وله معنيان أحدهما عربي أصيل وهو حالة الجو، والثاني يوناني وهو الذي يدل على بعض أشكال العبادات ويجمع على طقوس، وأصله (تاكسيس) (taxis)، بنفس المعنى، وأصل معناها التنسيق، والتنظيم، والترتيب.

طفذ: بفتح الفاء وتسكينها، وهي كلمة نادرة في اللغة العربية معناها القبر، ومنها جاء فعل هو: طفذ الميت، أي دفنه، وهي مأخوذة من اليونانية (تافوس) (tafos) ومعناها قبر، جنازة.

عقر الدار: وتعني به العرب داخل الدار، وهو من القديم الفصيح، لكن لا علاقة له بمعنى مادة (عقر) العربية التي يدل على الجَرْح، والقَطْع، ولا بمعنى (العُقار) بضم العين وهو الخمر، ولا (العَقّار) بالتشديد وهو الدواء

أو ما يتداوى به من النبات، أو الأصل من أصول الأدوية، وهي العقاقير. كما أنه لا علاقة له بمعنى (العاقر) وهي المرأة المصابة بالعقم. وفي اليونانية ترتبط بـه لفـظة (أكرا) (akra)، ومعناها الحصن، وأصله أعلى الشيء، والقمة، ثم القلعة القائمة على مرتفـع من الأرض، فيكون عقـر الدار هو المكان الحصين منها.

طغمة، والطغام: وهو بـالعربيـة يدل عـلى الهمج والمسترذلـين من الناس وأصله في اليونانية (تاجما) (tagma) ومعناه مجموع فرق الجند، الشرذمة من المشاة أو الفـرسان، أو أي شيء كثـير غزيـر، وقد جـاء من هذا المعنى الأخـير في اللغة العربية (الطغَم) بفتح الغين وهو البحر، والماء الكثير. وربما جاء منها أيضاً (الطقم).

فـردوس: ومعنـاه الجنـة، دار النعيم الأبـدي، وهـو من اليـونـانيـة (باراديسوس) (paradisos) التي كانت تعني قديمـاً البستان، المكـان الذي تغـطيه الأشجار، وتعيش في ظلها الحيوانات.

قـارب: وهـو نـوعٌ صغـير خفيف من السفن، بـاليـونـانيـة (كـارابيـون) (Karabion)، بنفس المعنى، وقد جاء لفظ آخر في اللغة العربية من هـذا الأصل هـو (غُراب)، اسم لنـوع قديم من السفن الصغيـرة، ولا عـلاقـة لـه بـالـطائـر المعروف في اللغات السامية بهذا الاسم.

قـرن: وهو في حسـاب الزمن مـائة سنـة، واللغـات السـاميـة الأخـرى، والعربية كثيراً، تقول (المائة الثـانية)... إلـخ. كلمة (قـرن) بهذا المعنى لا تبـدو متصلةً على الإطلاق بقرن حيوان، ولذا ظن بعض الباحثين[١] أنها ترتبط بكلمة (كرونوس) (Khronos)، التي معناها (زمن) أو (دهر) أو (وقت معيّن).

قنـطرة: من اليونـانية (كمبـتر) (Kampter)، ومعناهـا العقد المقـوس لأن القناطر كانت تمر على حنايا مقوسة يجري تحتها الماء.

قنينة: من لفظة (كنيون) (Kannion)، بنفس المعنى.

---

(١) الأب رفائيل نخلة غرائب اللغة العربية، ص ١/٦٢٥.

والألفاظ اللاتينية الأصل كثيرة أيضاً، ومن أمثلة القديم منها الذي يسهم في إثبات ما نريد إثباته بهذا النحو من البحث، وهو كون اللغة العربية قد عاصرت هذه اللغات القديمة، وأن الشعب العربي، في جاهليته الأولى كان مشاركاً في الحضارات المحيطة به، وإن لم يُثبت ذلك بالكتابة، وقد عرفنا أن الكتابة تنشأ لا مع الرقي الثقافي وإنما مع الحاجة الماسة إليها، في مراحل وصور معينة من الحضارة الإنسانية. من هذه الألفاظ:

بُرْجُد: وهو عند العرب ثوب غليظ مخطط، وقد وردت الكلمة في معلقة طرفة بن العبد، حيث يقول في وصف ناقته:

أَمُونٍ كألواحِ الإران نَسَأْتُها عَلَى لاَحِبٍ كأنَّهُ ظَهْرُ بُرْجُدِ

وهو في اللاتينية (باراجودا) (Paragauda)، أي ثوب مزدان بالذهب.

بوق: وهو المزمار النحاسي المعروف، أصله (بوكينا) (buccina)، وهو عند الرومان البوق العسكري، من (بوكا) (bucca)، ومعناها الفم الذي ينفخ في البوق. ومن هذه الكلمة الأخيرة جاء في عاميتنا المصرية (بُقْ) بالضم أي الفم.

سِجل: وأصله (سِجِلُّمْ) (sigillum)، وهو في اللاتينية الخاتم الذي تختم به العقود ونحوها، ثم أطلق عند العرب على الكاتب الذي يسطر هذه العقود ويحفظها، ثم على الدفتر الذي نقيد فيه هذه العقود.

سجنجل: وهي المرآة، وقد وردت في معلقة امرىء القيس، قال:

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل

وأصله في اللاتينية (سكس انجلوس) (sexangulus)، أي مسدس الزوايا. ذلك أن المرآة كانت قديماً صفيحة من الفضة المصقولة المَجْلوة، والظاهر أنه شاع منها هذا الشكل السداسي، جاء عند الأب اليسوعي رفائيل نخلة(١): (قال

(١) نفس المرجع، ص ٢٧٨/ب.

الأب انستـاس الكرمـلي: إن بعض الأعراب في جيلنـا يسمون سجنجـلاً المـرآة المسدسة الزوايا دون غيرها).

سراط، صراط: وهو الطريق الواضـح المريـح للسالك فيه، من (ستراتا) (strata)، وهي الطريق المعبد الواسع.

قميص: أصله في الغالب (كميسيا) (camisia)، بنفس المعنى.

قنديل: وهو المصباح، من (كنديلا) (candela)، وهي الشمعة.

كوب: وهو وعاءٌ للشرب لا عـروة له، من (كـوبا) (cupa)، في الـلاتينية بمعنى البرميل الصغير.

ولـو أننا ركـزنا اهتمـامنا عـلى بحث الجـانب الحضـاري كله، من خـلال دراسة مقارنةٍ بين اللغـة العربيـة واللغات القـديمة، وهـو بحث لم ينجز إلى الآن عـلى جهة الاستقصـاء والإحصـاء، لـرأينـا العجب العجيب من حيث أقـدميـة العرب في منطقتهم هذه. ولو أننا إلى جانب ذلك عكفنا على عاداتهم وتقـاليدهم في الجـاهلية، وعـلى أسماء أصنـامهم، ومقدسـاتهم؛ وعلى أمثـالهم وأسـاطيـرهم وخرافاتهم، لتبين لنا أن الجاهلية الأخيرة لم تكن إلاّ مرحلةً ضئيلةً جـداً من حياة العرب في أميتهم هذه قبل الإسلام بزمن سحيق يصعب علينا الحدس ببدايتـه، ولـو أننا بـالإضافـة إلى ذلك كله عنينـا بجسّ بـاطن الأرض لأغـراض غـير التي ينشدها الباحثون عن النفط والمعادن، فلربما أسفر ذلك عن كشوف تصحح معرفتنا بتاريـخ العرب القدماء، وتزيدها دقةً وتفصيلاً.

وهكذا نجد رينان[١] يقول: «إن وسط شبه الجزيـرة العربيـة، هو مـوطن العرب الأصلي، لم يظهر في تاريـخ الشرق القـديم إلاّ متأخـراً، ومع ذلـك فإنـه هنالك بالتحديد تستمر بفضل الحياة البدوية الميـزات الأصلية للجنس السـامي.

---

(١) Ernest Renan, op, cit — p 320s'

ففي القرن السادس بعد الميلاد يتراءى هناك عالمٌ زاخرٌ بـالحياة وبـالشعر وبـالرقي الفكري، في بلاد لم تعطِ حتى هـذا التاريـخ أيـة عـلامة عـلى وجودهـا. فبدون سابقةٍ ولا تمهيدٍ نلتقي فجأة بفترة المعلقات وغيرها من الشعر الذي احتواه كتاب «الأغاني». شعر فطري في مضمونه، بينما هو من حيث الشكل في غاية الأناقة، ولغته منذ البداية تفوق في لطائفها أشد أنواع الكـلام إمعانـاً في الثقافـة، وبه ألـوان من الحصافة في النقد الأدبـي، وفي البيان، تشبه ما نجده في أشد عصـور الإنسانيـة إعمـالاً للفكر. فـإذا ما وجـدنا هـذه الحركـة تنتهي بعد قـرن من الزمـان بدين جديد، وبفتح نصف العالم ثم تعود من جديد فتنطوي في النسيان.. أفليس من حقنا إزاء ذلك أن نقول إن بلاد العرب، دون جميـع البلاد، تشـذ أكثر الشـذوذ عن كل القوانين التي نحاول بمقتضاها تفسير تطور الفكر الإنساني؟

ومن بين الظواهر التي اقترن بها هذا الانبثـاق غيرالمنتـظر لوعي جـديد في الجنس البشري، ربما كانت اللغة العربية نفسها هي الظاهرة الأشد غرابةً والأكثر استعصاءً على الشرح والتعليل. فهذه اللغة، المجهولة قبـل هذا التـاريـخ، تبدو لنا فجأةً بكل كمالها ومرونتها وثروتها التي لا تنتهي. لقد كانت من الكمال منـذ بدايتها بدرجة تدفعنا إلى القول بإيجـاز إنها منذ ذاك الـوقت حتى العصر الحديث لم تتعرض لأي تعديل ذي بال. اللغة العربية لا طفولة لها، وليست لها شيخوخةً أيضاً. فمنذ ظهرت على المـلأ، ومنذ انتصـاراتها المعجـزة، قيل كـل ما يمكن أن يقال عنها، ولست أدري إذا كان يوجد مثل آخر للغة جاءت إلى الدنيا مثل هذه اللغة، من غير مـرحلة بدائيـة ولا فترات انتقـالية ولا تجـارب تتلمس فيها معـالم الطريق».

هذا قول مستشـرق عُرف بتعصبـه ضد الجنس السـامي عمومـاً، والعرب على الخصوص. والذي لاحظه، هو نفسه الذي يدفعنـا إلى القول بـأن المراحـل البدائية والتمهيدية، وأزمات النمو، ومحـاولات تحسس المنطلَق الصحيـح للفكـر العربـي، كل هذا قد تمَّ في ما قبل تاريـخ اللغة العربية الذي نعرفه. فهي إذن

لم تشذَّ عن قوانين التطور، ولم تستعصِ على محاولات التفسير والتعليل، إلَّا لسببٍ جوهريٍ وهو أن تاريخها القديم ما يزال ضائعاً، لاندثار حضارات قديمة كانت للعرب من قبل، ولعدم احتياجهم إلى الكتابة، نظراً لوجود مَنْ يَكْتب لهم من الروم والنبط وغيرهم في الظروف النادرة التي احتاجوا فيها للكتابة.

ومع ذلك فإن بعض الكتابات العربية قد وَصَلَتْنا، أو وصلتنا أخبارها. فمن هذه الطائفة الأخيرة التي وصلتنا أخبارها المعلقات، فقد قيل، بين أقوال شتى، إنها قصائد سبع، أو عشر، تناقلتها العرب في الجاهلية، وأحبتها حباً جماً، فكتبتها وعلقتها في أكرم مكان عندها وهو الكعبة.

ومن تلك المكتوبات التي روى الرواة خبرها، الصحيفة التي كتابها الملك عمرو بن هند للشاعر طرفة، ولخاله الشاعر جرير بن عبد المسيح، المعروف باسم المتلمّس، وقال: إنه يأمر فيها بجائزة لكل منهما. وتقول القصة: إنه كان قد كتب إلى عامله في الحقيقة أمراً بقتلهما، معتمداً على كونهما أمِّيّين لا يقرآن، فأعطى جرير بن عبد المسيح الصحيفة لمن يقرؤها، ولـمَّا عرف الحقيقة هرب، أما ابن اخته طرفة، فإنه أساء الظن بالقارىء، وبقي يؤمل في الجائزة، فذهب بالصحيفة للعامل، وقُتل.

وأما النصوص المكتوبة التي وصلتنا فأشهرها نقش النمارا، في بادية الشام، وهو في خمسة أسطر محفورة على حجر من البازلت على قبر الملك امرىء القيس بن عمرو المتوفى سنة ٢٢٣ بتاريخ مدينة بُصرى الموافق ٧ ديسمبر سنة ٢٢٨ ميلادية. وأبعاد هذا الحجر هي ١,٧٣ متراً في الطول و٠,٤٥ متراً في العرض و٠,٤٠ متراً في السمك، ويوجد الآن بمتحف اللوفر بباريس، وواضح أن كاتبه نبطي، فالخط المستعمل هو الخط النبطي، واللغة العربية المستعملة تعرَّضت هي أيضاً لتحريفات نبطية، وهذا هو نصه:

١ تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج .
٢ وملك الأسدين ونزارو وملوكهم وهرب محجو عكدي وجا .
٣ بزجي في حبج نجرن مدينت شمر وملك معدو وبين بنيه .
٤ الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه .
٥ عكدي هلك سنت ٢٢٣ يوم ٧ بكسول بلسعد ذو ولده .

وترجمته إلى لغةٍ مفهومةٍ قد تكون على النحو التالي :

١ هـذا جثمـان امـرىء القيس بن عمـرو ملك العـرب جميعـاً ، الـذي عقد التاج
٢ وملك قبيلتي أسـد ، ونزارا ، وملوكهم وصد محج (مذحج)؟ حتى اليـوم وجاء
٣ بنجاح إلى حصار نجران عاصمـة شمر ، وملك (قبيلة) معـد ، وقسم على أبنائه
٤ الشعوب ، وجعلها فرساناً للروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه .
٥ حتى اليـوم . مات سنـة ٢٢٣ ، يوم ٧ (من شهـر) كسلول . السعـادة لأولاده .

ومن المستحسن ألاَّ نترك هذا النص الفريد بدون تعليق :

١ بر عمرو : نلاحظ الصيغة الآرامية النبطية بَرْ بدلاً من ابن .

ملك العرب كله : بدلاً من كلها أو كلهم ، مما يـدعو إلى التسـاؤل ، هـل نسي الكاتب الميم ، أم هل نطق هذه اللفـظة «كلها» بـدون حاجـة إلى أن تكون الألف مكتوبة لأنها حرف مد؟

ذو أسر التاج : ذو معناها الذي ، وهي لغة طائية ويمنية شائعة كقوله :

فـإن الـمـاءَ مـاءُ أبِي وجـدِّي وبِـئـري ذُو حـفـرتُ وَذُو طَـوَيْـتُ

٢ **الأسدين**: هما قبيلتان كل منهما اسمها أسد ولعل إحداهما هي أسد بن ربيعة بن نزار والثانية أسد بن شريك، وهم بطن من الأزد. وقد قدَّر بعض المستشرقين أنه يمكن أن تقرأ هنا «الأسديين» على افتراض أن إحدى الياءين ناقصة.

وهرب **محجو عكدي**: المفهوم من هرب أنه صد الهجوم وفرق الجمع. ومحج مشكلة، ويقول رينيه ديسو[(١)]: إن المفهوم أنها قبيلة. فإذا كان هذا الملك قد هزمها وشتتها، فليس عجيباً أن يبدو اسمها غريباً علينا بما أنها قد اندثرت. ومع ذلك فقد رأى بعض الباحثين[(٢)] أن الكلمة هي (محاج) وأنها وردت في بعض أسماء المواضع في شبه جزيرة العرب، ذكر ابن هشام في السيرة النبوية موضعاً قريباً من مكة اسمه مَدْلَجَة محاج، ويبدو أن المدلجة كانت موضعاً فيه بئر يستقي منها الناس وحوض تشرب منه الدواب، فهذا معناها في لغة العرب، وهي في هذا الموضع منسوبة إلى «محاج» وقد ورد ذكره مع خلافات ضئيلة أحياناً في كتاب «المسالك والممالك» لابن خرداذبة، وفي «معجم البلدان» لياقوت الحموي، وفي «اللسان» لابن منظور. وقد تكون (محجو) هذه تحريفاً وأصلها (مذحجو)، وهو اسم قبيلة. أما «عكدي» فقد اختلفوا في تفسيرها، فخرجها بعضهم على أنها من كلمتين من اللغة النبطية «عد، كدى» الأولى بمعنى حتى والثانية بمعنى ذاك الوقت. وهو تخريج معقول مقبول. وخرجها آخرون على أنها من العكدة وهي القوة فيكون المعنى أنه شتت هذه القبيلة قوة منه وهو كذلك مقبول لا سيما أن أصله عربي، وأنه يستقيم أيضاً في السطر الخامس. وهناك من رأى أن تصحح القراءة إلى «عكرى» بالراء من العكر بالعربية وهو الأصل

---

(١) René Duasoud avec la collaboration de Frédéric Macler; op. cit. p. 20s.

واضح أن المؤلفين «ديسو» و«ماكلير» لا يعتبران هذا النص عربياً، ويضعانه في كتابهما في الباب الخاص بالنصوص النبطية، وكذلك فعل القائمون على نشر «مجموع النقوش السامية في باريس، الذي سبقت الإشارة إليه، وقد ذكروا هذا النقش في القسم النبطي أيضاً.

(٢) Repertoire d'Epigraphie Sémitique no. 483; vol. I, p. 361ss.

والجذر، فيكون المعنى أنه شتتهم أصلاً، أو كما نقول في التعبير المحدث «بصورة جذرية». والواقع أن الذين صححوا ليسوا في حاجة إلى تصحيح، ففي اللغة العربية عكاد الشيء وسطه، وعكدة اللسان أصله، وكذلك عكدة القلب.

٣ بزجي: الباء حرف جر، وفي اللغة العربية الزجاء في الأمر تيسيره واستقامته وسهولته، وربما كانت القراءة الصحيحة هنا بزجاء أي بسهولة وتوفيق، أو بنجاح كما قلنا[1].

حبج: تقول العرب حبجه بالعصا وخبجه وهبجه أي ضربه، وحبج نجران أي ضرب نجران، وإن كان أحد من فسروا هذا النقش قال إنه مثل مادة «حبق» و«حبك» بمعنى أحاط بالشيء وضيق عليه. يضاف إلى ذلك أن القراءة نفسها في هذا الموضع فيها صعوبة. وقد قرأ بعضهم[1] بدل حبج نجران، حرب نجران.

وملك معدو وبين بنيه: وواضح أنه سيطر على قبائل معد، وأنه وَزَّع السلطة على الشعوب، أي القبائل بين بنيه. والواقع أن الكتابة هنا مستغلقة أيضاً، وقد قرأها المستشرق الألماني ليدزبارسكي «**وملك** معدو وبنان ابنيه الشعوب». وهو يفترض أن أمرأ القيس له ابن يسمى بمعد، والثاني بنان، وأنه ملكهما على الشعوب. أما الفرنسي رينيه ديسو فإنه جنح في النهاية إلى أن يقرأ «**وملك** معدو» أي صار ملكاً على معد، (ونزَّل بنيه الشعوب) بتشديد الزاي، أي أنه أقرهم وأنزلهم في الشعوب التي أخضعها، وجعلهم نواباً عنه هناك، فيكون قد قرأ (ونزَّل) بدلاً من (وبين) في القراءة الشائعة.

---

(١) ذكر الدكتور علي عبد الواحد وافي قراءة وترجمة: إلى نزجي، ولا أدري من أين هي ولا ماذا تعني ــ انظر كتابه [فقه اللغة] ص ١٠٠.

(١) المرجع السابق مباشرةً، في نفس الموضع، والقراءة الجديدة منسوبة للعلاّمة رينيه ديسو أيضاً.

٤ ووكلهن: الضمير المؤنث الجمع في هـذا الفعل يعـينّ أن عائــده هو كلمة الشعوب. وكل الذين قـرأوا هذا النقش جعلوا هـذا الفعل مبنيـاً للمعلوم، ممـا أوجد صعـوبات في شـرح مضمونـه، وانطبـاق هذا المضمـون عـلى الصيغـة اللفظية ولذلك تحيـروا في الكلمتين التـاليتين: [فـرسو لـروم] فظن بعضهم أنهما تدلان على الفرس والروم، وهو خطأ من الناحية التاريخية، إذ نعـرف أن الفرس والـروم كـانـا في حـروبٍ دائمـةٍ، ولم يحـدث أن اشتـركـا معاً في مستعمـرةٍ من المستعمرات. ورينيه ديسو يقرأ الكلمة [فارس] ويَرِد على هذه القراءة أن السياق محتاج إلى الجمع حتى يلتئم مع ألفاظ مثـل [بنيه] و[الشعـوب] و[ووكلهن]. ثم إنه في اعتبار هذا المستشرق تكون الواو في [فارسو] من تلك الزيادات النبطية في الأسماء، ويرد على ذلك أن هذه الواو تـأتي في أسماء الأعـلام فقط كما رأينـاها في [عمرو] و[ونزارو] و[محجو] و[معدو]، وقد استبعدنا أن تكون فارسو هذه علماً على الفرس. ويبدو لنا أن الحلَّ هو قراءة الفعل [ووكلهن] إمَّا بتخفيف الكاف، وإمَّا بتشديـدها والبنـاء للمجهول مـع اعتبار فـارسو جمعـاً للمذكـر السالم، توهم الكاتب، وهو نبطي، أنه مضاف لكلمة الروم التي بعده فحذف منه النون. وفي هذه الحالة تكون الواو في ووكلهن للحال، ويكـون المعنى: أن هذا الملك وضـع أبناءه أمراء على قبائل العرب، وكان قد وكل بهذه القبائل حكام عسكريـون من الروم، يفخر بالوصول بهذه القبائل العربية إلى نوع من الاستقلال الذاتي عندمـا كف عن حكمها [فارسو لـروم] تاركـين مكانهم لأبنـاء هذا الملك، ونـظن أنه بهذا المفهوم تزيد الفكرة وضوحاً في قوله [فلم يبلغ ملك مبلغه].

٥ بلسعد ذو ولده: واضحٌ أن الكلمة الأولى تقـرأ [بالسعـد]. والعبارة فيها كلام كثير، أقربه أن يكون دعاء بأنه يسعد الذين أنجبهم هذا الملك بالمجد الـذي بناه لهم. أو أن يكـون دعاء تحـول إلى صيغة هتـاف لمن ولد هـذا الملك، وكأنما قيل ما أسعد الذي ولد هذا الملك العظيم. والذين قالوا بـذلك قـربوه من العبارة الفصحى عندما يقال (يا سعد من ولده). وزعم بعض الشراح أن كلمـة (سعـد) هنا اسم علم لصنم معـروف في الجاهليـة، وأن الباء معـه للجـر، ومن

هؤلاء هاليفي وبايزر. ويعترض ديسو على ذلك بوجود أداة التعريف مع هذا الاسم، وهو اعتراض يسهل التجاوز عنه. ويكون المعنى أنه قد أنجبه أبوه بعناية هذا الإله، ولكن صياغة الجملة لا تستقيم تماماً مع الذوق العربي على هذا التأويل. ثم إننا لا نعرف عن الإله سعد أنه كان معبوداً في هذه المنطقة، قال ابن الكلبي في (كتاب الأصنام): «وكان لمالك وملكان؛ ابني كنانة، بساحل جدة وتلك الناحية صنم يقال له سعد، وكان صخرة طويلة. فأقبل رجل منهم بإبلٍ له ليقفها عليه، يتبرك بذلك فيها، فلما أدناها منه، نفرت منه (وكان يهراق عليه الدماء)، فذهبت في كل وجه، وتفرقت عليه. وأسف، فتناول حجراً فرماه به. وقال: لا بارك الله فيك إلهاً، أنفرت عليَّ إبلي. ثم خرج في طلبها حتى جمعها وانصرف عنه هو يقول:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فَشَتَّتَنَا سعد، فلا نَحْنُ مِنْ سعدِ
وهل سعدُ إلا صخرة بِتَنُوفَةٍ من الأرضِ، لا يُدعَى لغَي ولا رُشْدِ[1]

وسعد أيضاً اسم كوكب في السماء، بل يطلق اسم سعد على أكثر من كوكب واحد، حتى لقد وصل عدد الكواكب التي عرفها العرب بهذا الاسم إلى عشرة، يسمونها (سعود النجوم) ويميز كل منها بكلمة مضافة، وهي: سعد بلع، وسعد الأخبية، وسعد الذابح، وسعد السعود، وهذه الأربعة من منازل القمر، وسعد ناشرة، وسعد الملك، وسعد البهام، وسعد الهمام، وسعد البارع، وسعد مطر، وهذه الستة ليست من المنازل، كل منها كوكبان بينهما في رأي العين نحو ذراع. وربما كان المقصود في هذا النقش تحديد وقت ولادة هذا الملك بمنزل من منازل القمر، حسب العادة القديمة، لا سيما أن العبارة واردة بعد تاريخ وفاته، ومن المحتمل أن يكون المنزل المقصود هو (سعد السعود) لأن العرب كانت تحبه وتتفاءل به وتقول «إذا طلع سعد السعود نضر العود»، فهو نجم خصب وخضرة.

(١) أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي الأصنام ـ القاهرة سنة ١٩٢٤، ص ٣٧.

وهذا النقش أقدم وثيقة مكتوبة بالعربية وصلت إلينا، وهو يؤكد أن اللغة العربية كانت هي هي، منذ ما قبل الجاهلية المعروفة في تاريخ الأدب العربي، وهي متأخرة في الزمن بنحو قرنين من الزمان على الأقل بالنسبة له. مع أخذ التأثير النبطي للكاتب في الاعتبار.

وهناك نقشان آخران بالعربية أحدهما نقش زبد[٢]، وهو مكتوب باليونانية والسريانية إلى جانب العربية ويرجع إلى سنة ٥١٢ ميلادية.

والنقش الثاني هو نقش حوران ويرجع إلى سنة ٤٦٣ من تاريخ مدينة بصرى أي ٥٦٨ ميلادية، فنحن إذن على مشارف مولد الرسول عليه السلام وهو مكتوب بالعربية واليونانية، والنص العربي فيه هو:

١ ـــ أنا شرحيل بر ظلمو بنيت ذا المرطول.
٢ ـــ سنت ٤٦٣ بعد مفسد.
٣ ـــ خيبر.
٤ ـــ نعم.

وقد ترجمه رينيه ديسو، وتناقلت هذه الترجمة دراسات أخرى عن هذا النص، بما مضمونه:

أنا شراحيل بن ظالم، بنيت هذا المرطول.

والكلمة الأخيرة معربة عن اليونانية [مرتوريون] وهي واردة بهذا اللفظ في الجزء اليوناني من النقش، ومعناها الدليل، والحجة، والبرهان، والشاهد. ولعله كان بناء صغيراً للدلالة على ملكية إقليم، أو على طريق، أو مرحلة من طريق، فقد كانت هذه على ما يبدو عادة أمراء العرب، وقد استمرت بعد الإسلام،

---

(١) نسبة إلى اسم الموضع الذي عثر عليه فيه، جنوب شرقي حلب، قريباً من الفرات، إلى جنوب قنسرين ـــ والقسم العربي من هذا النقش مكون من سطرين لا يكاد يفهم شيء منهما.

ومن أمثلتها إذ ذاك نقشان لعبد الملك بن مروان، أحدهما عثر عليه في باب الواد بفلسطين وصيغته:

[الطريق. . .، عبد الله عبد الملك، أمير المؤمنين رحمه الله عليه من إيليا إلى هذا، الميل ثمانية أميال.] — (إيليا هي مدينة القدس). والثاني عثر عليه في دير كزيبة اليوناني وصيغته:

[. . .عبد، الله عبد الملك أمير، المؤمنين رحمة ا، لله عليه من دمشق إ، لى هذا الميل، . . . أميال ومابة ميل][1].

فلعل مرطول شراحيل بن ظالم كان أيضاً شاهداً على الطريق. أما الكلمة التي جاءت في السطر الثالث فقد أجمع الأثريون رغم قراءتهم إياها [حينئذ] على أن الحرف الأخير هو راء واضحة جداً وليس دالاً أو ذالاً، كما أن الحرف الذي قبله في هذه القراءة وهو الياء المهموزة غير موجود على الإطلاق. والقراءة الصحيحة التي استقر عليها العلماء لهذه الكلمة ليست [حينئذ] ولكن [خيبر]. ويكون السياق أن البناء قد حصل سنة ٤٦٣ بعد مفسد خيبر، أي بعد تدميرها وهي المستعمرة اليهودية التي كانت شمال يثرب [المدينة المنورة] وكانت، كغيرها من المستعمرات اليهودية في بلاد العرب، تتعرض للهجوم والتدمير. أما السطر الرابع وهو [نعم] فإنه يُقرأ: إما فعلاً بفتح النون وكسر العين فيكون دعاء بالنعمة لصاحب البناء، أو بكسر النون وسكون العين فيكون إعجاباً به أو ببنائه؛ وذكر الدكتور علي عبد الواحد: بعد مفسد خيبر بعام، ولا بأس به لولا أنَّ الكتابة لا تؤيده تماماً.

ولسنا بحاجة بعد كل ما قدمناه عن قِدم العرب ولغتهم إلى مزيد من الأدلة. غير أننا نلحظ هذا القِدَم في نصوص من الأدب العربي ذاته. فعنترة يقول:

---

(١) النقشان مذكوران في Répertoire, Tome I-No. 366, p. 300

هـل غـادر الشعـراء مِـنْ مُتَـرَدَّم　　　أم هـل عـرفت الـدار بعـد تـوهم

فيشعرنا بقوله هذا أن أجيالاً من الشعراء قد مضت من قبله ولم تترك مجالاً لقائل من بعدهم. وقالوا: إن الشاعر الجاهلي المهلهل بن ربيعة قد سمى كذلك، لأنه أول من هلهل الشعر، وأن اسمه قبل ذلك كان امرأ القيس بن ربيعة؛ أو أن اسمه عدي أو ربيعة، وهو أخو كليب الذي قتل في حرب البسوس. وشرحوا كونه (هلهل) الشعر بترقيقه له، أو إرساله الشعر غير منقح كالثوب المهلهل، أي الممزق، أو لقوله في بيت شعر خاطب به زهير بن جناب بن هبل الكلبي:

لمّـا تـوغَّـل في الكُـراعَ هَجِينُهم　　　هَلْهَلْتُ أَثْـأَرُ مـالكـاً أو صِنْبِـلا

والفعل هلهل في اللغة العربية يدل على ترجيع الصوت، مثله في ذلك مثل الفعل (هلل).

وليس ببعيد أن تكون العرب قد جرت منذ الحقب السحيقة على قول الشعر بأوزانه السامية القديمة، التي لم تكن أوزاناً بحساب الحركات والسكنات الدقيق الذي في علم العروض؛ وإنما كانت نوعاً من التقسيم في عناصر الفكرة أو الصورة أو المعنى، يترتب عليه بالضرورة تقسيم في الألفاظ المعبرة عن ذلك، على نغم أقل رتوباً وتكراراً من أوزان العروض المعروفة. هكذا كان شعر البابليين في ملاحمهم، والكنعانيين فيما عُثر عليه من أساطيرهم في رأس الشمرة، والعبريين في ما بقي لديهم في كتابهم المقدس من المزامير والمراثي والأناشيد.

ولعل هذاالشعر العربي القديم قد ارتطم أول الأمر بالرجز، الذي كان وزناً موسيقياً للصياح والترجيع والتهليل الجماعي المنتظم، في الحروب، وعند سير القوافل، واستنباط الماء من جوف الأرض ونحو ذلك، وفي الأراقيص وأغاني النساء في الأعراس والمآتم وعند تدليل الأطفال، بينما بقي الشعر العربي بعيداً عن هذا التهليل حتى جاء المهلهل فابتدع فيه الشكل الموسيقي الذي نعرفه، أو توسَّع في ذلك، فانتشر وأقبل عليه الشعراء، واندثر النوع الآخر

أو بقي يفرض نفسه على بعض الشعراء، حتى عندما حاولوا أن يتركوه إلى اللون الجديد. فمنهم عَبِيد بن الأبرص في بائيته المشهورة، التي عدها بعض الرواة من المعلقات وأولها:

أقفر من أهله مَلْحوب ... فالقُطَّبِيَّاتُ فالذَّنوبُ

على قول كثير من الرواة، بينما جعلها بعض ثقاتهم، ومنهم أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي في (الجمهرة) تبدأ بقوله:

عيناك دمعُهما سَرُوب ... كأن شَأْنَيْهما شَعِيْبُ

فقد كثر في هذه القصيدة الخارج على الوزن المتفق عليه في العروض حتى قال أبو العلاء في اللزوميات:

وقد يخطىء الرأيَ امرءٌ وهو حازمٌ
كما اختلَّ في وزن القريض عَبيد

فمن قول عبيد في تلك القصيدة:

فكل ذي نعمة مَخْلوسُها ... وكل ذي أَمَل مكذوبُ

وقوله:

لا يعظُ الناسُ من لا يعظ الدهـ ... ـرُ ولا ينفع التَّلْبيبُ
إلا سجايا من القلوب ... وكم يُرىٰ شانِئاً حبيبُ
ساعدْ بأرضٍ إذا كنتَ فيها ... ولا تَقُلْ إنني غريب
قد يُوْصَلُ النازح النائي وقد ... يُقْطع ذو السُّهْمة القريب

فلو أننا حكَّمنا عروض الخليل بن أحمد في مثل هذه الأبيات لما كان لنا مَناصٌ من أن نقول فيها بقول أبي العلاء، من أن صاحبها أخطأ، واختلَّ في وزن القريض. لكننا نتردد كثيراً قبل حكمٍ كهذا. إذ كيف حدث أن تَعَلَّق العرب بقصيدةٍ مختلة الوزن؟ وكيف اعتبروها واحدة من عشر قصائد وصل حبُهم لها إلى درجة التقديس؟ وكيف حفظوها وتناقلوها وهي قصيدة طويلة،

حتى وصلتنا، مع أنه قد ضاع من كلام العرب في الجاهلية شعر وعلم كثير، ولم يصل إلينا من ذلك إلا أقله؟[1] إنه يبدو عجيباً، وغير جدير بالتصديق، أن يكون العرب قد قصرت أذواقهم، وأفهامهم عن إدراك الخلل في وزن هذه القصيدة، وهم معجزة الشعوب في تنميق الكلام، والمقدمون في البلاغة، حتى ليكاد الأدب يكون الفن الوحيد الذي عرفوه من بين الفنون الجميلة، فهم لم يكونوا مصوِّرين أو مَثَّالين أو مهندسين، وهم لم يكونوا أرباب مسرح ولا روَّاد غناء وموسيقى، ولكن كان الأدب عندهم هو زينة الحياة وترفها، وكانت الفصاحة والدراية باختيار الكلمة، ونظمها في سمط الفكرة التي تجول بالخاطر، على نحوٍ يقنع المستمع، ويمتع أذنيه، ويبهر قلبه وعقله، النهج الأقوم لاكتساب الرفعة وعلو المنزلة في المجتمع.

ثم إنَّنا لو تأملنا موقفهم من القرآن الكريم، وهم بعد على وثنيتهم وكفرهم لزادنا ذلك رغبة في السؤال والاستفسار. فهم قد وصفوا النبي عليه السلام بأنه شاعر، **﴿ويقولون أإنَّا لتاركو آلهتِنا لشاعرٍ مجنون﴾** (الصافات ٢٦). وكانت هذه التهمة من القوة والجدية بحيث استحقت رداً من الله تعالى، **﴿فلا أقسم بما تبصرون. وما لا تبصرون. إنه لقول رسول كريم. وما هو بقولِ شاعر، قليلاً ما تؤمنون. ولا بقول كاهن، قليلاً ما تذكرون. تنزيلٌ من رب العالمين. ولو تَقَوَّل علينا بعضَ الأقاويل. لأَخَذْنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوَتين. فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين. وإنه لَتَذْكِرَةٌ للمتقين. وإنَّا لَنَعلُم أنَّ منكم مكذِّبين. وإنه لحسرة على الكافرين. وإنه لحقُّ اليقين. فسبح باسم ربك العظيم﴾**. (الحاقة ٣٨ إلى آخر السورة). ونحن نعلم أن القرآن الكريم، وهو المعجزة الكبرى لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، تحدَّى

---

(١) «وحكى يونس بن حبيب البصري عن أبي عمرو (بن العلاء) أنه قال: ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير» ــ نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تأليف الإمام العالم أبي البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري طبع حجر بالقاهرة سنة ١٢٩٤هـ، ص ٣٣.

هؤلاء العرب ببلاغته، أن يأتوا بسورة، بل آية من مثله. والتحدي إنما يكون في الصفة التي يفخر بها المعاند، ويَـدّعِي فيها السبق على كل العالمين. والعرب كما قلنا كان فنهم البلاغة، فليسوا إذن من يُظَن به أن يخطىء في التمييز بين الشعر والنثر؛ فعندما وصفوا الرسول ــ حاشاه ــ بأنه شاعر، تذكروا وهم يسمعون هذا القرآن، بقية مما وصلتهم أصداؤه من تراثهم القديم، فقالوا: إنه شعر، فإذا لم يكن شعراً فهو من سجع الكهان، وهو فن من فنون الأدب الجاهلي قضى عليه الإسلام، وانتقل اسمه عند المسلمين إلى فن من المحسنات اللفظية البحتة يذكرونه بين أنواع البديع، أو هو من أساطير الأولين، وهو فنٌّ من فنون الشعر الملحمي عرفه العرب دون شك، ولكنهم لم يُورِّثونا إياه، إذ كان قد اندثر على الأرجح في الجاهلية الأولى التي ما زلنا لا نعرفها، وأخلى مكانه لتلك الألوان من الشعر الغنائي التي تفشَّتْ في الجاهلية الأخيرة، والتي قد نعرفها بعض المعرفة.

بعيدٌ جداً، والحالة هذه؛ أن يكون العرب قد أحسوا في القرآن الكريم بشيء يشبه الشعر بسبب جهلهم وخشونة أذواقهم وكثافة حسهم. وبعيدٌ جداً أن ينزل الوحي مراراً وتكراراً للرد عليهم ودحض هذه الشبهة عن الكتاب المنزل، ﴿**وما علمناه الشعرَ وما ينبغي له، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين**﴾ (يس ٦٩) إلا إذا بلغت التهمة من الخطورة، وكان المفتري للتهمة من الجدارة بالثقة، بحيث يحتاج إفحامه إلى أن ينزل الوحي بذلك.

ولكن القرآن الكريم لا يمكن أن يشتبه بهذا الشعر الموزون المقفى الذي نعرفه، حتى عند أقل الناس دراية بنقد الكلام والتمييز بين أساليبه. لكل ذلك نقول: إن هذا الشعر العربي الموزون المقفى، كان بدعة الجاهلية الأخيرة، وكان الفن الذي ميَّز تلك الحقبة من أدب العرب عن الحَقب التي سبقتها.

وهذه الحقب التي سبقتها، وهي طويلة موغلة في القدم كما قلنا، كان لها هي أيضاً شِعْرها، وكان على الأرجح شعراً بعضه غنائي وأكثره ملحمي أسطوري. والغنائي منه كان على أوزان عروضية مما يعرف في عروض الخليل،

وفي مقدمتها الرجز، وربما كانت معه أوزان قليلة أخر من الأبحر الوحيدة التفعيلة. أما الشعر الآخر، هذا الذي اندثر وقورن به القرآن الكريم بعد تقادم عهد كفار مكة به، وعدم معرفتهم إياه، إلا أصداء خافتة بقيت تطن في رؤوسهم من القرون الأولى، من هذا الشعر الملحمي الأسطوري، فمن المؤكد أنه كان يجري على نهج الساميين جميعاً، الذين كانوا يودعون الجرس الموسيقي في ثنايا الألفاظ الحاملة لعناصر الفكرة، مقسمة تقسيماً كمياً لا من حيث اللفظ ولكن من حيث المضمون. هذا النوع من الشعر شائع كما قلنا عند الأكاديين والكنعانيين والعبريين، ولا شك أنه كان هكذا، أوبصورة مقاربة، عند العرب الأوائل الذين عاصروا تلك الأمم، بل سبقوها ولم يكتبوا شيئاً من تراثهم على حد علمنا إلى الآن. وهذا دليلٌ آخر على ما نذكره ونكرره من قدم هذه اللغة العربية، وأنها الفرع الأول المنبثق عن السامية الأم التي لا نعرفها، بل لعل العربيةَ هي السامية الأم مع شيءٍ قليل من التطور. وهذا أيضاً هو الذي أمدَّ الجاهلية الأخيرة بتذكار باهت جداً منه، بدا في تردد عبيد بن الأبرص في قصيدته البائية بين المذهبين، ثم بدا في تلفيق كفار العرب لتهمة تعاطي الشعر يفترونها على الرسول، وفي ضمائرهم أنه هذا اللون من الشعر الذي عرفوا، بالعنعنات المتوارثة عن الأسلاف، أنه كان يحكي أساطير الأولين، على نسق من الموسيقى غير شعرهم هذا الموزون المقفى.

وبعد، فهل اندثرت كل تلك الأصداء تماماً؟

ينقل العالم الفرنسي الأب هنري فليش، عن الباحث الفرنسي المستشرق مونتاني، تقريراً حول رحلاته بين عرب شمَّر (وهم بدو متاخمون للجزيرة) يفرِّق فيه بين نوعين باقيين إلى الآن من شعراء الفولكلور يقال لأحدهما (القصاد) أو (القاصود) وهو منشد القصيد، وللثاني (الصليْبي) وهو الشاعر المحترف، يقول: «فالشاعر المحترف ينتقل من قبيلة إلى قبيلة، ومن مخيم إلى مخيم، متكسباً بشعر المديح. والدور الاجتماعي الذي يقوم به هام لأنه يوسع أفق الأدب بين

البدو، بترويجه في أقاليم شاسعة الكثير من القصص بعد أن يخلع عليه الصورة الجمالية التي يحسنها بما أوتي من موهبة. وهو من وجهة النظر اللغوية نفسها يبدو وكأنه الناشر للغةٍ بدوية موحدة تفهمها جميع القبائل؛ إذ يعتمد في ذلك على لهجة يعرفها، تجمع بين خصائص لهجات عنيزة، وشمر المقيمين في جاسم، ولهجات أواسط نجد، وتلك التي يتكلمها عرب الحسا المسمَّون بقحطان[1]. وهذا (الصلَيْبي) فيما ذكره عنه رواد الجزيرة العربية ليس من أعيان العرب، ولا من ذوي العزوة بينهم، بل هو الطارىء على كل حي وعشيرة، الطالب للصدقة، الفقير الذي يَرى قطاعُ الطرق أنه من العار أن يتعرضوا له أو يسرقوه، أو أن يرعوا حرمته في نسائه، لفرط ضعفه وهوانه، وهو مع ذلك دعامة من دعائم الحياة البدوية في الفكر والأدب في العصر الحديث».

إن تاريخ العرب السياسي والاجتماعي والديني، ومساهمتهم في تطور الإنسانية وتقدُّمها يبدأ بالإسلام والقرآن. واللغة التي خدمت ذلك كله هي العربية الفصحى، وقد كانت تعيش إلى جانب هذه اللغة الفصحى، التي قدَّسها العرب منذ الجاهلية، لهجات كانت من القوة والانتشار بحيث صعب على كثير من العرب أن يكونوا مفهومين خارج قبيلتهم حتى يتعلم الواحد منهم تلك اللغة المقدسة العامة، لكي يفصح بها عن حجة قومه في المجامع والأسواق. ففي بعض اللهجات يقلب الحرف الرخو حرفاً شديداً، فمن ذلك قَلْبُ الذال دالاً في قبائل ربيعة حيث تنطق كلمة الذِكْر (دِكْر). وطيء تقول عن اللص (لِصْت)، وتميم هي وقيس تقولان للطين اللازب (طين لاتِب)، ويهود خيبر ينطقون الثاء تاء، قال اليهودي الخيبري:

ينفع الطيبُ القليل من الرز ق ولا ينفَعُ الكثيرُ الخبيتُ

وفي لهجات اليمن تقلب السين تاء، كقول الراجز:

(1) Henri Fleisch, Introduction à l'Etude des Langues Sémitiques, paris, 1947-p. 98

يــا قــاتــلَ اللَّهُ بني السَّعْـلاة　　　عمرو بن يربـوع شرار النـاتِ
غــيــر أعــفّــاءَ ولا أكــيــاتِ

وهناك لهجات عربية قديمة تقلب الحاء عيناً، وقد نسبوا لقبيلة هذيل قولهم مثـلاً (اللعْم الأعمـرْ أعْسن من اللعْم الأبيض) أي اللحم الأحمـر أحسن من اللحم الأبيض. ومن ذلــك نـطق بعض العــرب (عتى) بـدل حتى، ومنهم من يعكس فينطق العين حاء، يقول (نحم) في نعم، وبهـا قرأ ابن مسعـود (إذا بُحْثِرَ ما في القبور) في قوله تعالى: ﴿إذا بُعْثِرَ﴾. ويسمون اللهجة الأولى التي تنطق بها هـذيل: الفحفحـة، وإن كان الأستـاذ الدكتـور إبراهيم أنيس يـرجـح أن تـدل الفحفحة على العكس(١). كذلك عُرفت تميم وقيس عيلان بنطق خاص يسمونه العنعنة، وهي قلب الهمزة عيناً في أول الكلمة، مثل:

فلا تُلْهِكَ الـدُّنيا عن الـدين واعتمل　　　لآخـرة لا بُــدّ عَـنْ ستـصيـرُهــا

وقال ذو الرمة:

أعَن تـرسَّمْتَ من خـرقــاءَ منـزلــةً　　　مـاءُ الصبـابـةِ من عينيـكَ مسجُـومُ

فنلاحظ أن كلمة أن المصدرية جاءت في هذين البيتين بالنطق (عن).

ونقل الأستاذ الدكتور إبـراهيم أنيس رواية نسبت إلى الفـرّاء يقول فيهـا: «إن بني تميم وقيس وأسد ومَنْ جـاورهم يجعلون ألف «أن» إذا كـانت مفتـوحــة عيناً، فيقولون: أشهد عنك رسول الله، فإذا كسروا رجعوا إلى الهمزة. ثم ينتقل إلى ما يصفه بأنه من أمثلة (العنعنة) التي رواها الأصمعي في وسط الكلمة، (دأم الحائط) أي دعمه. . . إلـخ. وليس هذا في رأينا بـالعنعنة، بـل هـو عكسهـا، إذ

(١) الـدكتور إبـراهيم أنيس ــ في اللهجات العـربية ــ الـطبعة الثـالثة ــ القـاهرة ١٩٦٥، ص ١٠٢ وما بعدها.

(٢) نفس المرجـع، ص ١١٠.

الأصل العين. والأصمعي لم يذكر هنا عنعنة، فقد جاء في كتاب الأمالي(١): قال الأصمعي: يقال: آديته على كذا، وأعديته، أي قويته وأعنته. ويقال: استأديت الأمير على فلان في معنى استعديت، وأنشد ليزيد بن خذاق العبدي:

ولقد أضاء لك الطريقُ وأنْهَجَتْ　　　سُبُلُ المكارمِ والهُدَى يُعْدي

يقول: إبصارك الهدى يقويك على الطريق، ومعنى يُعْدي يقوي، ومنه أعداني السلطان، قال: ولقد أضاء لك الطريق، أي أبصرت أمرك وتبينته.

وأنهجت: صارت نهجاً واضحة بينة. قال: وسمعت أبا تغلب ينشد بيت طفيل الغنوي:

فنحنُ مَنَعْنَا يومَ حَرْسٍ نساءَكُمْ　　　غداةَ دعانا عامرٌ غيرَ مُعْتَلي

يريد مؤتلي. ويقال: كثأ اللبن، وكثع، وهي الكثأة، والكثعة، إذا علا دسمه وخثورته رأسه، وأنشد:

وأنت امرؤ قد كَثَّأَتْ لَكَ لِحْيَةٌ　　　كأنك منها قاعد في جُوَالِقِ

ويقال: موت(٢) زُؤاف وزُعاف، وذُعاف إذا كان يعجل القتل. ويقال أردت أن تفعل كذا وكذا، وبعض العرب يقول: أردت عن تفعل. وقال يعقوب بن السكيت، أنشد أبو الصقر:

أريني جوادا مات هُزْلاً لألّني　　　أرى ما تَرَيْنَ، أو بخيلاً مُخَلَّدا

يريد لعلني. وقال الأصمعي: يقال التمأ لونه، والتمع لونه، وهو السأف والسعف. وقال يعقوب سمعت أبا عمر يقول: الأسن قديم الشحم وبعضهم يقول: العسن.

---

(١) كتاب الأمالي؛ لأبي علي القالي ــ طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة، سنة ١٩٢٦، ج ٢، ص ٧٨ ــ ٧٩.

(٢) لعله كلمة (موت) هنا سبق قلم، والمقصود سُمّ.

وكانت هناك لهجات عربية قديمة تقلب الميم باء في بعض كلامها، واشتهر ذلك عن بني مازن من ربيعة، كانوا يقولون با اسمك؟ يعني ما اسمك؟ وهناك من يقلبون الياء ميماً، وقد أثبتت المعاجم العربية الفعل (كمح) بمعنى (كبح) ونحو ذلك. وهناك لهجات تُنطق فيها الكاف شيناً فيقال (مِنْش) أي (منك)، و (عَلَيْش) أي (عليك). وحكى بعضهم أنه سمع أعرابية تقول لجارتها: (ارجعي وراءَش فإن مولاشِ يناديشِ) والشينات هنا في مكان كافات، ويقال: إن هذا النطق كان شائعاً في ربيعة، وكان يسمى الكشكشة، وقال بعضهم: إنه كان شائعاً بين عرب اليمن وكان يسمى شنشنة. وظاهرة قلب الكاف شيناً ليست خاصة باللهجات العربية القديمة، وإنما هي تنويع صوتي لهجي تتعرض له لغات من غير العائلة السامية. وفي اللغات العامية المنبثقة من العربية في العصر الحديث يكثر قلب الكاف لا إلى شين بسيطة، ولكن إلى صوت مركب من تاء وشين معاً، روى الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس[1] أنه سمع في مصر من ينطقون (كوم النور) فيقولون: (تْشِم النُور) لكن بكسر الشين بعد التاء الساكنة. وفي بوادي الأردن وفلسطين وسوريا وأجزاء من العراق وشبه الجزيرة العربية ينطقون الكاف فيحولونها إلى (تشاف) ويقولون مثلاً: (تْشَان التشلب واقف قدام الدار والجمل بارتش) أي: كان الكلب واقفاً قدام الدار والجمل باركاً.

وقد لاحظت بنفسي في أرياف فلسطين وبوادي الأردن وبعض سوريا أن الذين ينطقون الكاف هكذا، أغلبهم ينطقون القاف إما جيماً مصرية غير معطشة، وإما كافاً رقيقة، وعلى النطق الأخير سمعت من يقول (تشَلامَ الكَلْب يزدُك) يعني (كلام القلب يصدق). أما شين الكشكشة القديمة فإنها ما تزال تظهر أحياناً في العراق، فما نزال نسمع بين الشيعة خاصة بمن يسمى (شلب علي) أي (كلب علي).

---

(١) نفس المرجع، ص ١٢٤ ــ ١٢٥.

وقد ذكروا لهجة مشابهة تتحول فيها الكاف سيناً، وسماها اللغويون (الكسكسة) وقالوا: أنها شائعة في قبيلة بكر، حيث يضيفون سيناً على الكاف الواقعة في آخر الكلمة، فيقولون: عندكس أي عندك وهكذا، واضطرب العلماء في هذه اللهجة فنسبها بعضهم لغير بكر من القبائل مثل تميم وأسد أو ربيعة عموماً. وتكثر الكسكسة والكشكشة في لهجات البدو في نطق كاف المخاطبة المؤنثة.

ونقلوا لنا فيما نقلوا لهجة أخرى يسمونها العجعجة، وهي قلب الياء الأخيرة المكسورة ما قبلها جيماً، أنشد أبو زيد:

يا ربِّ إن كنتَ قبلت حَجَّتِجْ   فلا يزال سابح يأتيك بِج

وقال الحماسي:

خالي عويف وأبو علجٍّ   المُطْعمان الضيفَ في العَشِجِّ

وهذه اللهجة توصف بها قضاعة، وإن كان الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس[1] يستدرك قائلاً: «ولكنا نعلم أن قضاعة قد تفرعت إلى سبعة أحياء: بلي، جهينة، كلب، عذرة، بهراء، نهد، جرم. وبين هذه الأحياء السبعة مَنْ تأثروا بالحياة الحضرية، كما أن بينهم من عاشوا عيشة البداوة. وخير من يمكن نسبة هذه الصفة إليه من أحياء قضاعة: جهينة، أو جرم. فالعجعجة لم تكن في الحقيقة صفة كل أحياء قضاعة، وإنما يحتمل أنها كانت صفة هذين الحيين فقط. وقد قَيَّد الرواة عجعجة قضاعة بأن تسبق الياء بالعين، وضربوا أمثلة لهذا مثل: «الراعج خرج معج» أي: الراعي خرج معي، ويظهر أن الياء فيما ساقوه من أمثلة لم تكن في نطق القضاعيين ياء مَدّ، بل كانت صوتاً ساكناً. ونلاحظ هنا احتياط الأستاذ واستعماله للفعلين «يحتمل» و«يظهر» ومع ذلك فأي نوع من

(١) نفس المرجع، ص ١٢٦ ــ ١٢٧.

الجيم كان يقع بدل الياء، فمن الجيم الجافة وهي أيضاً نطق معروف في بعض القبائل العربية القديمة، كالعباد مثلاً، إلى الجيم الشديدة المعطشة المقلقلة، هناك مجال للتصور والافتراض لا نستطيع القطع فيه بشيء. ويزيد من صعوبة الأمر هذا الشرط الذي قيدت به عجعجة قضاعة بأن تقع الياء أخيرة بعد عين مكسورة، ولذلك قالوا في مثل البيتين اللذين أتوا بهما مثلاً للعجعجة عامة إنهما يمثلان ذلك في غير قضاعة، وبالتحديد في بني فُقَيم، وهم حي من دَارِم من بني تميم.

وهناك لهجات قديمة تنطق السين صاداً، وغيرها يقلب الصاد سيناً، ونسبت الأولى إلى بني العنبر، وهم بدو من تميم، يقولون الصَاق بدل الساق، كما أن بعض بدو من ربيعة يقولون السَقْر بدل الصقر، والسَخَب بدل الصخب. والقاف والكاف تتبادلان كذلك، فقد روى اللغويون الفعل «كشط» عن قريش و «قشط» عن تميم وأسد.

والواقع أن ظهور الإسلام، واجتماع كلمة العرب على كتاب واحد وحول حكومة واحدة، ثم انطلاقهم المذهل للسيطرة على عالم مترامي الأطراف من جنوب فرنسا وإسبانيا كلها غرباً، إلى داخل الصين والتبت وجزر ماليزيا وأندونيسيا شرقاً، قد جعل لهجات الأحياء العربية تغرق في هذا الطوفان الحضاري الجارف، فلا تنال من عناية علماء العرب القدامى، إلا بالقدر الذي يتيح لهم أبراز صفات الرقة والاستقامة والنقاء والصفاء في لغة قريش، لغة القرآن الكريم، اللغة التي دخلت في ضمائر المسلمين وذممهم مع كتاب دينهم، وأصبحت، حتى لغير المسلمين من العرب، لغة عز وحسب ونسب يتعصبون لها، ويذودون عنها، كالمسلمين سواء بسواء.

وإذا كانت اللغة العربية قد صمدت في وجه عاديات الدهر منذ ظهور الإسلام إلى الآن، فإن ذلك يرجع إلى طمأنينة المفكر العربي إلى أنه واجد فيها دائماً وسيلة مرنة، كما يقول رينان وغيره من المستشرقين، للتعبير عن أعقد

مسالك الفكر وأدقها. وإلى طمأنينته أيضاً من حيث بقاؤها في نطاق تطور شعبي للألسنة، ولدت منه لهجات عامية، منذ القدم، هي استمرار للهجات أحياء العرب في الجاهلية، وصدى لاتساع الرقعة التي تنتشر فيها هذه اللغة. وهذه الطمأنينة هيأت شكلاً من أشكال التعايش السلمي بين الفصحى وما تمخضت عنه من عاميات، فهذه العاميات لم تفكر، على مستوى الفكر الرصين المتزن، في قتل الفصحى، ولكنها كانت تكراراً لنفس الظاهرة التي سَنَّتها الطبيعة من وجود لغة للفكر الأعلى، ووجود كلام في الشارع لا يحاول العدوان على لغة الفكر الأعلى هذه.

وقد عَدَّ المهتمون بعاميات العربية لهجات مختلفة في شبه جزيرة العرب، في الحجاز ونجد واليمن وحضرموت ودثينة وظفار وعُمان وبعض أقاليم زنجبار في شرق إفريقية. ثم تأتي اللهجة العراقية العامية بشعبها المختلفة ولا سيما في بغداد والموصل وماردين. وتليها الكتلة اللهجية الشامية في سوريا ولبنان وفلسطين والأردن. واللهجة المصرية جديرة بدورها بدراسة علمية غير الدراسات التي قام بها المستشرقون في خدمة الاستعمار: ففي الدلتا وفي الصعيد وفي الواحات والسواحل لهجات، لكل منها لونه الخاص، هي بعد ما تزال أرضاً بكراً للدارسين. وهناك لهجات شمال إفريقية من ليبية وتونسية وجزائرية ومغربية وموريتانية، ثم لهجات العرب في الأقاليم المحيطة ببحيرة تشاد، وكذلك اللهجات السودانية.

ونحن نعلم من ثنايا كتب الأدب والتاريخ وغيرها أن لهجات عامية منبثقة عن العربية كانت معروفة تشد انتباه الكثير من المؤلفين، حتى إن أديب العربية الكبير الجاحظ يقول: إن رواية القصة المضحكة التي نسمعها بلكنة العوام إذا صححت وحكيت بالفصحى والتزمت فيها قواعد النحو والصرف بردت وسمجت. كما أننا نعلم أن فنون الزجل قد ظهرت في الأندلس وبرع فيها جماعة من أمثال ابن قزمان والششتري وغيرهما، وأن المواليا، وهو فن شعري عامي، قد ظهر في المشرق في أوج العصر العباسي، ومع ذلك لم يصب أحد من

العرب بالذعر من ازدهار تلك الفنون، هذا فضلاً عن الملاحم والأغاني الكثيرة التي انتشرت في كل أرجاء الشرق العربي بالعامية. ذلك أن أدب العامية نفسه لم يكن يبغي من وراء ذلك قتل الفصحى، بل كان يريد أن يدخل شيئاً من الترف الأدبي والفكري على حياة العوام ممن حرموا من معرفة الفصحى وتذوقها وإتقانها. ولذلك لم يحاول عالم من العلماء أن يكتب بها في الطب أو الكيمياء أو الفقه أو تفسير القرآن أو التاريخ أو الفلسفة أو غيرها من العلوم.

أمَّا دعاة العامية في العصر الحديث فهم على جانب لا يستهان به من الخطورة. لأنَّ الفصحى نفسها، بعد أن انكمشت وتخلفت عن ركب الحضارة الإنسانية طيلة عصور الانحطاط التي فرضتها عليها التبعية التركية في البلاد العربية التي سيطر عليها المماليك ثم العثمانيون، والتي فرضتها عليها الفوضى السياسية والفقر والانقسام في البلاد العربية التي تُركت هملاً، خرجت من تلك المحنة ضعيفة، محتاجة إلى أن تعبِّد طريقها أولاً، ثم تقطع الشوط، حتى تلحق ركب العصر الحديث. هنا قام دعاة العامية، بعضهم بدافع صادق من الرغبة في التقدم، وعدم إضاعة الوقت في تدارك ما فات، ومحاولة جمع الشتات، وبعضهم حقداً على العربية الفصحى لسبب أو لآخر، يشجعهم على ذلك المستعمر، فنادوا بصيحة طائشة يعلنون فيها أن الفصحى قد أصبحت أثراً بعد عين، وأن الناس يجب أن يتعلموا، وأن يكتبوا، كما يتكلمون. وقد فاتهم أن الناس في كل مكان لا يكتبون ويتعلمون كما يتكلمون، وأنه توجد في داخل لغات الاستعمار نفسه، سواء أكانت إنجليزية أو فرنسية أو إيطالية أو ألمانية أو هولندية أو إسبانية أو تركية أو غيرها، لهجات لا تطمح في التربع على عرش الفكر، وأن ما نسميه بالكيان العربي في العصر الحديث ليس كياناً سياسياً ولا هو بالكيان العنصري، ولكنه كيان ثقافي ولغوي أولاً وقبل كل شيء، أثبت جدارته في حقب دقيقة من تاريخ الإنسانية، وبنى حضارة أفادت العالم كله لم تكن وسيلتها العنصر ولا الدولة ولا حتى الدين بقدر ما كانت اللغة، ولأن الدعوة إلى العامية تفتيت لهذا الكيان، ولأن هذا الكيان لم تلتئم عناصره بالقوة

ولا بالدولة ولا بالدين بقدر ما التأمت بصورة تدريجية عفوية تلقائية حول لسان واحد هو العربية الفصحى، فإن هذا الكيان نفسه كان وما يزال يرفض ذلك التفتيت، حتى في أحلك أوقات الشدة التي تجتازها اللغة العربية الفصحى.

* * *

الحبشة

قلنا إن هذه البلاد تقع غرباً في مواجهة اليمن ويفصلها عنه مضيق باب المندب. والساحل الإفريقي من باب المندب جنوباً، وهو الواقع على المحيط الهندي،عبارة عن سهل منبسط يبدو أخضر خصيباً إلى جزء كبير من أريتريا، ثم يسوده بعد ذلك جفاف صحراوي كلما اتجهنا جنوباً حتى يصبح قفراً قاحلاً.

أما داخل البلاد فإنه هضبة جبليةٍ مرتفعة تبدأ من أريتريا أيضاً حتى العاصمة «أديس أبابا». وفي هذه الهضبة قمم شاهقة قد تتجاوز في بعض الأحيان ٤٦٠٠ متر، تشقها وديان عميقة تجري فيها الأنهار وتجعل منها مواقع حصينة لوعورة مسالكها.

وهذه الهضبة تتعرض للرياح الموسمية صيفاً، فتهطل عليها أمطار غزيرة جداً، هي التي تمد النيل بمياه الفيضان، بينما السهل الساحلي يكون في شهور الصيف شديد الحرارة شديد الجفاف أيضاً.

في هذه الهضاب والجبال، التي تشقها الوديان والأخاديد العميقة، عاشت القبائل والمجموعات البشرية المختلفة التي تسكن الحبشة أزماناً طوالاً، كل منها يتطور بمعزل عن الآخر.

وتاريخ الحبشة في بدايته الأولى غامض كغيره من تواريخ الساميين. ومع ذلك فقد وصلتنا مجموعة من النصوص من مملكة أكسوم، وهو اسم العاصمة القديمة للحبشة، وكانت تقع على بعد ١٧٨ كيلومتراً من ساحل البحر

الأحمر. وهي مدينة قديمة جداً، جلس على عرشها ملوك من اليونان منذ القرن الرابع قبل الميلاد، وكانت في عهد المؤرخ الروماني «اسطرابون» مركزاً هاماً لتجارة سن الفيل، وقد ظلت مزدهرة إلى القرن الرابع والخامس بل السادس بعد الميلاد. وكانت قد أصبحت مقراً لأسرة مسيحية حبشية حاكمة امتد سلطانها إلى اليمن، بل كانت الدولة البيزنطية تدفع لها إتاوةً[١].

ونصوص التاريخ الخاص بملوك أكسوم وجد بعضها باللغة الحبشية القديمة «الجعزية» وبعضها الآخر باليونانية. وإلى جانب هذه النصوص هناك معلومات قديمة عن الحبشة وصلتنا في النقوش العربية الجنوبية القديمة، وبعضها يذكر سيطرة أكسوم على أجزاء من الساحل اليمني. وهناك أيضاً أخبارا عن الحبشة وردت في كتابات الرحالة والمستكشفين الأوروبيين القدماء، كما ترد معلومات كثيرة في ثنايا كتب السير والتاريخ عند المسلمين، وهي أخبار خصبة ولكنها تحتاج إلى مزيد من التحقيق عند الأخذ بها، لما دخل عليها من خلط واضطراب.

ولما كان المعينيون والحميريون والسبئيون في اليمن القديم حريصين على السيطرة على التجارة في مضيق باب المندب، فإنهم طمحوا منذ عصور قديمة جداً، يقول موسكاتي إن ذلك على أية حال كان سابقاً على القرن السادس قبل الميلاد، طمحوا إلى السيطرة على الضفة الغربية لهذا الممر المائي. فعبروا على موجات متعاقبة، وكان بعضهم يستقر على ساحل إريتريا، ثم يتوغل إلى الداخل مغتصباً أقاليم كاملة من السكان «الكوشيين». وبسرعة اتجهت أنظارهم إلى الهضبة الخصيبة حيث أخذوا في توطيد أقدامهم عليها. وكان من بين من

---

(١) Sabatino Moscati; Histoire et Civilisation des Peuples Sémitiques Payot – Paris, 1955 – P 213 ss.

وراجع أيضاً إلى:

A. H. M. Jones & E. Monroe: Histoire de l'Abyssinie: Payot – Paris, 1935.

هاجر إلى تلك الهضبة مجموعة من النازحين يسمون أنفسهم «الحبشات» وقد أطلق اسمهم على البلاد كلها فصارت تدعى الحبشة.

وقد سبق ذكر اللغة الجعزية على أنها أقدم لغة مكتوبة في الحبشة، وهي أيضاً تستمد اسمها، على الأرجح، من قبيلة أخرى من أولئك النازحين من اليمن اسمها «الجعز»، وحسب قانون طبيعي في تطور التاريخ، نجد أولئك الساميين بعد أن استعمروا الحبشة لليمن، يفكرون من جديد في الاستقلال بالحبشة عن اليمن. هكذا قام عليهم ملك كان لقبه «النجاشي» منذ القرن الأول المسيحي، وكانت عاصمته أكسوم التي تقع في داخل البلاد بعيداً عن اليمن.

في هذا القرن الأول يصلنا كتاب باليونانية يعالج فيه مؤلفه جغرافية ساحل بحر أريتريا، فيخبرنا فيه بأن شعب أكسوم كان يحكمه ملك اسمه «زوسكاليس»، وهو رجل بخيل طمّاع جمّاع للمال، ولكنه مقدام شجاع ومتضلع في الآداب اليونانية.

وهناك نقش يرجع إلى القرن الثاني أو الثالث للميلاد مكتوب فيه «ملك الأكسوميين، سمبروتيس الأكبر»، ونقش آخر من القرن الثالث الميلادي مكتوب باليونانية كسابقه، يتكلم عن فتوحات في الشمال والجنوب والشرق لملك الأكسوميين، أي في اتجاه مصر، وفي اتجاه جنوب إثيوبيا، وشرقاً إلى اليمن. على أية حال فقد كان الأكسوميون مهتمين بالإشعاع السياسي والحربي والاقتصادي إلى أبعد ما يستطيعون، لدرجة أنه قد وجدت جنود لهم في جيش الزبّاء ملكة تدمر، بشهادة النصوص التاريخية الرومانية. وحول أواخر هذا القرن الثالث كانت أكسوم تسيطر على اليمن، كما أنها غزت مملكة «مَرَوِي» في السودان وخربتها، بشهادة نقش يوناني وُجد في أطلالها كما تطالعنا النقود القديمة للحبشة بأسماء ملوك، حتى نصل إلى ملك اسمه «أزانا» اعتلى العرش حوالي سنة ٣٢٥ ميلادية، وقد قام بغزوات كثيرة كانت إحداها لبلاد النوبة.

في غضون هذا القرن الرابع الميلادي بدأت المسيحية تدخل إلى الحبشة على يد رهبان مصريين من أتباع بابوية الإسكندرية. وقد لوحظ أن الملك أزانا نفسه كان يفتتح نقوشه في الفترة الأولى من حكمه متوجها إلى آلهة وثنية: بينما وجد في النقش الذي سجل به ذكرى غزوته للنوبة قوله: وبقوة رب السماء، الذي هو في السماء وعلى الأرض،مهيمن على كل ما هناك، والراجح أن رب السماء هو الله في الدين المسيحي.

ويبدو من هذا أن الملك اعتنق دين المسيحية وجعلها ديناً رسمياً لبلاده، ولكن ما هو الدافع إلى ذلك؟ ربما كان مزيدا من التقرب من بيزنطة، حامية المسيحية الكبرى في الشرق. وبهذا يكون تدين الحبشة المسيحية في بدايته عملاً سياسياً لوضع اليمن الوثنية بين قوتين مسيحيتين: الحبشة من جهة والروم البيزنطيين من أخرى. ولعل ذلك هو السبب في تخلِّي الملك اليمني ذي نواس عن دينه الوثني، واعتناقه اليهودية، وتعذيبه لنصارى نجران. ثم لعل ذلك كان العلة المباشرة لإرسال الحبشة جيوشها إلى اليمن بقيادة الملك «كالب» لوضع حد لهذه الأحداث.

على كل حال فقد سقطت اليمن تحت الاحتلال الأكسومي الحبشي سنة ٥٢٥. ومن أشهر من نعرفهم من الأمراء الأحباش في اليمن في تلك الفترة أبرهة الذي حاول غزو مكة في عام الفيل، وفيه ولد النبي ﷺ. وقد خلفه على حكم اليمن ابنه يكسوم، الذي كان طاغية غليظ القلب.

وبعد ظهور الإسلام غزا العرب الحبشة في القرن السابع الميلادي وأقاموا لهم رأس جسر هو ميناء زيلع.

أما التطور الديني في الحبشة فإنه يبدأ في حدود ما نعرفه عنها بوثنية مستوردة من اليمن يعبد فيها إله اسمه «إستار»، وهو نفسه الإله اليمني «عثتر» وهو بدوره متطور عن الآلهة السامية القديمة «عشتر» أو «عشتروت»، ولكنه يأخذ هنا صورة إفريقية تجعله إله السماء، وتجعل بجانبه معبوداً آخر اسمه «مَدَرَ»

وهي الأرض الأم و «محرم» وهو الإله الوطني، إله الحرب، ويقول موسكاتي إنه في بعض النقوش يتألف من هذا الثالوث كتلة مقدسة يضم إليها «بحر» وهو إله البحر في قول البعض، وعند آخرين أنه نطق محرف عن محرم.

وبعد ذلك تسود المسيحية على عهد أزانا كما قلنا، على المذهب الأرثوذكسي، ويذكر تاريخ القديسين المعرف عند الأحباش أن راهباً مصرياً اسمه الأنبا مقّار كان له الفضل في تبشير هذه البلاد بالإنجيل. ويذكر أيضاً أن تسعة من القديسين البيزنطيين هربوا من بيزنطة لاعتناقهم مذهب الطبيعة الواحدة الذي أثار انشقاقاً في المسيحية الشرقية في القرن الرابع، ولجأوا إلى الحبشة فوطدوا فيها الإيمان المسيحي وشجعوا على بناء الكنائس والأديرة.

ويكاد كل ما وصلنا من الكتابات الحبشية ينحصر في العصر المسيحي. ومنذ هذه القرون إلى عصرنا هذا تطورت اللغة؛ إذ أصبحت الجعزية لغة قديمة أثرية، سادت بعدها لغة أَمْهَرَة وهي المقاطعة الوسطى في الهضبة الحبشية، وهي اللغة الأمهرية التي يبدو فيها الأثر السامي أضعف منه في الجعزية، بينما تظهر التيارات اللغوية الإفريقية الكوشية بوضوح. وهذه اللغة الأمهرية هي الآن اللغة الرسمية الفصحى للدولة والدين في الحبشة، ويبدو أن ذلك بدأ منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي.

والحبشية، الجعزية والأمهرية، تستعملان خطاً مأخوذاً عن الخط الحميري «المسند»، مع إضافة الحركات المختلفة إلى كل حرف في داخل بنية الكتابة، بحيث نستطيع أن نقول إن الأبجدية الحبشية هي أبجدية، وكتابة مقطعية في آن واحد.

ومن أشهر لهجات الحبشية الحديثة التجرينيا أو التجرائية وهي سائدة في المناطق القريبة من مدينة أكسوم القديمة، وهذه اللهجة، هي وأختها التجرية التي يتكلمها عدد كبير من سكان السواحل، منهم قبائل من المسلمين، هما أقرب اللهجات الحديثة إلى الجعز. أما لهجة المسلمين في التجمعات السكانية المتحضرة فهي اللهجة الهَرَرِيّة نسبة إلى مدينة هرر، التي كانت في الماضي إمارة إسلامية.

كذلك توجد في جنوب هرر لهجة الأرجوبا. أما في المناطق الجبلية فقد سُجلت حديثاً لهجة الجُوراجوة. وهناك لهجات تكاد تكون مجهولةً تماماً لنا، أشهرها الجَافَات نسبة إلى إقليم صغيرٍ يقع في جنوب الحبشة.

بهذه الجولة في آفاق الساميين، لغةً وتاريخاً وحضارةً نعتقد أن الباحث العربي يستطيع أن يقدم على التزود بما يجب للمقارنات اللغوية من وسائل؛ إذ البحث اللغوي المقارن في ألسنة الساميين لن يتمخض إلاَّ عن مزيد من النور على لغتنا العربية، ومزيد من المجد أيضاً.

● ● ●

الفهارس

(١)

فهرس المصادر والمراجـع

(أ) باللغة العربية :

١ ــ إبراهيم أنيس (الدكتور) : في اللهجات العربية . القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٢م .

٢ ــ ابن الكلبي (أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب) : كتاب الأصنام . القاهرة ، ١٩٢٤م .

٣ ــ أبو علي القالي : كتاب الأمالي . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٦م .

٤ ــ الأنباري (أبو البركات عبد الرحمٰن بن محمد) : نزهة الألبا في طبقات الأدبا . القاهرة ، طبع حجر ، ١٢٩٤ هجرية .

٥ ــ جرجس الرزي : الكتاب ، في نحو اللغة الآرامية السريانية الكلدانية وصرفها وشعرها . بيروت ، المطبعة الكاثوليكية للآدباء اليسوعيين ، ١٨٩٧م .

٦ ــ داود بن أبراهام (أبو سليمان داود بن إبراهيم الفاسي) : كتاب جامع الألفاظ ، أو الإجرون . نشره سالمون سكوس في مجلدين ، الأول ١٩٣٦م ، والثاني ١٩٤٥م ، فيلادلفيا ، الولايات المتحدة الأمريكية .

٧ ــ رفائيل نخلة (الأب اليسوعي) : غرائب اللغة العربية . بيروت ، الطبعة الثانية . ١٩٦٠م .

٨ ــ القرآن الكريم .

٩ ــ الكتاب المقدّس : العهد القديم والعهد الجديد .

(ب) بلغات أخرى :

1 — Baentsch, B. , David: Roi d'Israel. Payot, Paris, 1935.

2 — Barton, C. A: Semitic and Hamitic Origins, Social and Religious. London, 1934.

3 — Bezold, Carl: Babylonisch - Assyrisches Glossar. Heidelberg, 1962.

4 — Breasted, James Henry: La Conquête de la Civilisation. Payot, Paris, 1945.

5 — Cantineau, J: Geammaire du Palmyrenien Epigraphique: Le Caire, 1935.

6 — —— : Le Nabatéen. 2 Vols, Paris, 1930.

7 — Chiéra, Edward, Les Tablettes Babyloniennes - Ce qu'on écrivait sur l'argile. Payot, Paris, 1939.

8 — Delaporte, Louis: Les Peuples de l'Orient Méditerranéen ; 1 Le Proche, Orient Asiatique. Paris, 1938.

9 — Del Medico. H. E: La Bible Cananéenne découverte dans les Textes de Ras - Shamra. Payot, Paris, 1950.

10 — Dhorme, E: Langues et Ecritures Sémitiques, Paris, 1930.

11 — —— : La Religion des Hébreux Nomades. N.S.E. , Bruxelles, 1937.

12 — Dupont - Sommer, A: Les Araméens. Paris, 1949.

13 — —— : Les Manuscrits de la Mer Morte - Aperçus Préliminaires. Paris, 1950.

14 — —— :Les Manuscrits de la Mer Morte - Nouveaux Aperçus. Paris, 1953.

15 — —— : Observations sur le Commentaire d'Habacuc découvert près de la Mer Morte. Paris, 1950.

16 — Dussavd, René & Frédéric Macler, Mission daus Les Régions Désertiques de la Syrie Moyenne. Paris, 1903.

17 — Fleisch, Henri: Introduction à l'Etude des Langues Sémitiques. Paris 1947.

18 — Freud, Sigmund: Molse et le Monothéisme. Traduit de l'Allemand par Anne Berman. Paris, 1948.

19 — Gesenius, Wilheim: Hebräisches und Aramäsches Handwörterbuch - Bearbehet Von Dr. Frants Buhl. Leipzig, 1921.

20 — Hommel, Fritz: Die Schwurgotterin Esh - Channa und Ihrer Kreis. Paris, 1912.

21 — Jones, A.H.M. & E. Monroe: Histoire de l'Abyssinie. payot - Paris, 1935.

22 — Mielzine ,M. : Introduction to the Talmud. New York, 1925.

23 — Moret, A. & Davy, G. : Des Clans aux Empires. Paris. 1923.

24 — Moret, A. : Le Nil et la Civilisation Egyptienne. Paris, 1920.

25 — Moscati, Sabatino: Histoire et Civilisation des peuples Sémitiques - Edition Française revue et mise à jour par l'auteur. Paris, 1955.

26 — Parrot, André: Archéologie Mésopotamienne - Les Etapes ; Albin Michel. Paris, 1946.

27 — Pittard, Eugène: Les Races et l'Histoire. Paris, 1924.

28 — Renan, Ernest: Histoire Génerale et Système Comparé des Langues Sémitiques. Paris, 1855.

29 — Repertoire d'Epigraphle Sémitique - Edité par la Commission du Corpus Inscriptionum Semiticarum. Paris, 1900 - 1905.

30 — Tabouis, G. R. Salomon, Roi d'Israel ; Payot - Paris, 1945.

31 — Thomas, Bertram : Four Strange Tongues From South Arabia.

بحث منشور في محاضر الأكاديمية البريطانية ، مجلد ٢٣ ، سنة ١٩٣٧ ، لندن .

32 — Zaza, Hassan: Essai Sur Le Vocabulaire Religieux de Sa'adia Caon - Ecole Pratique des Hautes Etudes. Paris 1948.

33 — —— : L'Oeuvre Grammaticale d'Ibn - Djanâh - Thèse Présentée à la Sorbonne. Paris, 1958.

* * *

(٢)
فـهـرس الأعـلام

[س]

[ش]

(٣)
الفهـرس الجغـرافي

[ش]

[ص]

* * *

(٤)

فهرس الشعوب والقبائل والطوائف

* * *

(٥)

فهرس اللغات واللهجات

[ف]

[ك]

[ل]

[م]

* * *

(٦)

فهـرس الألفـاظ

* * *

(٧)

فهـرس الموضوعـات

● ● ●

صدر للمؤلف من هذه السلسلة

مكتبة الدراسات اللغوية

(١)

اللسان والإنسان

مدخل الى معرفة اللغة

مكتبة الدّراسات اللّغويّة

(٢)

كلام العرب

من قضايا اللّغة العربيّة